## الطاهر بنجلّون

مكتبة سومر

# السعادة الزوجية

28.8.2017 (13)

رواية

المركز الثقافي العربي

الطاهر بنجلّون

# السعادة الزوجية

Telegram: SOMRLIBRARY

Telegram: SOMRLIBRARY

الطاهر بنجلّون

# السعادة الزوجية

رواية

ترجمة: معن عاقل

المركز الثقافي العربي

Telegram: SOMRLIBRARY

العنوان الأصلي للرواية:

**Le bonheur conjugal**

© Éditions Gallimard,
Paris, 2012

الكتاب

**السعادة الزوجية**

تأليف

**الطاهر بنجلّون**

ترجمة

**معن عاقل**

الطبعة

الأولى، 2014

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-695-0

جميع الحقوق محفوظة

© المركز الثقافي العربي

الناشر

**المركز الثقافي العربي**

**الدار البيضاء ـ المغرب**

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

**بيروت ـ لبنان**

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 01 750507 ـ 01 352826

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

Telegram: SOMRLIBRARY

«ماريان: هل تظن أنه يمكن لكائنين أن يعيشا معاً طوال الحياة؟

جوهان: الزواج عقد اجتماعي ساذج، قابل للتجديد كل عام أو الفسخ، [....] فَكِّري في دفع مخالفات سيارتك، إنها تتراكم»

**مشاهد من الحياة الزوجية**، إنغمار بيرغمان

«نحن نصنع حظنا»

**جيلدا**، كانغ فيدور

Telegram: SOMRLIBRARY

Telegram: SOMRLIBRARY

## الجزء الأول

# الرجل الذي أحب النساء حباً جماً

Telegram: SOMRLIBRARY

Telegram: SOMRLIBRARY

# تمهيد

وقفت ذبابة عادية على أرنبة أنفه. لا هي كبيرة ولا صغيرة، رمادية، سوداء، خفيفة، وقحة. تشعر أنها على ما يرام فوق هذا الأنف الذي هبطت عليه مثل آلة طائرة على حاملة طائرات. تنظِّف قائمتيها الأماميتين. كأنها تفركهما وتصقلهما بمهمة عاجلة. لا شيء يزعجها. تقوم بكل شيء وهي مستقرة في مكانها. لا تزن شيئاً، لكنها مزعجة. تثير أعصاب الرجل الذي لا يستطيع طردها. يحاول أن يتحرك، أن يُحدث ريحاً؛ نفخ وصرخ. لم تكترث الذبابة. ظلَّت مواظبة. إنها هناك على ما يرام، ولا تنوي الهرب. مع أن الرجل لا يرغب بإيذائها، يريدها فقط أن ترحل وتدعه بسلام، هو الذي لم يعُد يستطيع أن يحرك أصابعه ويديه وذراعيه. لم يعد جسده يعمل. صار معوّقاً الآن. أصابه نوع من العطب على مستوى الدماغ. ذلك أنّ مصيبة مفاجئة وقعت له منذ ثلاثة أشهر. شيء ما لم يدرك القصد منه ضربه كالصاعقة. لم يعُد رأسه يتحكَّم بأعضائه. فها هو مثلاً يريد أن يرفع ذراعه ويطرد المتطفلة، لكن لا شيء يتحرك. وها هي الذبابة تسخر منه. وسواء كان مريضاً أم في صحة جيدة، فهذا لا يغير في الأمر شيئاً، لأنها تواظب التبرج على أرنبة هذا الأنف الضخم. يحاول الرجل أن يتحرك مرة أخرى. فتتشبث الذبابة. يشعر أن



Telegram: SOMRLIBRARY

قوائمها الصغيرة والشفافة تقريباً تنغرس في بشرته. إنها مستقرة تماماً ولا تراودها أية رغبة في الذهاب إلى أي مكان آخر. كيف وصلت إلى هنا؟ وأيّ تعاسة ساقتها إذاً؟ الذباب حر، لا يطيع أحداً، ويفعل ما يحلو له، ويطير عندما نحاول اصطياده أو سحقه. يُقال إنه يرى في جميع الاتجاهات، وإن يقظته مدهشة. وها هو الرجل الآن يسعى إلى معرفة أي طريق سلكته لتصل إليه. آه، الحديقة! الكلاب التي لا تُنهي طعامها. يعرف ذباب الحي كلّ منزله والركن قرب البوابة. يهرع إليه من كل مكان، وهو واثق أنه سيعثر فيه بالتأكيد على قوْته. وبعد أن يأكل حتى الشبع، يتنزه ويطير هنا وهناك ليهضم طعامه. يدندن وينقضّ في الفراغ، ويحوم في كل الاتجاهات. وها هو أنف بشري يعرض نفسه ويدعوهم لزيارته، لكن عندما استقرت عليه أول ذبابة، لم تتجرأ أية واحدة أخرى على مزاحمتها عليه. أما الرجل فيتعذب. وتراوده الرغبة في أن يحكّ نفسه، ورغبة بأن ينهض ويجري وينظِّف بنفسه المكان القذر في الحديقة الذي اعتاد الحارس أن يلقي فيه جزءاً من القمامة. وحتى يحسب نفسه مسؤولاً عن إصلاح العالم: لو أن البستاني ارتاد المدرسة، ولو أن والديه الفلاحين لم يهجرا قريتهما ليأتيا ويستقرا في المدينة ويصبحا متسولين ويغسلا السيارات ويحرسا المرائب، ولو أنّ المغرب لم يعرف عامين من الجفاف الشديد، ولو أن أموال البلد وزِّعت بتوازن بين المدينة والريف، ولو أن هذا الأخير اعتبر مخزناً وكنزاً للبلد، ولو أن الإصلاح الزراعي أنجز بعدالة، ولو أنه خطر ببال الحارس هذا الصباح أن ينظف هذا الجزء من الحديقة المخصَّص للقمامة، ولو أنه بذل جهداً في طرد الذباب الذي صادفه هناك، وفوق ذلك لو أن الرجلين اللذين يهتمان به كانا عند سريره، لما استطاعت هذه


Telegram: SOMRLIBRARY

الذبابة، هذه الذبابة الشيطانية، أن تهبط على أنفه وتسبِّب له حكة مؤلمة تثير جنونه، هو من ألزمته أزمة في شرايين الدماغ السرير قبل ستة أشهر من الآن.

يقول في سره إنه تحت رحمة حشرة، حشرة في غاية الضآلة. هو مَن كان بوسع مجرد بعوضة أن تجعله في حالة غضب غير مبرَّرة، عندما كان في أوجّ صحته. وهو طفل، كان ينهمك ليلاً في مطاردات حقيقية للبعوض، فيسحقه بكتب ضخمة لا تزال أغلفتها تحتفظ بآثار الدم حتى اليوم. لأنه هناك، حيث كان يعيش، كان يبدو أن البعوض لا يتأثر بالنباتات المسمومة، كما لا يتأثر بالمنظفات والمنتجات السامة. وذهبت زوجته إلى حدّ اللجوء إلى مشعوذ كتب لها طلاسم وتلا الصلوات لطردها، لكنها كانت أقوى من كل شيء. كانت تمضي الليل في امتصاص الدم البشري لتختفي في الفجر. إنها مصاصة دماء.

في هذا العصر، جاءت الذبابة لتثأر لحشرات المغرب التي قتلها طوال حياته. وهو حبيس جسده المشلول، صرخ الرجل عبثاً، صاح وتوسَّل، لكن الذبابة لم تتحرك وأمعنت في تعذيبه. ليس عذاباً كبيراً، وإنما إزعاج صغير جداً يثير أعصابه بقوة - وهو ما لم يستشر به في الحالة التي هو موجود فيها.

وبعد ذلك، نجح الرجل رويداً رويداً في إقناع نفسه أن الذبابة لم تعُد تزعجه؛ وأن رغبته الملحَّة بالحك خيالية. هكذا، بدأ ينتصر عليها. هذا لا يعني أنه شعر بتحسّن، لكنه أدرك أن عليه القبول بالواقع والكفّ عن التذمر. علاقته بالزمن والأشياء في الأشهر الأخيرة تغيرت طبيعتها. وإصابته هي الدليل. لم يعُد يفكِّر الآن في الذبابة.


Telegram: SOMRLIBRARY

فجأة جاء مساعداه اللذان كانا يلعبان الورق في الغرفة المجاورة ليريا إنْ كان الرجل على ما يرام فطارت الذبابة على الفور. لم يعُد لها أيّ أثر الآن، غضب صامتٌ فقط، غضبٌ مكبوح بليغ الدلالة في حالة هذا الرجل - كرسام لم يعُد يستطيع الرسم.



Telegram: SOMRLIBRARY

# الفصل الأول

## الدار البيضاء، 4 شباط/ فبراير 2000

«في داخلي شحنات حب، لكن كأنها مدفونة في حجرة مغلقة»

**مشاهد من الحياة الزوجية**، إنغمار بيرغمان(*)

كان الرجلان القويان اللذان حملاه ووضعاه على أريكة مقابل البحر يلهثان. وكان المريض أيضاً يعاني من صعوبة في التنفّس ونظرته مترعة بالمرارة. وحده شعوره كان يقظاً. تضخَّم جسده وأصبح ثقيلاً. أما نطقه فكان بطيئاً وأغلب الأحيان غير مفهوم. وكثيراً ما جعلاه يكرِّر ما يقوله وهو ما كان يكرهه لأنه مرهِق ومُذلّ. صار يفضِّل التواصل بعينيه. حين يرفعهما، يعني الرفض، وحين يخفضهما، يعني الموافقة، لكنها موافقة خضوع. وذات يوم، أحد التوأمين - هكذا يسمي مساعديه مع أنهما ليسا شقيقين - جلب له

(*) يعدّ إنغمار بيرغمان، الذي توفي عن 89 عاماً، بلا منازع، عملاقاً في التاريخ العالمي لفن السينما. فمنذ أربعينيات القرن الماضي وحتى القرن الحادي والعشرين أخرج بيرغمان ما يزيد على الستين فيلماً. وقد أدهش بيرغمان الناس باستعداده للإقرار، في أفلامه، بحقائق القسوة، الموت، وفوق كلّ ذلك، عذاب الشّك.



Telegram: SOMRLIBRARY

سبورة صغيرة وقلم حبر مربوط بطرف خيط، معتقداً انه أحسن التصرف. انتابه غضب شديد وأسعفته القوة ليرميهما على الأرض.

في ذلك الصباح، لم يستطع التوأمان حلاقة ذقنه لأن طفحاً من البثور الجلدية حول الذقن جعل العملية عسيرة للغاية. لم يكن سعيداً. إنه مهمل. شعر بنفسه مهملاً. ولم يكن يحتمل ذلك. ومنذ أن أصيب بسكتة دماغية فظيعة، صار يرفض أي تهاون في مظهره ولباسه. وعندما اكتشف أن بقعة قهوة على ربطة عنقه لم تنظف، ازداد عبوساً. فسارع التوأمان إلى تغييرها، وها هو الآن يرتدي ثياباً بيضاء، لكنه ظل يتذمر في سره.

حين كان يتكلم، كان التوأمان يخمنان ما يقوله، حتى لو لم يفهما بعض الكلمات. كانا يقرآن تعابير وجهه ويتوقعان رغباته. وصار يترتب عليهما امتلاك حاسة سمع حادة والكثير من الصبر. حين يتعب، يغمض عينيه مراراً، للدلالة على أنه يجب عليهما تركه وحيداً. لعله كان يرغب بالبكاء عندئذٍ، هو من كان ألمعياً وأنيقاً ومشهوراً في كلّ مكان يحلّ فيه. كان الموت قد لامسه، لكنه لم ينجز مهمته. يشعر بذلك كأنه إهانة، كأنه دورٌ رديءٌ أُعدَّ له ليلعبه، عليه أن يلعبه، دورٌ رديءٌ وشريرٌ أيضاً. كان هذا سبب ضيقه الدائم. هو مَن كان يحلم بالموت وهو غافٍ مثل عمّه الكهل المتعدِّد الزوجات والمرح، لكن انتهى به الأمر أن يحصل له ما حصل لكثير من الأصدقاء والمعارف من أترابه. فقد وصل إلى سنٍّ حرجة كما قال الطبيب. وكان لا بد لسنّ النضج أن يواجه بعض العواصف.

عندما سكن غضب الأشهر الأولى قليلاً، قرَّر أن يبتسم لمن يزوره، وهي طريقته في ألّا يستسلم للانحطاط الجسدي الذي يخلف أحياناً انحطاطاً روحياً. لذلك طفق يبتسم طوال الوقت. كانت هناك



Telegram: SOMRLIBRARY

ابتسامة الصباح الخفيفة والمعطّرة، وابتسامة الظهيرة، نافدة الصبر وجافة، وابتسامة المساء، التي تحوّلت مع الزمن إلى تكشيرة خفيفة. ثم فجأة كفّ عن الابتسام. لم يعُد يرغب بالتظاهر. ولماذا يبتسم؟ ولمن ولأي غرض؟ كان المرض قد أفسد عاداته. المرض أم الموت؟

لم يعد هو الإنسان ذاته، وقد لحظَ ذلك في عيون الآخرين، إذ فقد هيبته كفنان كبير، لكنه ظلّ يرفض التواري؛ وكان يودّ لو يستطيع الخروج في أقرب وقت وأن يُظهر نفسه في حالته الجديدة. سيكون تمريناً صعباً، لكنه كان يتشبث به.

الغريب أنه لم يخطر بباله يوماً أن يتخلى عن الرسم، رغم شلله شبه التام. كان مقتنعاً أن المرض الذي ابتلي به ليس إلا نوعاً من الأزمة وأنها أزمة عابرة. راح يحاول كلّ يوم أن يحرّك أصابع اليد اليمنى وصار يطلب كلّ يوم ريشة رسم، وأن توضع بين سبابته وإبهامه، لكنه لم يفلح لحظتها بالإمساك بها لوقت طويل. لذلك أخذ يُعيد التمرين مرات عديدة في اليوم. وعندما نجح أخيراً في الإمساك بالريشة، لم يعُد يبالي بحالة بقية جسده.

تتدافع في رأسه أفكار لوحات جديدة، لكن عجزه المطلق عن الرسم يجعله في حالة هيجان. أمسى نافد الصبر أكثر من عادته. ثم تؤول لحظات الاضطراب والشدة إلى لحظات صمت مديدة مصحوبة بشعور الإخفاق. كان مزاجه يتغير ويغرق في ضباب كثيف، منذراً بأحداث محزنة. من فمه المنفرج يتدلى خيط لعاب. ومن حين إلى آخر يمسحه أحد التوأمين بلطف. فيستيقظ ويشعر بالخجل لأنه ترك القليل من لعابه يتسرب، ولأنه غفا. كانت هذه التفاصيل الصغيرة تزعجه أكثر من شلله.


Telegram: SOMRLIBRARY

كان التلفاز يبثّ مباراة في ألعاب القوى. لطالما فتنته هذه الأجساد المرنة والرائعة والكاملة، هذه الأجساد الأكثر كمالاً من أن تكون أجساداً بشرية. يراقبها ويتساءل كم من السنوات، ومن الأشهر، ومن ساعات العمل يختبىء خلف كلّ حركة من حركات هذا الرياضي الشاب. رفض تغيير البرنامج. لا، كان يحب أن يشاهد هذا العرض بالذات خاصة لأنه محاصَر في حالته الشخصية. كان يحلم ويشعر بمتعة غريبة أثناء متابعة حركات هؤلاء الرياضيين الشباب. أدهشه أن يشاهدهم ويشجِّعهم كما لو أنه يعرفهم شخصياً، كما لو أنه مدرِّبهم أو أستاذهم أو مرشدهم، أو ببساطة أباهم.

فكر في نصٍّ لجان جينيه أهداه له صديق في عيد ميلاده، عنوانه البهلوان. كان قد قرأه بشغف وتخيَّل مقدار التوتر الذي يعتري البهلوان في كلّ حركة من حركاته. وفكَّر ذات يوم أن يرسم هذا النص، لكن قيل له إنّ جينيه ليس رجلاً سهلاً ولن يأذن له بذلك. راح يُعيد قراءته من حين إلى آخر ويركِّز على الحبل المشدود بين مكانين، ويتخيل نفسه فوقه، وجسده ينضح بالعرق، وذراعاه المرتعشتان تمسكان العارضة، ثم كبوة، فيسقط وتتكسر أضلاعه. وحدث أن اختلق عن وضعه قصة بهلوان تعرض لحادث؛ وهو على هذه الحال لأنه سقط في سيرك. الحادث الذي تعرض له جسدي، لا نفسي. وهو ليس رساماً مرهقاً وممزقاً، بل بهلوانٌ سُحِقَ جسده على مسافة عشرة أمتار تحت الحبل.

كان راضياً باكتشافه. فلم يذرف أية دمعة على خده. ولم تتراجع معنوياته. يجسّ بيده الثقيلة ساقه ولا يشعر بشيء. فيقول في سره: «سيحصل هذا، اصمد يا رجل!».


Telegram: SOMRLIBRARY

لم يرَ زوجته منذ شجارهما الأخير والسكتة الدماغية التي تلت ذلك الشجار مباشرة. سكن في محترفه الذي طلب تجهيزه بكلّ ما يلزمه ليعيش ويتغلب على محنة مرضه. بينما سكنت هي في الجناح الآخر من منزلهما الفسيح في الدار البيضاء. تلقى التوأمان أمراً بأن لا يدعاها تقترب منه البتة، لكنه كان دون فائدة. وبالأحرى بدا هذا الفراق يلائمها فلم تُظهر أدنى رغبة في الاهتمام بهذا المريض المسنّ. كان يريد أن يطلّ على عشرين عاماً من الحياة المشتركة بينهما. ومن وجهة النظر هذه، جاء التوقف المفاجئ المفروض على زواجهما بسبب الإصابة في أوانه. كان يراها أحياناً؛ من نوافذ المحترف المطلة على الفناء الداخلي للفيلا، وهي تتجمَّل للخروج. لم يعرف أحد أين تذهب وكان هذا أفضل. وعلى أية حال، كان قد قرَّر ألا يراقبها أو يشك بها.

سابقاً، عندما كان في كامل صحته، كان يفرّ ويسافر وتنقطع أخباره. على هذا النحو كان يردّ على المنغصات والصراعات الزوجية. كان يكتب مذكرات لا يتطرق فيها إلا للمشاكل الزوجية. ولم يدوِّن أي شيء آخر في هذا الدفتر. وعلى مدى عشرين عاماً، لم تتغير كثيراً تدويناته لمشاجراته ومنغصاته وغضبه. إنها حكاية رجل ظنّ أن الكائنات الإنسانية تتغير، وتتدارك أخطاءها، وتعزّز خصالها، وتغدو أفضل بعد أن تُراجع ذواتها. كان يحتفظ في داخله بأملٍ مدفون أنه سيرى زوجته يوماً ليست غير مطيعة ولا خاضعة، أبداً، إنما على الأقل متسامحة وودودة، هادئة وعقلانية، باختصار زوجة تقاسمه وتبني معه حياة أسرية. كان هذا حلماً. لقد ضلّ الطريق وأذلّ زوجته، متناسياً أن يتحمّل نصيبه من المسؤولية في هذا الإخفاق.


Telegram: SOMRLIBRARY

# الفصل الثاني

## الدار البيضاء، 8 شباط/ فبراير عام 2000

«جميع التضحيات ممكنة ومقبولة بين الزوجين حتى
يأتي يوم يلاحظ فيه أحدهما أن هناك تضحية»

**هبني عينيك**، ساشا غيتري(*)

بعد استيقاظه، طلب الرسام من التوأم أن يجلبا له مرآة. كانت المرة الأولى، بعد ثلاثة أشهر من إصابته، التي يشعر فيها أن لديه من القوة ما يكفي ليتجرأ على مواجهة صورته. عندما رأى نفسه، انفجر في ضحكة مجلجلة لأنه لم يتعرَّف عليها ووجد انعكاسها في المرآة مثيراً للشفقة. خاطب نفسه: «ما عساي أفعل لو كنت مكانك؟ هل أنتحر؟ لست شجاعاً بما يكفي للإقدام على ذلك. وماذا لو رفضت أن يناولوني المرآة؟ أجل، هو ذاك، هذا ما كنت سأفعله: ألا أرى نفسي، وألا أعير اهتماماً لما أصبحت حالي عليه. ولتجنَّبتُ بأي ثمن أن أفتح ثلمات أخرى في عذابي».

(*) يعدّ ساشا غيتري (Sacha Guitry) من أشهر المسرحيين الفرنسيين في القرن العشرين (1885-1957) ممثلاً ومخرجاً وكاتباً، وقد ترك مئة وثلاثين مسرحية، من أشهرها: **الحارس الليلي**، **فضيحة مونت كارلو**، **باستور وزواج طيب**، وكان يشارك في تمثيل معظم مسرحياته.



Telegram: SOMRLIBRARY

بعد السكتة الدماغية، لم يخطر بباله الانتحار قط. أصبحت رغبته بالحياة أقوى، مع أن الاستسلام كان أسهل بكثير. ومع أن حالته العامة لم تكن جيدة، لكنه استعاد بالتدريج طعم الأشياء اليومية. غادرته الأفكار السوداء، ليس كلها، وصار مسلحاً أكثر لطردها ولم يَعد يجاريها. لم يكن متفائلاً، وترك ذلك للسذَّج. يكره التذمر، ما نفع التأوّه؟ فهو على الأرجح يشلّ التفكير. وقد تعلَّم من أمه أن على المرء ألا يتذمر أبداً، أولاً لأنه لا يفيد شيئاً ومن ثمّ لأنه يُضجر الآخرين. ولا بد من مكابدة الألم، مع احتمال أن يبكي المرء وحيداً في الليل. كانت أمه تقول له بنبرة ساخرة: «لدي أمور كثيرة سأرويها لحفاري قبري. أما الملائكة الذي يرافقوننا يوم دفننا، فسيرفعون روحي عالياً في السماء. ستكون أجمل رحلاتي». كيف لم يخطر بباله عندئذٍ الملاكان الأسودان اللذان جاءا ليقبضا روح ليلوم، الذي جسَّد شخصيته تشارلز بوير في فيلم أخرجه فريتزلانغ؟ لكنه كان يعتقد أنّ الملائكة التي ستأتي لرفع أمه ستكون بيضاء، باسمة وعطوفة. راح يتخيلهم وهو واثق أنّ أمه تستحق أن تقوم برحلتها الأخيرة بين أحضان الملائكة الذين تحدَّث عنهم القرآن.

في المرآة، كان انحطاطه الجسدي مذهلاً. لم يعد هو ذاته، ولم يعد يشبه الصورة التي عرفه الناس بها، فقَبِل وجهه الجديد واعتاد عليه - وهذا ما كان يترتب عليه مواجهته إنْ أراد العودة للعيش بين الأحياء. راوده انطباع بأنه اتخذ شكل خرقة مدعوكة، أو رسماً كاريكاتورياً. وراح يقول في سرّه متهكماً إنه يشبه بورتريه فرانسيس باكون. كان قد لاحظ ذلك في نظرة بعض أقربائه الذين جاؤوا لرؤيته. واستطاع أن يقرأ الصدمة التي تحدثها نظرة بسيطة



Telegram: SOMRLIBRARY

على جسده، المشوّه والعليل والعاجز عن الحركة. كان شبح الموت قد زاره وترك آثاراً على ساقه وذراعه. إنها فقط أنفاس الموت.

لعلّ زواره كانوا يرون أنفسهم مكانه، وهم ينظرون لبضع ثوانٍ في المرآة التي مُدَّت لهم، ويقولون: «وماذا لو حدث لي هذا ذات يوم، هل سأكون هكذا، جالساً على كرسي متحرك يدفعه رجل في صحة جيدة؟ هل سيكون نصف جسدي مشلولاً ونطقي صعباً؟ ربما سيهملني أهلي... وسأصبح عبئاً ثقيلاً على أقاربي وأصدقائي، وسأكون بلا نفع، عديم الفائدة، والناس لا يحبون أن يروا الألم على جسد الآخرين». كانوا يهرعون لمراجعة أطبائهم ويجرون فحوصاً عامة. فضلاً عن ذلك، كانوا جميعاً فضوليين لمعرفة كيف حدث هذا. وكم كانوا يودون أن يعرفوا ليتداركوا الإصابة، وليتجنبوا الوقوع ضحية اضطراب الآلة التي تروي الدماغ. وعندما كانوا يعلمون أن الدماغ هو مجموعة معقّدة مؤلفة من أكثر من مئة مليار خلية عصبية تعمل بانتظام خلال حياتنا اليومية، كان الخوف ينتابهم. ولم يتجرؤوا على سؤاله عن كيفية حدوث الأمر. وراحوا يتكلمون عن ذلك فيما بينهم، ويراجعون الإنترنت ويقرؤون كل ما يجدونه عن السكتة الدماغية. والأسوأ هو عندما يخبرهم الطبيب أو الإنترنت أن ذلك يمكن أن يحدث لأي شخص وفي أي عمر، لكن ثمة عوامل مساعدة. أحد اصدقائه، حميد، صُدم واضطرب، وتوقف عن التدخين والشراب في الحال. جاء ذات يوم، مرتدياً الأبيض، وبين أصابعه سبحة، وانحنى فوقه وقبَّل جبينه: «بفضلك تغيرت حياتي؛ أنا الوحيد الذي استفدتُ من مصابك؛ انتابني خوف شديد أعادني إلى صوابي» كان يعرف منذ زمن طويل أن الإفراط في التدخين وشرب الكحول يمكن أن يسبب هذا النوع من الإصابة؛


Telegram: SOMRLIBRARY

فراح يعالج ارتفاع الضغط الشرياني ويتجنَّب السكر بسبب وجود سوابق عائلية، لكن لم يسعه فعل شيء حيال الشِدَّة، هذا المرض الصامت والمميت أحياناً.

الشِدَّة هي نوع من الاستياء الذي يُحدث ثقوباً في الأعضاء الحيوية. كان يتخيلها مثل آلة تشوش كل ما تصادفه، دون تمييز. الشدة هي عدوه المضاعف، فهي التي تتطلب منه مزيداً من العمل، وتبخس من قدراته الواقعية وتوهمه أنه يمكنه الذهاب أبعد من إمكاناته. الشدة تقبض على القلب وتضغط عليه وتعرقل بالتالي وظائفه. يعرف كل هذا وقد حلله مراراً وتكراراً.

في الفترة التي كان فيها معافى، عندما كان يضجر، وهو أمر قلّما حصل له، كان يتوقف عن العمل ويفحص هذه الحالة التي يغدو فيها الزمن ثابتاً، مستريحاً فيما هو يثرثر بأفكار ثابتة. السأم هو نتاج الأرق، هو رفض للتهاوي في ثقب المجهول الأسود. كان يدور في حلقة مفرغة، ثم ينتهي إلى الاستسلام، وينتظر أن ينقضي ذلك. هكذا كان يصنِّف الشدة في خانة تقع بين انعدام النوم وثبات الزمن.

في محترفه الذي صار يمضي فيه الآن جميع أيامه، بعيداً عن ضجيج المدينة، راح يتساءل كيف استطاعت السكتة الدماغية أن تحطمه جسدياً إلى هذه الدرجة. كان يشقّ عليه احتمال جسده الميت الذي يمنعه من الحركة ومن أن يكون حراً. عندما كان مراهقاً، كان يلعب كرة القدم على شاطئ الدار البيضاء. كان هدافاً بارعاً، وفي نهاية المباريات، كان رفاقه يحملونه بأذرعهم ويحتفلون به لأنه سجل جميع الأهداف. كان بمقدوره أن يصبح لاعباً محترفاً، لكن كان يترتب عليه في تلك الفترة الذهاب للعيش في إسبانيا والانضمام إلى إحدى الفرق الكبيرة. فضَّل والداه أن يمارس الرسم، حتى لو لم



Telegram: SOMRLIBRARY

يكسب منه قرشاً واحداً. فأي شيء أفضل من الغربة عند الإسبان الذين يكرهون الموريسكيين!

من جديد راقب صورته في المرآة. كان قبيحاً او بالأحرى مشوهاً. وفكَّر مرة أخرى بأغنية ليو فري «**عشرون عاماً**»: «أي متاع للمرء سوى وجهه، عندما يكون جميلاً فالأمر هين، وعندما يكون قبيحاً يعتاد عليه، ويقول في سره إنه ليس بهذا السوء؛ أي متاع للمرء سوى وجهه الذي يتكلم أحياناً عندما يكون وحيداً... عندما يبكي يقول إنه يضحك... تمويهاً لمشكلته...» تذكر لحظات أمضاها مع فري عندما جاء ليغني في الدار البيضاء. تناولا الشاي في فناء دار المنصور ولاحظ عينيه الصغيرتين والعزّة في حركات وجهه، ومزاجه السيىء شبه الدائم، وعلى الأخص الإرهاق الشديد الذي يسكن وجهه. ظلَّ يعتبر أن فري شاعر ومتمرد يستفيد من أغانيه أولئك الذين يسعون للإصغاء إليها بانتباه.

لم يظهر كثيراً خلال الأشهر الأولى من المرض وظلّ منزوياً في محترفه. كان منكفئاً على نفسه، تحيط به لوحاته غير المكتملة، ويكابد شعوراً بالوحدة الموحشة، لأنّ الألم لا يشاركك أحد به. وبالطبع تلقى العديد من شهادات التعاطف. وهذا ما سره وأدهشه أحياناً أن بعض الأشخاص الذين لا يكاد يعرفهم وجدوا الكلمات الصائبة التي أثرت به كثيراً. خصوصاً سيرج، وهو شخص لم يفتأ يلتقيه من وقت لى آخر لأنه كان يقطن في حيه، وبعد خمسة عشر يوماً من خروجه من المشفى، اتصل به سيرج وكلَّمه بصراحة. ثم اعتاد أن يزوره كل أسبوع ليسأله عن أخباره ويرفع من معنوياته. حتى جاء يوم علم فيه الرسام أنه مات فجأة. كان سيرج يعاني من السرطان ولم يكن يتحدث عن ذلك. وبعد وفاته وحسب عرف



Telegram: SOMRLIBRARY

الرسام ما كان يعذبه. فشعر برغبة بالبكاء. لقد أثَّر عليه فيضٌ من التواضع والصداقة الصادرين عن شخص لم يكن حتى من دائرة أصدقائه الحميمين. لا يشبه بأيّ حال بعض أصدقائه الذين أصبحوا فجأة صموتين. واختفوا بكل بساطة. إنه الخوف. الرعب الشديد. مع أن السكتة الدماغية غير معدية! كانوا قد أخبروه أن أحد أصدقائه أعلن أنه لن يذهب لرؤيته لأنه يخجل من أنّ صحته جيدة. وكان صادقاً بالتأكيد، لكن عندما يشعر مريض بأنه مهمَل، يصبح العذاب أكثر مكراً وأكثر فظاظة.

حين كان طفلاً، كان والده يوصيه أن يزور المرضى والمُحتضرين. يقول له «هذه وصية نبينا؛ يجب أن تذهب لرؤية أولئك الذين يتألمون والذين ينتظرون أجلهم الوشيك. رؤية محتضر هي نوع من الكرم والأنانية في آنٍ معاً. وأن تعطي جزءاً من وقتك لشخص مسمَّر على السرير فهذه طريقة لتعلُّم التواضع ولمعرفة أن الحياة فانية، وأننا من تراب، وننتمي إلى الله وإليه راجعون! وأولئك الذين يخافون من مرض الآخرين سيترتب عليهم أن يواجهونه وأن يتآلفوا مع ما ينتظرنا. هو ذاك يا بني، إنها أشياء مبتذلة، لكنها تقول الحقيقة».

في عيادة المشفى التي أدخل إليها إثر إصابته بالسكتة الدماغية، شاطره غرفته عازف بيانو إيطالي عمره سبعة وعشرون عاماً يُدعى ريكاردو. هو أيضاً كان ضحية إصابة أوعية دماغية أثناء إجازته السنوية في المغرب. كانت أسرته والأطباء ينتظرون أي تحسن في حالته لإعادته إلى ميلان. عندما استعاد ريكاردو وعيه، ثبت يديه. لم يعد بوسعه تحريك أصابعه فراح يبكي بصمت. كانت دموعه تنهمر. وبما أنه لم يكن بمقدوره إيقافها، صار يغمض عينيه ويشيح


Telegram: SOMRLIBRARY

بوجهه نحو الحائط. تحطمت حياته وتوقف عن ممارسة مهنته بفظاظة. كانت امرأة، ربما زوجته أو صديقته، تجلس كل يوم قرب سريره، وتواسيه. كانت تدلِّك أصابعه وتداعب وجهه وتمسح دموعه، ثم تغادر الغرفة منهارة. كانت تخرج من العيادة لتدخِّن ثم تعود حزينة الوجه. ذات مرة، جاءت وجلست على سرير الرسام وأخذت تحدِّثه. راح يصغي إليها وهو يهزّ رأسه: رأت أن يده اليسرى تحركت قليلاً. «ريكاردو هو رجل حياتي، كان ينتظره مستقبل باهر، لكن منافسيه كسبوا المباراة. إنني من صقلية وأؤمن بالعين الشريرة، وليست مصادفة أن كثيراً من العباقرة يصابون بقسوة دوماً تقريباً. إنه الحسد والغيرة والأذى. قيل لي إنهم في المغرب يؤمنون بذلك كثيراً. العين الشريرة موجودة ولديَّ البرهان. كان يجب علينا أنا وريكاردو أن نتزوج بعد شهر من هذه الرحلة إلى المغرب. ولم يوافق أهلنا - وكما تعرف، لا تزوِّج أسرة من الطبقة البرجوازية الراقية في ميلانو ابنها الوحيد من ابنة صياد من مازارا ديل فالو! لكن كانت لدينا خطة، وتأهبنا للرحيل بعد الزواج مباشرة والإقامة في الولايات المتحدة، وكان وكيله فيها يلحّ على ذلك طوال الوقت. ثم انهار في غرفة الفندق في اليوم التالي من وصولنا إلى الدار البيضاء. لا أدري ما الذي حدث. ما أعرفه هو أنه كان يتحدث غالباً عن الشِدَّة وعن الكمال الذي يودّ بلوغه ويضنيه، ولم يكن يحتمل أدنى خطأ أو إهمال. وقبل الحفلة الموسيقة، كان مريضاً، ولم يأكل، ولم يكلم أحداً، وأحسست به متشجناً وقلقاً مثل مصارع الثيران قبل دخوله الحلبة. ما العمل الآن؟ اعذرني، فأنا أكلمك دون سابق معرفة بك... وحتى لم أسألك عن اسمك، وماذا كنت تعمل قبل إصابتك... إنني مشوشة كثيراً».



Telegram: SOMRLIBRARY

حاول أن يقول بضع كلمات. ففهمت أنّ حالته شبيهة بحالة ريكاردو. فنان ألمَّت به مصيبة وصار عاجزاً عن ممارسة فنه، فأطرقت عينيها وانهمرت الدموع على خديها. راقبها دون علمها ولاحظ جمالها الوحشي، فتاة من الجنوب، سمراء وضخمة، أنيقة وغير متكلفة. يا له من حطام! قال في سره. الحياة ظالمة!

بعد بضعة أيام، ترك ريكاردو العيادة وعاد إلى إيطاليا. وهي تغادر، كتبت الشابة بسرعة بضع كلمات على ظهر الوصفة ودسَّتها تحت طاولة سرير الرسام ولثمت جبينه بقبلة خفيفة. دوَّنت عليها عنوانهم ورقم الهاتف وحرَّرت رسالة أمل صغيرة تمنَّت فيها أن يلتقوا جميعهم ذات يوم حول مائدة في صقلية أو في توسكان. ومهرتها بإمضائها «شيارا».

ذكَّرته حالته المرضية الجديدة بزياراته لنعيمة، ابنة عمه التي كان يحبّها كأخت، أصيبت في الثانية والثلاثين من عمرها بمرض شاركو المرعب، وهو تصلّب الألياف العضلية. كان قد تابع تطور مرضها وشاهد التدهور البطيء والقاسي لجسدها الذي راح يفقد عضلاته بالتدريج. شعر بالإعجاب حيال هذه المرأة الجميلة المسمرة على أريكتها وهي في ريعان الشباب، وفي غاية الشجاعة والتفاؤل. كانت تتحدث بصعوبة، وتعتمد كلياً على مساعدته - امرأة طيبة ومخلصة إلى درجة أنها لم تستغني عن مساعدته أبداً واعتبرت نفسها ليس كفرد من العائلة وحسب، وإنما كامتداد ليديه وذراعيه وساقيه.

كان يعرف أن التصلب العضلي هو مرض عضال. وكانت هي تعرف ذلك حق المعرفة وتلتمس من الله كل يوم مزيداً من الوقت لترى أبناءها يذهبون إلى أقصى ما يمكن في دراستهم، ولترى ربما


Telegram: SOMRLIBRARY

ابنتيها متزوجتين، كانت متسولة الزمن اليومي. كانت تصلي وتضع حياتها بين يدي الله.

ودّ الرسام لو يحذو حذوها. لكنه لم يكن لديه ما يكفي من الإيمان ليصلي على نحو دائم. كان يؤمن بالقيم الروحية، وحدث له أن التمس الرحمة من القوة العليا التي تحكم الكون. كانت الشكوك تراوده ويجنح إلى ارتياد دروب العقل. لا يمكن لفنان أن يركن إلى اليقينيات. فكلّ وجوده وكلّ عمله مسكون بالشك.

في واحدة من أولى لياليه التي أمضاها في محترفه، شعر فجأة بتشنُّج وبحاجة ملحة إلى تغيير وضعيته في السرير، لكن الجرس كان معطلاً. حاول عبثاً أن ينادي بصوته الخافت، وأن يضرب بقدر ما يستطيع على قوائم سريره، لكن التوأم النائمين في الغرفة المجاورة لم يسمعاه. كان يتألم، ألم على امتداد خاصرته اليسرى التي تتصلب. محاولة أخيرة أسقطته فجأة عن السرير. كان ضجيج سقوطه هذه المرة قوياً إلى حدّ أنه أيقظ الرجلين اللذين هرعا إليه. ولحسن الحظ لم يُصَب بأيّ كسر، كدمات زرقاء على وركه فقط. فكَّر من جديد في نعيمة وفي الليالي المرعبة التي أمضتها ولا بد.

غيَّر مرض نعيمة نظرته جذرياً إلى عالم المعوقين. صار يعرف عنه أكثر ممّا يعرف معظم أصدقائه. وفي كل مرة يلتقي فيها شخصاً معوقاً، كان يتخيل ويتصور حياته اليومية، ويعيره انتباهاً حقيقياً ويهتم بحالته. فالصحة الجيدة، جسدياً وروحياً، لا تنفكّ تحجب الحقيقة؛ ونحن لا نرى أبداً العاهات والجراح النازفة أحياناً لأولئك الذين اختارهم القدر. نمرُّ بجانبهم وفي أحسن الأحوال ينتابنا شعور بالشفقة، ثم نتابع طريقنا.

هكذا اقترح ذات يوم أن يرافق صديقه حميد إلى اجتماع لأهالي


Telegram: SOMRLIBRARY

المعوقين. كان ابنه نبيل قد ولد مصاباً بمتلازمة داون(*). وسمع الرسام شهادات لأمهات يكافحن لأنه لا يوجد أي شيء في المغرب للاهتمام بهؤلاء الأطفال «الحاملين لمرض مهمل» على حدّ تعبير طبيب نفسي موجود في القاعة. بعد الاجتماع خطر بباله أن يدعو نبيل إلى محترفه. أعطاه قماش رسم وألوان. وأشار له كيف يعمل. كان نبيل سعيداً، وظلّ طوال النهار يرسم. وفي المساء غادر مع رسوماته التي أطراها والداه وعلّقاها في صالون منزلهم.

ترسَّخ فيه يقين عميق بأن هذه الحادثة كانت بالنسبة إليه مناسبة لإعادة النظر في كل شيء. ليس في حياته الزوجية وحسب، وإنما في علاقته أيضاً بالعمل والإبداع. «راح يقول في سره، أودّ لو أستطيع رسم الصرخة مثل بيكون(**)، أو الخوف، ذلك الشيء الذي يجمِّدني ويجعلني هشاً. لو أستطيع رسم الخوف بدقّة بحيث يمكنني لمسه، وهكذا أجعله عديم التأثير، فأمحوه وأزيله من حياتي. أؤمن بهذا السحر المولود من الرسم الذي يؤثر في الواقع. أجل، عندما سأتمكن من تحريك يديّ وأصابعي، سأهاجم الخوف، خوف أفقي مثل سكة القطار، خوف متحرك ومتغير المظهر واللون، سيطفئ

(*) متلازمة داون (Trisomie 21): هو مرض صبغوي ينتج عن خلل في الكروموسومات حيث توجد نسخة إضافية من كروموسوم 21 أو جزء منه مما يسبب تغيراً في الإرثات.

(**) فرنسيس بيكون (Francis Bacon) (1909–1992) رسام إنكليزي. انقلبت حياته رأساً على عقب لدى مشاهدته أعمال بيكاسو (Picasso) والتكعيبيين في باريس، ذلك أن الأعمال التي أنجزها في السنوات التي أعقبت هذه الزيارة تعكس مدى تأثره بالسريالية وبالتكعيبية التركيبية وفروعها.


Telegram: SOMRLIBRARY

جميع الأضواء. هو ذاك، سأقبض عليه وأبسطه أمام البحر الذي سيجتاح بزرقته اللوحة. سيغرق الخوف ويبتلّ تحت الأمواج الزرقاء. سأتأمله كأنني أفكر في الموت. لم يعُد الموت يخيفني الآن، لكن يتوجب عليّ ألا أستغرق في لعبتي. ولا بد لي أن أبتكر إيقاعاً وموسيقى تطرد الخوف».

لاحظ ساقه المشلولة وضحك بلطف. ذات مساء، وفيما كان يتأمل في مصيره، اقتنع أن ساقه المشلولة أصبحت ملاذ روحه وأن تحرُّره يبدأ منها. الروح حية ولا تحتمل ما هو صلب. راقَ له التفكير بأنّ روحه سكنت ساقه وأنها تعمل على تحريكها. إنها فكرة حمقاء بالتأكيد، لكنه كان يؤمن بها بعناد. ومنذ أن فقد القدرة على الرسم، صار يمضي وقته في الحلم وفي إعادة اكتشاف الحياة. كان يحبّ أن يسارر نفسه بأنه يعيش في كوخ صغير يستطيع أن يراقب العالم منه دون أن يراه أحد، لكن الألم، الذي ما زال حياً، وإعادة التربية القاسية، أخرجاه باكراً من عالم الطفل المريض.

ذات يوم، وفيما كان عائداً إلى عيادة المشفى لإجراء فحوصات مراقبة، تلقى مكالمة هاتفية. أحد التوأمين ناوله السماعة قائلاً: «إنها السيدة كيارا!» مترافقة مع إيماءة مستغربة. تذكرها على الفور، وأدهشه أنها لم تنسه. سألته في البداية عن أخباره، لكنها أدركت أنه لا يزال يتحدث بألم. أخبرته أن ريكاردو يستعيد استجاباته الطبيعية. وأنهما بقيا وقتاً قصيراً في إيطاليا واستطاعا المغادرة للإقامة في الولايات المتحدة، حيث تحسَّن بالتدريب. تكفَّل وكيله الفني بكلِّ شيء. صار ريكاردو يحرّك أصابعه الآن وعندما يجلس أمام البيانو، يعزف بطريقة غريبة، مختلّة، مثل غلين غولد إلى حدٍّ ما، مؤدياً باخ


Telegram: SOMRLIBRARY

على طريقته. قرَّر وكيله الفني مباشرة أن يستفيد من هذا الجانب في عزفه. «المنتجون لا يضلون طريقهم أبداً، وأضافت، لكن ما يهمنا نحن هو أن ريكاردو يمكن أن يستعيد ردود فعله!».

كان الرسام مسروراً لمعرفة أخبار رفيقه القديم في الغرفة. قال في سرّه إن الأمل هو غاية الألم.

عاد إلى منزله فور الانتهاء من فحوصاته، وراق له أن يتخيل الشائعة التي انتشرت عن إصابته، وما يقال من وراء ظهره: «أنت لا تعرف أنه أصيب بسكتة؟ المسكين، لم يعُد بوسعه الرسم... هذا هو الوقت المناسب للشراء» أو: «إنه متعجرف، أناني، أرسل له الله إشارة؛ أنذره؛ وفي المرة القادمة ستكون الضربة القاضية» أو بقسوة أكبر أيضاً: «لقد هلك، لم يعُد عضوه يستطيع حتى الانتصاب، هو الذي أحبّ الكثير من النساء... أمّا زوجته، المسكينة، التي قاست منه ألوان العذاب، فلعلّها اطمأنت، لم يعُد قضيبه يفيده الآن إلا في التبول، هكذا هي الحالة، ثمة عدالة!» «سيعرف الفاتن الشهير أخيراً عزلتنا! أعترف أننا كنا نحسده على نجاحاته، ومع ذلك، كانت لوحاته تُباع بكثرة!» وبحسب ما فهم، تصوّر صاحب صالة العرض وهو يتلفن إلى هواة جمع اللوحات الفنية: «إياكم، إياكم أن تبيعوا، انتظروا بضعة أشهر!» وماذا تفعل زوجته منذ أن عرفت بالخبر، ألن تسعى للأخذ بثأرها؟ لا، لا، لقد عاهد نفسه ألّا يطرح عليها هذا النوع من الأسئلة. لم يعُد يرغب بالشجار معها، وصار يريد السلام، لكي يستطيع الشفاء.

عندما يلمّ بكم مرض أو حادث لسوء الحظ، يغير محيطكم


Telegram: SOMRLIBRARY

وجهه فجأة. هناك من يفرّون من السفينة كالفئران، وهناك من ينتظرون نتيجة الأحداث ليدلوا بدلوهم، ومن ثم هناك من يظلّون أوفياء لمشاعرهم وسلوكهم. هؤلاء الأخيرون نادرون وأثيرون.

كان يوجد حوله ممثلون عن الأصناف الثلاثة. فضلاً عن أنه لم ينخدع قط في هذا الشأن. كان قد درس الفلسفة لفترة طويلة قبل أن يرسم. وأحبّ بشكلٍ خاص شوبنهاور وأقواله المأثورة؛ كانت تضحكه تلك الملاحظات القطعية وعلمته أن يحذر من المظاهر ومن أفخاخها. وحتى تردّد زمناً في الالتحاق بالدراسات الفلسفية. كان يعتقد أن الرسم وقراءة نيتشه وسبينوزا ليسا متناقضين، لكنه كان يتقن استخدام أقلام الرصاص والفرشاة أفضل من أي شخص فأمره أستاذ الرسم بحزم أن يلتحق بمدرسة الفنون الجميلة في باريس. ساعده هذا التشجيع على إرجاء أحلامه الفلسفية.

وهكذا غادر ذات يوم المغرب إلى باريس. لم يكن قد بلغ العشرين عاماً بعد. كانت باريس في ذهنه هي الحرية والتهور والمغامرة الفكرية والفنية. فهناك عرف بيكاسو المجد، وهناك ولدت موهبته وهو يكتشف لوحات الأستاذ الأولى، وخاصة اللوحة التي رسم فيها الشاب ذو الخمسة عشر عاماً أمه على فراش الموت. أثر فيه بيكاسو عميقاً وأراد أن يحذو حذوه. وفي مدرسة الفنون الجميلة أتقن أدواته وسلك طريقه الخاص. ابتعد عن مرجعياته الكبرى ليختلق لنفسه أسلوباً خاصاً، مفرطاً في واقعيته(*)، أصبح فيما بعد علامة نتاجه. كانت لوحاته دوماً، وبصرامة مطلقة، ثمرة عمل مديد

---

(*) Hyperréalisme: تيار فني أمريكي يستلهم في الرسم والنحت نتائج التصوير الفوتوغرافي.



Telegram: SOMRLIBRARY

ومغرق بالتفاصيل. ولم يستطع أن يتصور الفن على نحو آخر. لم يفهم قط كيف سمح معاصروه لأنفسهم أن يسكبوا دلاء ألوانهم على لوحة أو يخربشوا ببعض الخطوط. كان ينظر إلى أيديهم المنقادة إلى السهولة، وهذا بالضبط ما كان يمقته. كان يتملكه الرعب من الأشياء التي تنجز بسهولة، دون جهد، ودون مخيلة. أراد أن يكون رسمه كالفلسفة التي تخلى عنها: خطة مُحكمة ومترابطة وعميقة لا مكان فيها للغموض والأفكار العامة والكليشهات والتقريبي. كل حياته بُنيت بالتدريج على هذه الأسس. كانت المسألة بالنسبة إليه مسألة تطلب. كان ينتبه لما يسعى إليه كما ينتبه لحاله. حتى صحّته أصبحت موضوعاً دائماً للانشغال، ليس لأنه كان مصاباً بوسواس مرضي، إنما لأنه رأى أشخاصاً يموتون بسبب الإهمال، لأنهم لم يأخذوا على محمل الجد نصائح الأطباء.

في حالته الراهنة، فقد هذا التطلُّب الأخلاقي في كل شيء بعضاً من معناه. ما فائدة السعي إلى الكمال عندما لا يعود المرء قادراً على الإمساك بفرشاة بين أصبعين؟ في بعض الأيام، عندما كان يستعيد قوته، لم يكن يفقد الأمل في الإبداع من جديد. تذكر رنوار وماتيس وهما يتابعان الرسم في سنٍّ متقدمة رغم الصعوبات الجسدية. وعلى أية حال، فقد تجنب الأسوأ. ألم يمُت صديقه غرباوي من البرد والوحدة على مقعد في باريس وهو لم يبلغ الأربعين عاماً؟ ألم يمت الشرقاوي، وهو رسام آخر يعجبه، بالتهاب الصفاق في سن السادسة والثلاثين بعد فراره من فرنسا بُعيد حرب الأيام الستة؟

عندما استعاد وعيه في عيادة المشفى بعد أيام على إصابته بالسكتة الدماغية، وبعد أن أخبروه بتطوّر حالته، تذكَّر أكثر ما كانت


Telegram: SOMRLIBRARY

أمه تخشاه: أن تصبح شيئاً أو كومة أحجار أو رمال مركونة في زاوية الحياة، تابعة كلياً للآخرين. لحسن الحظ، حين عاد إلى منزله، استطاع أن يتعاقد مع التوأمين لمواجهة عبء الحالة الجديدة وغير المتوقعة. وصار أفقه أن ينجح في الاغتسال وفي حلاقة ذقنه وتنظيف أسنانه وارتداء ملابسه والحفاظ قليلاً على أناقته المعتادة وأن يبقى رزيناً وجذاباً، وألا يدَعَ أحزانه التي أصبح بعضها عميقاً معلنة. انتهى زمن الفنتازيا. انتهت الرغبات المفاجئة لارتياد مطعم وتناول الكبة النيئة. انتهى المشي صباحاً للبقاء على أحسن حال. انتهت زياراته لمتحف اللوفر ومتحف برادو أو إلى صالات العرض الجميلة في الدائرة السادسة. انتهت النزوات واللقاءات مع حسناوات مجهولات والعشاءات الثنائية في روما أو مكان آخر، انتهت الزيارات المرتجلة لصديقه تاجر التحف الذي كان يحبّ التسوق معه في باريس ولندن وأماكن أخرى. كل هذا والكثير من الأشياء الأخرى لم يعُد ممكناً. كان قد فقد الرشاقة التي تسكنه. لم يعُد الآن وحده سيد حياته وحركاته ورغباته ومزاجه. أصبح تابعاً. تابعاً في كل شيء. في شرب كأس ماء كما في الجلوس على فتحة المرحاض وقضاء حاجته. أصبح ردّ فعله مباشراً وصار مصاباً بالإمساك. أخذ يتمالك نفسه

ويرجىء لحظة قضاء حاجته. كانت قلة حركته تشجعه على هذه الحالة. راح يقول في سرّه إن الغائط هو ما يفضحنا. كانت أمه قد أصيبت بسلس البول؛ وكانت ترفض وضع الحفاضات وتتبول في ثيابها مثل طفل رضيع. كانت أمه تفوح برائحة البراز ومع ذلك كان ينحني فوقها ويقبلها. ثم ينادي الممرضات لينظفنها ويخرج إلى الممر ويبكي بصمت. الحياة بين أيدي الآخرين، هل تظل حياة؟



Telegram: SOMRLIBRARY

«الوهم يسافر في الترامواي» كان صوت داخلي يهمس أحياناً بهذه الجملة. كان يذكِّره بشيء ما، لكنه لم يتوصّل حقاً إلى تحديده. فجأة، كالبرق، شاهد امرأة جميلة، سمراء، شعرها مصفَّف على طراز الخمسينيات، جالسة ويدها اليمنى على خدها واليد الأخرى على كتف رجل له هيئة متأسِّفة، عاقد الذراعين، وياقة قميصه مفتوحة رغم ربطة العنق. كانت صورة بالأبيض والأسود. وبعد ذلك، كما في حلم، ينبثق اسم المرأة: ليليا برادو. كان يلمع في ظلام ذاكرته. ليليا برادوا! لكن من تكون؟ ومن أين خرجت؟ تذكر صديقة جزائرية كانت تحمل الاسم نفسه، لكنها لم تكن تشبه ليليا هذه. وبادئ ذي بدء، لماذا كان الوهم يسافر في الترامواي؟ كرَّر السؤال على نفسه مراراً وأخيراً طفا اسم لويس بونويل(*) من أعماقه. فالجملة التي ظهرت له كانت العنوان الأصلي لفيلم صوّره عام 1953 مخرج إسباني عندما كان يعيش في المكسيك بعد فراره من نظام فرانكو. **سرقة ترام**. كان العنوان الذي اختاره الموزع الفرنسي مثيراً للسخرية. لقد محا منه كل شعريته وجاذبيته.

كان سعيداً لأنه نجح في حلّ هذا اللغز، فذلك علامة على أنّ ذاكرته المكبوحة بدأت تسير من جديد.

(*) لويس بونويل (بالإسبانية: Luis Buñuel) (1900–1983) مخرج إسباني، حصل أيضاً على الجنسية المكسيكية وعمل في إسبانيا، المكسيك، فرنسا والولايات المتحدة. يعتبر واحداً من خيرة المخرجين في تاريخ السينما.


Telegram: SOMRLIBRARY

## الفصل الثالث

### باريس، 1986

«إذا شكل رجل وامرأة نصفي تفاحة، فإن رجلين غالباً ما يشكلان نصفي زوجين»

**كانوا تسعة عازبين**، ساشا غيتري

في منتصف سنوات الثمانينيات، ما استقر الرسام في مكان قط. ولم يحتفظ البتة بالمحترف ذاته أكثر من بضعة أشهر، وكان يسافر دون أمتعة، ويكتفي أغلب الأحيان بمفكرة وأقلام رصاص لرسم تصاميمه. سيقلب لقاؤه بزوجة المستقبل الأمور رأساً على عقب. فبعد أسبوع من قبلتهما الأولى، قرَّر أن يمضي وقتاً أقل في محترفه ليكرِّس نفسه لها، وبعد شهر تعاهدا على الإخلاص. ولم يصدِّق أولئك الذين يعرفونه حقّ المعرفة أعينهم. وقد خَمَّنَ الرسام ما كان أصدقاؤه يقولونه حين كان يصادفهم في باريس وزوجته تتأبط ذراعه: أصغر سناً منه، وفائقة الجمال أيضاً.

لقد أخطأوا باغتيابه، فطيلة عامين هادئين، كان الرسام وزوجته أسعد زوجين في العالم. عرفَتْ كيف تُحَسِّنه وتعلَّمَتْ بسرعة كيف تتكيف مع أهوائه وعاداته ونزواته. راحت تحابيها بابتسامة وأحياناً بسخرية لطيفة. ولم يكن هناك أثر للإزعاج. كانت تقول مبتسمة: الأحوال الجوية مستقرة.



Telegram: SOMRLIBRARY

استأجر لأجلها منزلاً صغيراً في شارع بوت أوكي. كان منزلاً جميلاً، يحسبه المرء في وسط الريف بينما هما في باريس. وعاشا حياة بلا صدامات ولا مشاحنات. ما زال يحتفظ حتى اليوم بحنين عميق وصادق لتلك المرحلة. كانت زوجته عاشقة وقرَّرت أن تعيش هذه العلاقة بقوة. لم يقضيا شهر عسل، لكنه وافق فيما بينهما أن ترافقه من الآن فصاعداً إلى كلّ مكان يُدعى إليه: المعارض والمؤتمرات أو معارض الفن المعاصر. راحا يخصِّصان كل مرة بضعة أيام إضافية لزيارة البلد وهما يتصفحّان الدليل. كان الرسام الذي يسافر كثيراً مهتماً أن يجعلها تكتشف مدن العالم الكبيرة: البندقية، روما، مدريد، براغ، استنبول، نيويورك، وفيما بعد سان فرانسيسكو وريو دو جانيرو وباهيا... وكانت تشتري لنفسها كل ما يعجبها ولم تنسَ قط أن تجلب هدايا لأسرتها. لم تكن تهتم بالنفقات. وفور عودتها إلى باريس، تتصل بوالديها وأصدقائها وتروي لهم أدق تفاصيل هذه الرحلات الرائعة. وتقول لهم بتواضع إنها تُقَدِّر الحظ الذي واتاها. وعندما تغلق السماعة، كان يهمس لها بحنان: «أتعرفين، أنا المحظوظ لأنني التقيت بك!» وكان يعتبر أن زواجه في سن الثامنة والثلاثين من شابة في الرابعة والعشرين أمراً استثنائياً وامتيازاً تتمتع به قلة من النخبة. فعدم تقليد الآخرين هو نوعٌ من الضمان لسعادة أبدية. ثم إنه اعتقد بأن الوقت حان للتعقل وتأسيس أسرة وتغيير إيقاع حياته. وقد كانت هي المرأة المثالية المناسبة لهذه الحياة الجديدة.

غالباً ما تجامعا، بحبٍّ وطبيعية. ووَدَّ أحياناً لو تتفاعل معه أكثر؛ فكانت تضحك وتجعله يفهم أنها تشعر بالحياء. وذات يوم، أثناء تغيير القنوات في وقت متأخر من الليل، صادفا فيلماً إباحياً.



Telegram: SOMRLIBRARY

صرخَتْ وهي مرعوبة من منظر النساء الشهوانيات وأعضاء الرجال الضخمة. وهي مصدومة، تكورت في حضنه كما لو أنه يحميها من خطر داهم. لم تكن قد شاهدت في حياتها قط صوراً إباحية. طمأنها وهو يقول لها إن هذه الأفلام مُبَالِغَة، وأن النشاط الجنسي عند معظم الناس هو أكثر بساطة: فاستعادت هدوءها. أطفأ جهاز التلفاز وناما متحاضنين على أريكة الصالون.

استقلت ذات يوم قطاراً لزيارة والديها اللذين يسكنان في ضواحي كليرمون - فيران. طلبت منه إن كان بمقدوره مساعدتها على شراء تذكرة، وكانت تريد أيضاً أن تجلب لهم هدايا صغيرة. أعطاها ما أرادت وأعلن لها أنه سيذهب بعد الظهر ليفتح حساباً مشتركاً حتى لا تعود تضطر لطلب النقود منه. كانت سعيدة وقالت له على أية حال ما هو لك، هو لي، وما هو لي، هو لك. ضحك وهو مسرور من هذا الوفاق التام.

ظلت عند والديها أسبوعاً. عاش الرسام تلك الأيام السبعة والليالي السبعة وهو يشعر أنه مهمل. كانت المرة الأولى التي يفترقان فيها لفترة طويلة. شعر بشوق عارم إليها. وراح يتلفن لها كل يوم، لكنه نادراً ما وجدها، لقد خرجت للتو، إنها تتسوق... واكتشف مقدار عشقه، وهيامه بها، كما كان يقول في شبابه. كانت تسكن أفكاره ولا تغادره. وأمام طاولة عمله، لم يعد يفلح في التقدم بأي من مشاريعه. راح يتخيلها مضمومة بين ذراعيه وتدندن بأغاني قريتها، بألحان لم يكن يحبّذها على وجه الخصوص، لكنه لم يعد يعرف فجأة كيف يستغني عنها، مع أنه لم يكن يفهم معنى كلماتها. كان هذا هو تعريف الحب، أن تحب ما يذكِّرك بالمحبوب. وبعد أن


Telegram: SOMRLIBRARY

يئس من أن يلتقيها في غرف البيت، دلف في عزّ النهار إلى الحمام ليشمّ رائحة ثوب نومها ويتنشق عطرها؛ وفي اليوم التالي، غسل أسنانه بفرشاتها. فاجأه أنه يكلمها وهو جالس في الصالون كما لو أنها تجلس قبالته. لم يعد قادراً على التركيز على أعماله، فراح يشاهد أفلاماً قديمة على التلفاز حتى وقت متأخر. وصار ينتهي به الحال دوماً إلى الإغفاء على الأريكة، وهكذا رأى حوالي الساعة الثانية صباحاً وجه زوجته مُلتبساً بوجه ناتالي وود، في فيلم **حمى في الدم** لإليا كازان(*). كانت تشبهها قليلاً، لكن زوجته قد تكون أكبر وشعرها كستنائي.

حين عادت أخيراً من كليرمون - فيران، كان ذلك عيداً. ذهب بالسيارة للبحث عنها في المحطة، ووصل قبل الأوان بكثير. وفي المنزل، ثمة هدايا صغيرة بانتظارها وموسيقى هادئة لاستقبالها. سألته بقلق إنْ كان قد اشتاق لها. فأجابها، وأكثر من ذلك، لم يستطِع النوم بدونها، ولا تناول الطعام والشراب. «كنتُ كاليتيم...»

بعد ذلك بشهرين، أخبرته أنها حامل. قفز من الفرح، وغنى حتى أزعج جيرانه الظرفاء الذين جاؤوا يسألون إن كان كل شيء على ما يرام. وعلى الفور ارتجلوا عشاءً معهم وفتحوا أيضاً زجاجة شمبانيا. لم يكن بمثل هذا اللطف مع امرأة قط. كان بوسعهما أن يمضيا سوية ساعات كاملة دون أن يفعلا شيئاً، ويبذل قصارى جهده

---

(*) **إليا كازان** (1909-2003) منتج ومخرج مسرحي وسينمائي أميركي من أصل يوناني. ولد في إسطنبول وهاجرت عائلته في صغره إلى الولايات المتحدة الأميركية. حاز على جائزة الأوسكار مرتين كأفضل مخرج ورشّح للجائزة مرتين أخريين.



Telegram: SOMRLIBRARY

في دلالها. مرة وفي متصف الليل، طلبت منه توتياء البحر. لماذا توتياء البحر؟ فهما لم يأكلاه يوماً. كانت قد قرأت في النهار ذاته مقالاً في مجلة عن هذه الصدفة البحرية ورغبت ببساطة أن تتذوقها. ما العمل؟ استقلا السيارة وانطلقا بحثاً عن مطعم مفتوح يمكن أن يقدمها لهما. اجتازا باريس من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب، وظلّ بحثهما بلا جدوى. فالساعة هي الثالثة صباحاً وأغلقت جميع المحلات منذ زمن طويل. وبينما كان يكلِّمها، لاحظ أنها غفت، وأن رغبتها زالت فجأة. وخلال هذه الأشهر التسعة، ابتكرا أيضاً مسرحيات. راحا يرتجلان مشاهد كما لو أن كاميرا جون كاسافيتس تصورهما. كان ذلك مبهراً ورائعاً وفي غاية الطلاقة. قلما أعجبتها أفلام كاسافيتس الواقعية التي اصطحبها لمشاهدتها في شارع إيكول. وجدتها يائسة وخائبة. واعترفت له أنها تفضِّل الأفلام الكوميدية والرومانسية، وتميل أيضاً إلى ديلون(*). حين علم بذلك أحد أصدقائهما، وهو يعمل مصوراً فوتوغرافياً للممثلين، دعاهما للحضور إلى استديوهات بولونيا أثناء تصوير فيلم يلعب فيه ديلون دور رجل داعر. تَجَمَّلَت وحرصت أن تحمل معها كاميرتها الفوتوغرافية. وبين مشهدين، عَرَّفَهُما الصديق على الممثل. كان في غاية اللطف، واهتمّ بها على وجه الخصوص. التقطت لنفسها صورة وهي بجانبه. وعندما تأهبا للمغادرة، ناداهما ديلون: «ولكن ألا ترغب هذه المرأة الجميلة بالعمل في السينما؟ إنها في غاية الجمال، ونموذجية إلى حدٍّ ما. يُلاحظ المرء في الحال أنها متميزة. إذاً، ما قولكم؟» وفيما بقي الرسام المذهول صامتاً، أطرقت بصرها

(*) آلان ديلون: ممثل فرنسي شهير ولد في 8/ 11/ 1935.



Telegram: SOMRLIBRARY

وهمست: «حلمتُ دوماً بالعمل في السينما»، ثم استعادت ثقتها دفعة واحدة: «عملت عارضة أزياء في سن السابعة عشر، في وكالة سوبليم، لا بد أنك تعرف جيروم... جيروم لونشامب؟» أومأ ديلون برأسه نافياً. جاء عضو في الفريق يبحث عنه، لأن التصوير استؤنف. قَبَّلَها الممثل واختفى.

كانت في غاية التأثر، مسرورة، كطفلة صغيرة تلقت دميتها الأولى. قال الرسام لنفسه في السيارة التي تقلهما إلى المنزل «زوجتي عاشقة لآلان ديلون في عزّ حملها، لكنني أحلم!». لا، ذلك مستحيل ومثير للسخرية. فالغيرة هي التي جعلته يفكِّر بهذا. مع ذلك، تخيل ديلون يضرب لها موعداً في فندق فخم لقضاء ظهيرة حب... تراءت له بين ذراعيه، يضمّها إليه، وحتى في مسبح وفي يدها كأس عصير برتقال ممزوج ببعض الكحول. أصبح مجنوناً وأحمقاً ومريضاً، وباختصار بائساً. أما هي فلم تلاحظ شيئاً.

في الأيام التالية، هاتفت صديقاتها لتحكي لهن عن اللقاء. بالغت قليلاً بشأن جمال وتأثير ولطف الممثل الكبير. أما هو فبذل ما بوسعه للحفاظ على هدوئه. كأن ديلون أصبح فجأة في كل مكان، في الصالون والحمام وغرفة نومهما، وفي رأسه هو، ورأسها هي؛ استولى على المكان كله والتهم حياتهما دون أن يترك منها أية شذرة.

وبعد أسبوعين، انخفضت حمى ديلون فجأة، وانخفضت معها غيرة الرسام. ولم يعد يجري أي حديث عن الممثل. ومن جديد انصبّ كل اهتمام زوجته، السعيدة والراضية، على الطفل الذي تحمله. وغمرت السعادة والعذوبة المنزل. غمرته السعادة الزوجية الحقيقية والبسيطة والأكثر جمالاً. كان الرسام يداعب بطن زوجته،


Telegram: SOMRLIBRARY

ويطلق بوحاً ملتهباً. كانت تحبّ أن تسمعه يعترف بحبّه الفائق لها. إنه الوفاق التام.

وذات صباح باكر، بدأ مخاضها، فاصطحبها إلى المشفى وشهد ولادتها. عندما مدَّت إليه الممرضة المقصّ ليقطع حبل السرة، اضطرب حتى كاد يُغمى عليه. وما إن هدأ روعه، حتى سارع إلى حجرة الهاتف في الردهة ليعلن الخبر إلى حدّ أنّ الآلة ابتلعت كل قطعه النقدية. أطلقت أمه زغاريد جعلت الدموع تطفر من عينيه. هنأه أصدقاؤه وزملاؤه الذين يعمل معهم. وقدمت صالة العرض المهتمة بلوحاته باقة ورد كبيرة. وعندما خرج من المشفى مساء، كان يرقص ويغني.

كانت العودة إلى المنزل صعبة للغاية. فمدبرة المنزل تركت العمل ولم يسنح له الوقت لإيجاد أخرى بديلة. لحسن الحظ، جاءت والدة زوجته لتساعدهم. أقاموا حفلة بمناسبة قدوم المولود الجديد. لم تستطع والدة الرسام المقيمة في المغرب السفر، وشعرت بنفسها مهمشة. قالت لها بنبرة حاسمة، عندما تأتون، سأقيم «الحفل الحقيقي» ولم يُبْدِ الرسام أي تعليق.

لكن حياتهما تغيرت فجأة. استولى الطفل الرضيع على المكان كله. وتراجعت علاقتهما الزوجية إلى المرتبة الثانية، لكنه ظلّ مغرماً بها. بعد شهر، اتصلت به صالة العرض وطلبت منه أن يستأنف العمل. اعتكف في المحترف واستغرق زمناً قبل أن يعثر على الإلهام من جديد. لم يعُد يرضيه نمط الرسم المغرق في واقعيته والبارد جداً الذي كان يتبعه قبل زواجهما. عندما كان يعود مساءً، كان يلاحظ مقدار إرهاق زوجته. فينشغل بها ويعدّ لها الطعام ويواسيها؛ وبعد ذلك ينوب عنها في العناية بالطفل، فيبدّل حفاضه ويسقيه زجاجة


Telegram: SOMRLIBRARY

الحليب. ولم يزل يتذكر تجشؤ الطفل الذي كان يضطره للانتظار فترة مديدة قبل أن يتمكن من وضعه في مهده. . . كان أباً ودوداً؛ تَعَلَّم المهنة وحاول أن يبسط شيئاً من المرح في المنزل، لكن زوجته اكتأبت. وهذا أمر مألوف احتاط له. فضاعف من اهتمامه وحنانه. شعرت نحوه بالامتنان، واستعادت ثقتها بنفسها وتفوقها. كان ابنهما يكبر يوماً بعد يوم، وهو ما جعل العلاقة الزوجية تبدو ظاهرياً أقوى. ابتسمت له الحياة وشعر أن نتاجه الفني دخل في مرحلة جديدة.


Telegram: SOMRLIBRARY

# الفصل الرابع

## باريس، 1990

«سأدعُك تسقط بلا أصداء عندما يطيب لي ذلك»، قالت صاحبة المعرض لليليوم.

ليليوم، فريتز لانغ(*)

إنه غطاء مائدة جميل من فاس مطرز يدوياً ويعود إلى نهاية القرن التاسع عشر. بدا بالياً نوعاً ما، والنسيج لم يصمد في الزمن. ثمة صديقٌ مغربي يعرف أن الرسام من هواة جمع المطرَّزات الجميلة، فقدم لهما بمناسبة زواجهما كهدية غطاء مائدة جميل. كان جميلاً وثميناً إلى درجة أنه فكَّر بتأطيره وتعليقه كلوحة تشكيلية. وبانتظار ذلك، فرشه، بعناية فائقة، على طاولة واطئة لم يكن يحب

(*) فريدريتش كريستيان أنطون «فريتز» لانغ: (1890-1976) هو مخرج وكاتب سيناريو وممثل ومنتج نمساوي أميركي يعدّ واحداً من ألمع صنّاع الأفلام الذين ينتمون إلى المدرسة التعبيرية الألمانية في السينما، أطلق عليه معهد الفيلم البريطاني لقب «**سيد الظلام**» أشهر أفلامه في المرحلة التعبيرية كان **ميتروبولس** (أكثر الأفلام الصامتة كلفة زمنه) وفيلم **إم** الذي صنعه قبيل هجرته إلى الولايات المتحدة الأميركية، وهو الفيلم الأيقونة الذي ساهم في تأسيس النوع السينمائي المعروف بـ«فيلم نوار».



Telegram: SOMRLIBRARY

شكلها ولا خشبها، طاولة عادية يوجد مثلها في معظم المنازل. أحدث هذا الغطاء في وسط الصالون تأثيراً جيداً، فهو لم يُخْفِ تواضع قطعة الأثاث هذه وحسب، وإنما زَيَّن الغرفة أيضاً. بحث عن معلومات حول التطريز في فاس إبان القرن المنصرم، وفوجئ أن هذا الغطاء يعود لعائلة جدّ أمه. كان جزءاً من جهاز العروس لالا زينب، ابنة مولاي علي، الأستاذ في جامعة القرويين. أصبحت هذه القطعة نفيسة بنظره: ليس لأنها جميلة وفريدة وحسب، ولكن لأنها جزء من تراث العائلة. كانت الوحيدة من بين الهدايا التي تلقياها، إن صحَّ التعبير، التي أحبها حقاً. أما الهدايا الأخرى فكانت تقليدية إلى درجة أنه نسيها بسرعة. لم تكن هذه هي حال زوجته، التي عرضت الهدايا في غرفة نومهما وفي جميع الأمكنة الأخرى تقريباً. مزهريات، أطباق مطلية بالذهب، أغطية مائدة طرَّزتها عاملات مبتدئات؛ أغطية من الصوف الصناعي، طقم قهوة يشبه الخزف الإنجليزي، لكنه صناعة صينية طبعاً، باقات ورد بلاستيكية مصنوعة لتدوم أبداً وأعمال يدوية صغيرة لا تُستخدم في شيء إلا لوضعها فوق رفٍّ للتذكير بأن الزواج كان عيداً جميلاً في انتظار أن يغطيها الغبار بين جولتي التنظيف.

حين عاد ذات مساء، لاحظ أنّ غطاء المائدة اختفى. كانت زوجته قد ألقته في سلة البياضات. ودون أن يقول شيئاً، استعاده، وطواه بعناية ورتَّبه في درج خزانته. فكر في الأيادي الماهرة التي أمضت أسابيع في تطريز هذه القطعة من النسيج، في الشخص الذي رسم تلك الأزهار واختار ألوانها. كان مشوشاً. فَكَّرَ أن هذه القطعة المُطرزة اجتازت حربين عالميتين، والوصاية الفرنسية على المغرب



Telegram: SOMRLIBRARY

والاستقلال، ثم انتقلت بين ثلاث أو ربما أربع عائلات مختلفة لتنتهي في حانوت بائع تحف قديمة مثقف عرضها في الواجهة ليشتريها في النهاية أحد أصدقائه ويقدمها كهدية زواج! بدا له أن كل هذا قد محاه تصرّف زوجته اللامبالي، في أحسن تقدير، والجاهل في أسوئه. أراد أن يذهب إليها ويحدثها عن أهمية الأشياء المنتمية إلى الماضي، لكنه أدرك أنّ زوجته قد لا تطيق هذه الدروس، فتخاطر وترد عليه بسوء نية: «هذه الخرقة الرثة، منزلي ليس بازاراً!» للوهلة الأولى فكّر أن يغفر لها، ويكلِّمها بلطف، ويشرح لها الأمور، ويعلمها كيف تنظر إلى عمل فني، وأن يقول لها إنه يمكن قراءة قطعة مطرزة كما تُقرأ قصيدة جميلة، ويمكن فكّ رموز سجادة قديمة مثلما نستدلّ على آثار حضارة... إلخ.

انزوى في مكتبه وتساءل لماذا صدمته بعمق قصة غطاء المائدة. ما زال حبهما قوياً حتى الآن. ولو أن بعض تصرفات زوجته قد صدمته، لكنه أحبّ لها أن تكون مختلفة عنه. وقد تغلبا دوماً على اختلافاتهما وعلى كل ما يباعد بينهما. أما هذه فليس بالمقدور تجاوزها. ومن المستحيل أن يغفر لها تصرفها. لقد اقترفت ما لا يمكن إصلاحه. وهو ما جعله يشعر للمرة الأولى بأنه يمكن أن ينفصلا ذات يوم. انقضت السهرة. لم يتطرّق الرسام للموضوع مع زوجته أثناء العشاء. وفي وقت متأخر من الليل، راح يضحك من شدة غيظه.

بعد ولادة ابنهما، استردّت الكثير من اطمئنانها وعَدَّلَت موقفها وتصرفاتها. وأعقبت حادثة غطاء المائدة مشاحنات يومية. وفي كل مرة، كان ينتهي إلى الخروج من المنزل ليمشي في المدينة. لم يكن


Telegram: SOMRLIBRARY

يحبّ التردّد على الحانات. وراح يتنزه وقبضتاه مشدودتان في جيبه وهو يحدِّث نفسه.

وذات مساء، في وقت متأخر، توقف أمام محل لبيع أجهزة تلفاز كانت جميع شاشاته تبث على نحو غريب تقريراً عن موسيقى جبال الأطلس الكبير(*). كان الصوت مقطوعاً، لكنه وهو يشاهد النساء المرتديات فساتين مزركشة الألوان والرجال بالجلابيات البيضاء يضربون على الدفوف وآخرون يعزفون على الناي، لم يستطع أن يمنع نفسه من العودة لسماع هذه الموسيقى المفعمة بالأصوات الحادة والتنافر والتي عُزِفَت في حفل زواجهما. إنها ذكرى حاول نسيانها، لكن ها هي تطفو الآن على السطح.

لم تستهوه الموسيقى الفولكلورية قط، لا موسيقى بلده ولا غيره، لكن أحداً لم يعبأ برأيه عند الإعداد لحفل الزواج. فلا عرس بلا موسيقى ولا عشاء بلا ضجيج. وهكذا ألفى نفسه في دوامة من الضجيج والضوضاء، هو من حلمَ بحفل زفاف يضمّ عدداً من الأصدقاء وعند اللزوم بعض أفراد الأسرتين.

ورغم سعادته بزواجه من امرأته، فقد حافظ طيلة السهرة على هيئة بلهاء، ليست من عادته، لا بل كانت نظرته تضطرب عندما تلاقي نظرة والده، الذي عارض بشدة هذه المصاهرة، لأنه وجدها غير ضرورية وغير صحيحة. أما والدته فارتدت أجمل قفطان

---

(*) **الأطلس الكبير** وتعني جبل الحياة وهي تسمية قديمة لاعتقاد السكان المحليين أن الجبل مصدر الماء والحياة هو عبارة عن سلاسل شامخة تمتدّ من غرب مدينة أكادير على المحيط الأطلسي في اتجاه الشمال الشرقي وأعلى قممها جبل توبقالِ 4165 م.



Telegram: SOMRLIBRARY

وحزامها الذهبي وأثمن مجوهراتها، لكن روحها كانت مُضطربة ومُهانة من صِدام الطبقات الذي فرضه ابنهما عليهما. كان أفراد أسرتها الآخرون يشاطرونها الحالة نفسها، واستطاع أن يقرأ ذلك على وجوههم المتجهِّمة. وحتى طلبوا من عمّته، المعروفة بصراحتها، أن تلزم الصمت. فهم ليسوا هناك للخصام وإثارة فضيحة. أما من جانب عائلة زوجته، فكانت النسوة يبذلن ما بوسعهن ليُبْدين ظُرْفَهن، لكن النظرات كانت مثقلة بالمضمرات. وفي الجانبين، لم تكن الملابس هي ذاتها، ولا الحركات أيضاً. وحدها هذه الموسيقى، المنبعثة من أجهزة صوت قوية، التي تصيب جميع الناس بالصمم، منعت الوضع من الانفجار ومن تَحَوّله إلى كارثة. وما عداهما هو وهي، لم يكن أحد مسروراً. لم يكن أحد يريد هذا القران. وكان المدعوون يفكرون أنه لا بد للمرء أن يكون مجنوناً حتى يرغب بجمع عالمين مختلفين جداً.

هاجمته ذكرى أخرى من زواجهما. ذكرى عطر القرنفل الذي تعطَّرت به كل نساء قبيلة زوجته. كانت رائحته تسبب له غثياناً قوياً منذ أن استنشقه أول مرة، وهو طفل، عندما سافر مع والديه في حافلة كبيرة. كان لا يزال ينفر منه، مكابداً بعد استنشاقه آلاماً في الرأس عذّبته طوال ساعات.

في هذا الزواج، اجتمع كل شيء لدفنه، ومع ذلك واجَهَه. كان يشعر بحنان لانهائي حيال هذه الفتاة التي ظنّها مستقلة وخارجة عن سيطرة قبيلتها. كان ينظر إليها ويغمرها بالقبل ويحتضنها مداعباً شعرها الرائع الأصهب تقريباً. كان عاشقاً. عاشقٌ مُوَلَّه. ولم تعد أي امرأة أخرى تنال الحظوة لديه، هو الفاتن الذي راكم الكثير من التجارب خلال رحلاته ولقاءاته.


Telegram: SOMRLIBRARY

لم يتخيل قط أن حفل الزواج هذا، الذي صار اليوم يسميه هزيمته - سيترك آثاراً لا تُمحى في حياتهما، وفي حياته. كان اللقاء بين العائلتين صراعاً طبقياً، كانا مجموعتين لا يمكن التوفيق بينهما. ومع ذلك لم يرد في تلك الفترة أن يتوجّس من الأمر. ظنّ أنّ الحب سيكون أقوى من أي شيء، كما في ميلودراما دوغلاس سيرك التي يحبها. كانت الأفلام تؤثر في مخيلته أكثر من الكتب. وأثناء الخصام عاود التفكير بفيلم **حمى في الدم** لإيليا كازان وفيلم **مكان في الشمس** لجورج ستيفنس، وتماهى مع البطل الشاب الذي تصدى لمواجهة العائلتين. كان يعرف رغم ذلك أن السينما هي حلم الواقع.

في بداية السهرة، ورغم كل التوصيات التي لُقِّنَتْ لها، لم تستطع عمته منع نفسها عن الجهر بوجهة نظرها أمام المدعوين الذين يحيطون بها، بكبرياء لا يصدّق. أعلنت بكلمات صريحة أنّ كل اختلاط برأيها هو خيانة للقدر. استعملت كلمات فجة وعنيفة، صاحبتها حركات وبرطمات مشمئزة، وتكشيرات مبالغة. كان احتقارها واضحاً. كيف أمكن لسيدة من برجوازية فاس الراقية مثلها أن تقبل على نفسها الوجود برفقة قرويين لا يجيدون حتى التحدث بالعربية؟ كيف أمكن لابن أخيها أن يضلّ إلى هذا الحدّ؟ ثمة تفسير وحيد: لم يكن فاعلاً، كان منفعلاً؛ ولم يقرّر، شيء ما قرر بدلاً عنه. إنها مؤامرة طبعاً. أصبح الزوج المسكين حملاً وديعاً بين أيدي جهلة وجدوا فيه فرصة سانحة للاستحواذ على الأناقة والنعمة وأرقى التقاليد. كانت عمّته تريد أن تهين، وتُظهر أهميتها وتُخطر هؤلاء الناس المنتمين إلى المناطق النائية بأنه حتى لو أحب فرخا اليمام بعضهما، فلن يوجد أبداً بالمقابل زواج بين العائلتين.



Telegram: SOMRLIBRARY

أمّا أمه، فبقيت خرساء طيلة حفل الزفاف. صدم هذا القران حساسيتها وذاكرتها، لكنها كظمت غضبها. راحت تبكي من وراء نظاراتها وترمق من حين إلى آخر بنظرة إشفاق ابنها الذي ارتكب، باعتقادها، خطأً قاتلاً. كانت امرأة معروفة بطيبتها وحكمتها؛ ولم تكن قادرة على النميمة أو الخصام، لكن كانت لديها يقينيات بسيطة وواضحة.

عادات المجتمع منظمة. لا يد ممدودة ولا أذرع مفتوحة ولا نفاق. ترأست عمته جبهة الرفض، وراحت تجترّ كلماتها حتى وهي تتظاهر بمخاطبة أختها وبناتها وأبناء أخوتها: «انظروا إلى هؤلاء الناس، إنهم ليسوا أهلاً للاختلاط بنا! انظروا إلى هذا الأب الذي لا يبتسم أبداً وحتى ليس لديه اللياقة ليرتدي طقماً نظيفاً، فظلّ يرتدي غندورته(*) المدعوكة ويريد أن يتحدّث معنا كندٍّ! أما الطعام، فأُفَضِّلُ عدم الحديث عنه. حتماً، ليس ثمة شيء مشترك بيننا، لا الأذواق نفسها، ولا الاحتياجات ذاتها، إننا غرباء. في النهاية، كان حريٌّ به أن يتزوج من مسيحية، من شابة أوروبية. إنهم لا يشاطروننا اعتقادنا، لكن لديهم على الأقل آداب السلوك. أحد أبناء أخوتي تزوّج فرنسية ولم نضطرّ قط للتذمر من عائلتها. آسفة على صراحتي الجارحة، لكنني أقول ما أفكر به، وأُتَرْجِمُ صمت أفراد الأسرة الآخرين. هذه القصة بدأت بشكل سيئ وستنتهي نهاية سيئة. إلا إذا استدركا الزمن وسقطت الغشاوة عن العيون. وإلا ستنجب له عدة أطفال وسيكون الأوان قد فات. هذه طريقة معروفة: ستسعى لأن يزن كل طفل طناً حتى تمنع الزوج من الرحيل!».

---

(*) الغندورة: عباءة مغربية.



Telegram: SOMRLIBRARY

قبيل منتصف الليل، وبعد أن بذل ما بوسعه لإخفاء العدوانية عن زوجته، وجدها منزوية في ركن تبكي. جفَّف دموعها وواساها. هل سمعت نميمة عمته، أم أن واقعة افتراقها عن والديها ورحيلها لتأسيس أسرة معه هو ما أقلقها فجأة؟ خطر ببال الرسام زواج أخته حين بكى الجميع لأن زوجها جاء ليأخذها نهائياً. حدث ذلك في فاس منذ زمن طويل، زواجٌ فيه احترام صارم للتقاليد التي تقدِّسها عمته. اجتمعت العائلتان فيما بينهما. وترتَّب كل شيء بالإيماءات؛ كان كل واحد يحفظ دوره عن ظهر قلب ولم تكن المسرحية لتخفق ما دام كل شيء فيها متوقعاً، جرت الطقوس بلا مكائد، وكانت العائلتان فيما بينهما بلا مفاجآت سيئة، وبلا كلام غير لائقٍ أو قلة ذوق. وعند أي بادرة خطأ، كان هناك دوماً شخص يتدخل ويعيد التوازن إلى العرس.

يعرفُ اليوم حق المعرفة لماذا شرعت زوجته في ذاك المساء بالبكاء ولم تستطع إجابته. فقد أجَّج موقف العائلتين شعوراً بالرفض ظنَّت أنها تجاوزته منذ عاشت مع الرسام. واستعادت ذكريات الإهانات غير المحتملة التي كانت عاشتها في طفولتها لأنها من أصل وضيع، كأنها جرحٌ خفيٌّ تفتق من جديد على حين غرة.

قال في سره إنه كان عليه أن يدافع عنها على نحو أفضل. أن يهيئ التربة قبل الزواج. أن يقول لها إنه يحبها أياً كان رأي أسرتيهما الذي لا يهمه. كان يمكنه ببساطة أن يبرهن لها أنّ حبهما أقوى من أي حادث عابر، لكنه لم يتوخَّ الحيطة، معتقداً أن حبه بديهي وواضح وسيُخرس ألسنة السوء. هذا الزواج كان بمثابة إعلان حبهما على الملأ، وصرخة لمن شاء أن يسمع عن تعلُّقه بهذه الشابة


Telegram: SOMRLIBRARY

الريفية، وإعلان لفخره على رؤوس الأشهاد بأنه تحدى طبقة اجتماعية كاملة.

وحيداً في الشوارع، وقبضتاه في جيوبه، راح يجترّ سيرتهما ويبحث دون جدوى عن وسيلة لوقف مشاجراتهما، وللعثور من جديد على جوهر الحب الذي يكنّه أحدهما للآخر.


Telegram: SOMRLIBRARY

# الفصل الخامس

## مراكش، كانون الثاني/ يناير 1991

«سيكون مرعباً أن يؤول الأمر إليك بأي طريقة كانت» قالت لإسحق بورغ، البالغ 78 عاماً، زوجة ابنه.

**التوت البري**، إنغمار بيرغمان

كانا يسافران ذات يوم إلى جنوب المغرب، فمرّا بالقرية التي ترعرعت فيها قبل مجيئها إلى فرنسا. اكتشفَ أن زوجته سعيدة، كما لم يرها منذ زمن بعيد، مرتاحة في حركاتها، لطيفة ورضية. بدت متواطئة، وحدَّثته عن جمال الضوء، والمناظر الطبيعية، وعن لطف سكان هذه المناطق النائية. ذَكَّرَتْه فجأة بالفتاة الشابة التي عرفها قبل زواجهما ووقع في غرامها. وهو مضطربٌ، خطر بباله أن يقيم هنا، فهذه المنطقة تؤثِّر في مزاجه على نحو رائع! لم يكن مخطئاً، لأنها بمجرد أن وجدت جذورها، شعرت بالاطمئنان، ما أتاح لها أن تواجه الآخرين بطريقة إيجابية ولم تعُد عدوانية أو محبطة. راحت تمضي ساعات في التحدث إلى نساء القرية اللاتي يعرضن عليها مشكلاتهن. كانت تدوّن ملاحظات وتتصرف بدقة باحث اجتماعي وتَعِدُ بالعودة لإيجاد الحلول معهن. كانت قد أحضرت ملابس للنساء



Telegram: SOMRLIBRARY

اللواتي تعرفهن واختارتهم بعناية، كما أحضرت أيضاً ألعاباً للأطفال؛ وكمية من الأدوية عهدت بها إلى الشابة الوحيدة التي تعرف القراءة.

طفق الرسام ينظر إلى زوجته وهي تمارس الإحسان، وكان سعيداً. كانت السماء زرقاء صافية وبرد المساء قارساً. شدّت نفسها إليه لتتدفأ وأيضاً لأنها شعرت أن زوجها يخصّها. أمسكته وجذبته نحوها بكل قوتها كأنها تريد إبلاغه بأنها سترعاه إلى الأبد. فكّر لبرهة أنها قادته إلى هنا لتستأثر به بطريقة سحرية. ألم تكن تؤمن بالسحر مثل نساء قريتها؟ طرد هذه الفكرة المتخلفة من ذهنه.

ودّ لو ضاجعها في تلك الليلة ليرسِّخ تلك اللقى، لكنهما لم يكونا وحيدين في الغرفة. ثمة أطفال ينامون بجانبهما. قبَّلته بلطف وهمست له في أذنه: «يا رَجُلي، أنت رَجُلي...» فأجابها بمداعبة طويلة لصدرها.

استيقظا في الصباح الباكر وتناولا فطوراً تقليدياً. كانت القهوة لا تُشْرَب، مزيجٌ من الحُمُّصِ المحروق مع بضع حبات بُنّ أعطاها مذاقاً غريباً. طلب شاياً، وللأسف كان كثير السكر. انطلقا بعد ذلك ليتمشيا على طريق يفضي إلى الجبل. كان كل واحد منهما يمسك يد الآخر. شعر بها خفيفة ولا مبالية. قال لها إنه سيترتب عليهما القيام بالرحلة نفسها ذات يوم إلى فاس، مسقط رأسه. قالت إن ذلك سيسرها، لكن بشرط ألا يزورا أسرته وخاصة عمته التي احتفظت لها بذكرى صادمة. تجنب إبداء أي تعليق، لأنه كان يخشى أن تُفسد أية كبوة هذه اللحظة اللطيفة التي كان ينوي إدامتها أطول فترة ممكنة. فهو لم يرها بهذه السكينة منذ أشهر.

مشيا طويلاً ونسيا الزمن. حين وصلا إلى أعلى الجبل، صادفا


Telegram: SOMRLIBRARY

راعياً يعزف الناي. كأنه صفحة في كتاب صور. ارتاحا بجانبه. وعندما ذهب مع قطيع الماعز، ألفيا نفسيهما وحيدين من جديد. قبَّلته بحنان على فمه. اشتهاها وألقى نظرة على الجوار. كانت هي مَن لاحظت وجود كوخ صغير. هناك، ارتميا على القش وخلعا ملابسهما. تضاجعا بهدوء. قال في سره إنه لا بد من العودة إلى هذا المكان مراراً ما دامت زوجته شعرت بالراحة فيه.

مكثا في الكوخ فترة مديدة؛ وأغفيا. جلب لهما الراعي، بحسب ما يقتضي العُرْف، حليباً طازجاً وبضع حبات تمر. إنها طريقة للترحيب بالضيف. مالت الشمس للمغيب وبدأ الطقس يبرد. سألهما الراعي عن حياتهما وأخبرهما أنه لم يغادر جَبَلَهُ قط، وتساءل عمّا يحدث في المدن. ومع ذلك، كان عنده جهاز تلفاز صغير بالأبيض والأسود يشغله بواسطة عبوة غاز. كانت هذه الكوة الصغيرة تجعله سعيداً. كان يطل منها أحياناً حتى على فرنسا، البلد الذي يعمل فيه والده وعمه.

نهضا كي يعودا خشية أن يداهمهما الليل. فالليالي في كانون الثاني طويلة وبهيمية. كان الراعي سعيداً بهذه الزيارة غير المتوقعة. وحتى يشكره الرسام، أهداه نظارته الشمسية: «أنت تحتاجها أكثر مني؛ أنت تواجه الشمس كل يوم، ويجب أن تحمي عينيك». جعلته فكرة ارتداء نظارة على الموضة يطير فرحاً. ركزها في الحال على عينيه وأعلن أنه يرى الجبل والسهل بشكل مختلف زاعماً أن ألوان نعجاته تغيرت. راح يضحك وهو يوجه لهما أمنياته بالتوفيق. دسَّت أيضاً زوجة الرسام ورقة من فئة المئة درهم في جيبه. قَبَّل يدها وهو ما كان مزعجاً.

أثناء نزولهما، شعرا بالتعب، لكنه تعبٌ ممتع، تعبٌ يقودكم



Telegram: SOMRLIBRARY

إلى السرير مباشرة ويجعلكم تنامون على الفور. كانا جائعين ويحلمان بخبز بالزبدة كما في باريس، لكن السيدة التي يقيمان عندها حَضَّرَت لهما كسكساً بالخضار. أكلا كسائحين أجنبيين. كان ينفر من الزبدة السائلة. حدقت فيه بعينين واسعتين وقالت له: «إنها مفيدة يا عزيزي، مفيدة لصحتك، مفيدة للنظر وللذاكرة والمخيلة والإبداع» لم يسنح له الوقت ليرسم أي تصميم، لكن كل شيء انطبع في ذاكرته. كان لون السماء المميز جداً يخطر بباله غالباً؛ فيتساءل كيف سيجسّده فيما بعد على اللوحة. لم يكن لها علاقة بسماء الدار البيضاء التي كانت بالأحرى بيضاء، وأيضاً بدرجة أقل بسماء باريس المائلة إلى اللون الرمادي. هنا، في أبعد مكان في المغرب، المحمي من التلوث، كانت السماء زرقاء صافية ولطيفة. وعلى عكس ما يُعتقد، لم يرسم دولاكروا(*) قط لوحة في المغرب. دَوَّنَ ملاحظات ورسم في دفاتره. وفقط عندما عاد إلى فرنسا وجد ألوان هذا البلد واستطاع أن يرسمها في لوحاته.

في اليوم التالي، التقطا بعض الصور للقرية. سارع الأطفال للوقوف أمام العدسة. ورفضت النسوة أن يلتقطوا لهن صوراً: قلن إنهن يخشين أن يفقدن أنفسهن. إحداهن اتخذت وضعية الملتفتة إلى الخلف. ضحكت وقالت: «أنا أمسك نفسي جيداً» كانت ترتدي

---

(*) **فرديناند فيكتور أوجين دولاكروا** (فرنسي: Eugène Delacroix) (1798-1863)، رسام فرنسي من رواد المدرسة الرومانسية الفرنسية. له العديد من اللوحات الفنية المحفوظة في متحف اللوفر وغيره. من أشهر لوحاته **الحرية تقود الشعب** التي رسمها عام 1830 ولوحة **سلطان المغرب** التي رسمها عام 1845 ولوحة **الجزائريات** التي رسمها عام 1830 ويبدو فيها تأثره برحلته إلى المغرب وشمال أفريقيا.



Telegram: SOMRLIBRARY

فستاناً مزيناً بالأزهار. كأنها لوحة لماجوريل، رسام مراكش.

حانت ساعة الرحيل. ألقيا تحية على جميع الناس، وصعدا سيارتهما وسلكا طريق أغادير. أمضيا الليل في فندق يشرف على الشاطئ. سبق للرسام أن تخيَّل هذه المدينة. قبل زلزال 29 شباط/ فبراير عام 1960، كان قد شاهد أحد أساتذته في تلك الفترة يبكي. كان قد فقد أسرته كلها.

منذ ذلك الحين، أُعيد إعمار أغادير بكاملها. وانتشرت الفنادق على مدّ النظر. لم تعُد المدينة مكرَّسة إلا للسياحة. كانت روحها قد دُفنت. في عام 1960، لم تكن زوجته ولدت بعد، وكان هو في السادسة من عمره. كان يحتفظ في ذاكرته بذكرى ذلك الأستاذ المصعوق من هول الفاجعة. وحتى والده الثائر شكَّك أمامه برحمة الله. وهناك أناس أشاعوا أنّ ذلك كان عقاباً إلهياً. في سن السادسة، كل ذلك دُوِّن في ذاكرته بطريقة غامضة، لكن ذكرى هذه الكارثة رافقته طوال حياته.

طافا في أسواق المدينة المختلفة. كان السكان مختلفين عن سكان مراكش. اعتدادهم الطبيعي بأنفسهم يفرض الاحترام. لكن هل سيكون قادراً على العيش في هذه المدينة المرمَّمة كما لو أنها خضعت لعدة عمليات جراحية تجميلية؟ لا شيء فيها يجيبه. لاحظ أن زوجته تبدو حزينة. استأنفا طريقهما باكراً في اليوم التالي قبل أن يتكدَّر مزاجها من جديد. جلست أمام المقود وراحت تقود بسرعة. راقب طريقتها الماهرة في التحكُّم بالسيارة السريعة. أصبحت فجأة امرأة لم يعرفها من قبل تجلس إلى جانبه، امرأة حازمة ومصمِّمة ولا تخشى شيئاً.

أوقفها شرطيان بسبب السرعة الزائدة. ارتاح الرسام تقريباً.



Telegram: SOMRLIBRARY

حاولت رشوتهما. أحد الشرطيين وبَّخها. خاطبته بالأمازيغية. أجابها باللغة ذاتها، وناولها أوراق السيارة وقال لها أن تتوخى الحذر.

مكث الرسام مذهولاً، فالتضامن القبلي كان أقوى إذاً من كلّ قوانين السير.



Telegram: SOMRLIBRARY

# الفصل السادس

## الدار البيضاء، 24 آذار/ مارس 2000

«جئت من طرف شخص لم يعد موجوداً. أعطاني موعداً في هذه الأماكن المؤثرة، لكنه لن يأتي»، يعلن لويس جوفي للخادمة التي تفتح الباب.

**عائد**، كريستيان-جاك(*)

غفا الرسام، رأسه مائل، وساقه ثقيلة، ويداه مضمومتان.

فتح عينيه ببطء. كان التوأمان يلعبان الورق، وهما جالسان على عشب الحديقة. كان كرسيه مزوداً بزرٍّ للنداء، زر جرس، لكنه لم يرغب بإزعاجهما. راح يستمع إليهما يضحكان ويتبادلان المزحات. هو لم يعرف قط ممارسة أية لعبة، لا الورق ولا البريدج ولا الشطرنج. وما عدا كرة القدم، لم يتألق في أية رياضة. حدث ذات مرة أن كان في فريق كرة مضرب، لكن صديقيه رولاند وفرانسوا سخرا منه. قال له أحدهما: «أنت تلعب كما في فيلم **بلوي آب** لأنطونيوني»؛ وأردف الآخر: «ضربتك هوائية إلى درجة أنك لا تحتاج إلى لمس الكرة!» لم يكن بوسعه التركيز على اللعبة. كان

(*) كريستيان-جاك (Christian-Jaque) (1904-1994): مخرج وكاتب سينمائي فرنسي.



Telegram: SOMRLIBRARY

يفكر دوماً بلوحاته. كان الرسام قد كرس كل حياته كرجل لعمله. دَرَّسَ حيناً من الزمن، وبعد ذلك لم يعد يمارس إلا الرسم والتصوير. في المقابل، كان يحب كثيراً متابعة المنافسات الرياضية في التلفاز. كان يحب جانب التحدي في الرياضة، ذلك الطموح الذي يدفع الرياضيين ليكونوا الأفضل، بدافع الرغبة والعمل الدؤوب والشغف بالصعاب فقط. كان يحب تذكير أبنائه أنه وصل إلى النجاح عبر مراحل. تَسَلَّق جميع السلالم. واحداً واحداً، ولم يسقط في فخ السهولة قط، ولم يخضع أيضاً لتأثيرات الموضة، أو البهرجة الاجتماعية التي تنتهي إلى تضليل حتى النخبة.

أقام معرضه الأول في ثانوية الدار البيضاء حيث كان مدرساً. واجه صعوبة في إقناع المدير، لكنه عرف كيف يكلمه. إنه أحد زملائه القدامى في الكلية، رجل ملتزم بأعراف المجتمع. تزوج حسب رغبة والديه ولديه طفلان مسجلان في البعثة التبشيرية الفرنسية، ويقضي إجازاته السنوية في جنوب إسبانيا ويطمح أن يبني فيلا من طريق القروض. كان يدعى الشعبي، ولَقَّبَه الناس «بوب» نسبة إلى بوبيلير أي شعبي. وبعد أسبوع من اقتراح الرسام إقامة معرضه، جاء الشعبي للقائه وقال له كما لو أنه هو من خطرت بباله الفكرة: «ستكون الوزارة مسرورة بهذه المبادرة، خاصة في هذه الفترة من الإضرابات والاضطرابات؛ ستردّ على تمرد التلاميذ بالفن! هذا مدهش، ليس ثمة خطر وحتى أتوقع ترقية لك!» وستكون المرة الأولى في الواقع التي سيرى فيها مراهقو الأحياء الفقيرة معرض فن تشكيلي وفوق ذلك معاصر. قبل افتتاح المعرض، نظم الرسام عدة لقاءات بعد الدروس، حدَّثهم فيها بإسهاب عن عمله آملاً أن يصقل حساسيتهم للفن وعلى الأخص أن يعلِّمهم كيف يشاهدون لوحة فنية.


Telegram: SOMRLIBRARY

عرض عليهم فيلماً قصيراً لآلان ريسني عن فانسنت فان غوغ وآخر لـ هـ.ج. كلوزو عن بيكاسو وهو يعمل. كانوا مهتمين وحتى متأثرين.

في السنوات اللاحقة، اتَّبع رسامون آخرون خطاه. بدت التجربة مقنعة. وبفضله دخل الفن التشكيلي إلى الثانوية. وخرج رسامون نادراً ما عرضوا لوحاتهم من محترفاتهم. كان فخوراً بذلك.

عمل هكذا طيلة ثلاثين عاماً بشكل يومي، ودوماً بالتشدد ذاته، عاد إلى كل لوحة قدر ما تحتاجه من عدد المرات، ورفض مراراً عروضاً مغرية من أصحاب الصالات عندما كان يشعر أنهم ليسوا جديين بما فيه الكفاية. جاءه الاعتراف بطيئاً، لكنه مؤكَّد. لم يقدِّموا له هدية وبعض الفنانين، خاصة الأكثر وضاعة، حاولوا التسبُّب بمشاكل له ولم يتردّدوا في التحالف لينصبوا له أفخاخاً حتى يلوِّثوا سمعته. كانت طعنات غادرة لا علاقة لها بسياق نتاجه الفني. أخفق هؤلاء الوضيعون، لكن كما يقول المثل الشعبي: «لا دخان بلا نار» وخاف والده عليه: «عاجلاً أم آجلاً ستكون هدفاً للناس الخائبين؛ لا تبالغ في الظهور؛ كن كتوماً؛ ولا تنسَ ما قاله النبي: «حب التناهي شطط وخير الأمور الوسط!» انظر، حين تسلط الأضواء على شخص، يوجد دوماً أناس لنبش القمامة. وعندما لا يعثرون على شيء، يختلقون شيئاً ما دنيئاً. الصحافة مغرمة بذلك، وعندما تصحّح، لا أحد يعير انتباهاً للأمر، فالأذى قد وقع!».

بفضل رزانته وحكمته، نظمت صالة عرض كبيرة في لندن خلال إحدى سنواته الثلاثين أول معرض استعادي لأعماله. قفزة مفاجئة نحو العالم برمَّته. لم تتأخر العواصم الأخرى في اقتفاء أثرها. كان وكيله على نحو خاص سعيداً؛ اتصل به هاتفياً من نيويورك وقال له


Telegram: SOMRLIBRARY

بلغة فرنسية ركيكة: «كما ترى، لا يوجد إلا يهودي ليجعل عربياً يربح حصة من النقود، هذا لا يُصدق يا صديقي، بيعت جميع لوحاتك، سعرك يصعد، يصعد، يصعد!» وإثر فوزه في العام نفسه بجائزة روما، استطاع الإقامة سنة في فيلا ميديس والتآلف مع إيطاليا. لم يغير هذا النجاح الباهر من تواضعه ولا تصرفاته. كان والداه فخورين به، والنساء معجبات به ويتزاحمن حوله. استمر في عمله كعادته. وُلِدَت شائعات عجيبة وتبخرت دون أن يعرف أحد كيف. وَجَدَتْ صحيفة مغربية طريقة لاتهامه بتحصيل المال مستثمراً جمال البلد. . . وأعلنت جريدة ليبية مقاطعته: «رسام باع نفسه للصهيونية ويعمل مع وكيل يهودي ويعرض في صالات أميركية مناصرة للسياسة الإجرامية الإسرائيلية!» تواردت الكثير من الذكريات السيئة إلى ذهنه دون أن تكدِّره. كان يعرف أن لكل نجاح ثمن. وغالباً ما ردد والده: «الإخفاق يتيم، أما النجاح فلديه العديد من الآباء!».

كان عقلانياً في جميع المجالات، وهذا يختلف عن الثراء والإفراط اللذين يسودان فنه التشكيلي المُغْرِق في واقعيته. فالبورتريهات التي كان ينجزها من حين إلى آخر وينفذها حسب التقليد الكلاسيكي الصرف، كانت بالتأكيد تلك اللوحات التي تشبه الإنسان الذي كانه، لكنه كان يحرص في باقي لوحاته على تنويع منابع إلهامه وعلى برهان أنّ فنه لم يُؤَسَّس على المصادفة وإنما على تملُّك المهارة التقنية الوحيدة التي تسمح بالانتقال من الواقع إلى قماش اللوحة. كان يكره المدارس التي تُرَوِّج لنفسها أو التي اختلقها النقاد على نحو مصطنع. برأيه لم يكن ذلك سوى ترتيب للفنانين المختلفين في خانات على نحو تعسفي. فلم ينتمِ إلى أيّ تيار أو أي



Telegram: SOMRLIBRARY

مجموعة. وعندما كانوا يطرحون عليه الأسئلة، كان يقول ببساطة إنه جاء من مدرسة العدوة، وهي مدرسة ابتدائية فرنسية مغربية يرتادها أبناء الوجهاء في فاس، سجَّله والده فيها مباشرة بعد المدرسة القرآنية. وهناك تعلّم الكتابة والرسم. كان أستاذهم مولعاً بالفن التشكيلي وغالباً ما أطلعهم على كتب عن فان غوغ أو رامبرانت. بعض التلاميذ كانوا يضحكون، أمّا هو فكان ينظر إلى تلك الصور بفضول خارق ظلّ يسكنه دوماً.

في مدينة فاس الضياء نادر. وعندما يصحو الطقس، كان يصعد إلى شرفة منزل والديه ويرسم ما يراه. كان ذلك صعباً، وغالباً ما مزَّق رسمه وأعاد الكرة ليحصل على صورة المدينة بأقصى دقة ممكنة. كل المنازل متشابهة ولها شكل مكعبات متداخلة. كان عليه أن يذهب أبعد من هذا المظهر وأن يخلق فضاءً. في سن العاشرة، تجرأ على عرض إحدى رسوماته التي وجدها ناجحة على أستاذه، فشجَّعه وأهداه نهاية العام علبة أقلام ملونة.

كان الرسم يتيح له الهرب، وأن يعيش علاقته مع العالم بشكل مختلف. كانت لديه جارة صماء بكماء، جميلة جداً، تدعى زينة. لا هو ولا هي كانا يعرفان لغة الإشارة، لذلك كان يتواصل معها بواسطة الرسوم. كان يقضي فترات ما بعد الظهيرة بكاملها في الرسم ليقول لها أشياء لطيفة ويجعلها تحلم. ورسم لها بورتريه لكلّ فرد من عائلته. كان هذا تمريناً حاسماً لتقنيته المستقبلية. اضطرته الرغبة في التواصل معها على أن يكون مبدعاً. وعندما يعود إلى منزله، كان يواظب على رسم القصص ليقدِّمها لها في اليوم التالي. وفي أحد الأيام غادر والدا زينة فاس إلى الدار البيضاء، فشعر بحزن غامرٍ. وعدته أن ترسل له عنوانها. انتظر ذلك طويلاً، لكنه لم يتلقَّ عنها أي



Telegram: SOMRLIBRARY

خبر. جعلته هذه الذكرى يبتسم، لأن زينة كانت بالتأكيد حبّه الأول، في سنّ العشر سنوات ونيف... وبعد بضعة أشهر من الانتظار دون جدوى، قرر أن يحرق كل الرسومات التي رسمها لزينة حتى ينسى هذه القصة. وها هو اليوم يندم على تصرفه، لكنه يخفف عن نفسه، مقنعاً إياها أنها كانت ولا بد رسوماً رديئة...

نظر إلى المنبه المركون فوق طاولة صغيرة متحركة كان يضع عليها ريشه وألوانه عندما كان لا يزال بوِسعه الرسم. الساعة الحادية عشر وخمسة وأربعين دقيقة، وهذا موعد الحقنة والأدوية. دخلت إيمان، ممرضته السمراء ذات الحركات اللطيفة والنظرة المفعمة بالحنان، إلى الغرفة وبدأت دونما إبطاء في الاهتمام به. كانت تأتي للاعتناء به، رزينة وبشوشة دوماً، ثلاث مرات في اليوم. كان يناديها «لافوا la Foi» وهي الترجمة الفرنسية لاسمها بالعربي، وهو ما كان يسلي المرأة الشابة ويجعلها تبتسم. أوصاه بها أحد أصدقائه الأطباء قائلاً: «إنها امرأة ستمضي معك وقتاً لا بأس به، إذاً مهما يكن من أمرها، وعلاوة على كفاءتها، فهي لطيفة وحتى جميلة. ومن المهم أن يحيط بك أشخاص لا يبدون نفورهم منك! وحسب علمي أنت تحب النساء، وتلك المرأة لن تزعجك، وخاصة أن علاقتكما ستكون محصورة في الأمور الطبية. إنها شابة من عائلة طيبة، وعلى الأرجح ما زالت عذراء. هذا هو دوماً المكسب في مخاطر الحياة».

كان ينتظر كل زيارة لإيمان بفارغ الصبر. إنها لحظة مفضَّلة لأنّ هذا الحضور يقوّيه. كانت تنجز عملها بجدية وحنان. سألها ذات يوم إن كانت مخطوبة. ابتسمت وقالت له: «في المرة القادمة، سآتي خلال فترة عطلتي لأحكي لك قصتي، وإن شئت، يمكنني أن أقرأ



Telegram: SOMRLIBRARY

لك بالفرنسية كما بالعربية» وجد الرسام الفكرة ممتازة. فهي بالنسبة إليه فرصة للغوص في نصوص بودلير عن دولاكروا التي أحبها كثيراً، ولاكتشاف سيرة ماتيس الجديدة. وحين أنهت إيمان عملها انسحبت بالرزانة ذاتها التي جاءت بها.

عندما حان موعد الغداء، نقله المساعدان إلى قاعة الطعام وأطعماه كطفل رضيع. كانت تلك بالنسبة إليه أصعب لحظة في النهار. قال له الطبيب إنه سيتمكن من استخدام يده اليمنى خلال بضعة أسابيع. إنها مسألة وقت وصبر. ولكن لم يحصل شيء. كان يأكل قليلاً، ليس بسبب فقدان الشهية وإنما للتخلص من هذه المحنة. كانت نظرته لنفسه بأنه أخرق وضعيف تفسد وجوده كله. وكان يشرب كل جرعة كعجوز عطشان لأنه يخشى ابتلاعها بطريقة مواربة. وهي مشكلة غالباً ما حدثت مع والده وورثها عنه ويمكن أن تكون مميتة في وضعه الحالي.

لم يجرَ بعد تعديل المغاسل والمراحيض ليتمكّن من الذهاب إليها وحده. إنه عيد الأضحى والأعمال متوقفة في البلد. كان متعهد التمديدات الصحية ينتظر عودة عماله من قراهم لاستئناف العمل. ولم يعد بالإمكان العثور على متعهِّد بناء. والدَهَّان اختفى. فعيد الأضحى هو مناسبة لملايين المغاربة لأكل اللحم، ولا أحد يريد تفويت هذه الفرصة، وعلى العكس كان هذا العيد هو أكثر ما تخشاه المشاريع الصغيرة والمتوسطة، لأن جميع الأنشطة الاقتصادية تتوقف فجأة. وبالنسبة إليه أيضاً، كان له وقع سيئ عليه حقاً. بعد أن يتناول وجبته ويذهب إلى المغاسل، كان يرتاح لفترة طويلة. فهو بحاجة إلى ذلك، لأن هذه الأشياء التافهة في الحياة تتطلب منه جهداً كبيراً.


Telegram: SOMRLIBRARY

وبينما كانوا يجلسونه لقضاء فترة القيلولة، تذكر نقاشاً مع ابنه البكر حدث منذ زمن ليس ببعيد. «أين تريد أن تُدفن يا أبي، في المغرب أم في فرنسا؟ هل ترغب أن تكفَّن بالأبيض أو أن توضع في نعش مرتدياً بزة سوداء جميلة؟ هل تودّ أن يأتي الناس لرؤية ضريحك أم أن الأمر سيان بالنسبة إليك؟ على أية حال، لن تعرف شيئاً عن ذلك، وأن يأتي الناس أو لا يأتون، فهذا سواء بالنسبة إليك، أليس كذلك؟ لا أحبذ أن يحرقوك، رأيت ذلك في الأفلام، وهو أمر مخيف. على كل حال، أعتقد أن الإسلام يحرِّم ذلك، أم لا؟ حسن، أنا أطرح عليك الكثير من الأسئلة، لكن كما تعرف أريدك أن تعيش زمناً طويلاً، زمناً طويلاً جداً، لأنني أحبك حباً جماً، لكن أجبني بشأن البلد والكفن من فضلك؟».

يجيبه: «بني، فكرت بكل شيء؛ البلد هو المغرب؛ والكفن أبيض. لا أريد بزة سوداء! ما يؤسفني هو حالة القذارة في مقابرنا؛ أنت رأيت عندما نذهب لزيارة ضريحَي جديك، نشعر بالقرف من انعدام النظافة. توجد في كل مكان القوارير والأكياس البلاستيكية والقطط الميتة وروث الكلاب الضالة، والمتسولون والمشعوذون، باختصار... الأموات لا يُحترمون في رقادهم الأبدي. ستقول لي إنهم ليسوا بحاجة إلى ذلك، أنت محق، لكن يجب احترامهم، إنها مسألة مبدأ. على أية حال، المهم يا بني هو أن نتذكر أولئك الذين لم يعودوا موجودين في هذا العالم؛ وما دمنا نتذكر إنساناً، فهو ليس ميتاً، إنه يعيش في أذهاننا وذاكرتنا، في حين أن تأتي إلى ضريحي أو لا تأتي، هذا لا يهم، لكن الخطير هو أن تنساني تماماً. وفي غضون ذلك، لتحيا الحياة!» وهو يتذكر هذه الكلمات، نام الرسام وهو في وفاق مع نفسه.


Telegram: SOMRLIBRARY

# الفصل السابع

## باريس، آب/ أغسطس 1992

«لم أعد الآن ذلك الشخص الذي دخل. ما أسرع انقضاء الزمن! لم أعد أحب الزنبق. والأزهار التي سأقدمها لكم في الوقت الحاضر هي البنفسج ذو اللون الجنائزي. وذات يوم سأحب كثيراً شقائق النعمان».

**عائد**، كريستيان-جاك

مضى عام ونصف على هذه الرحلة إلى المغرب حيث انتهت شجاراتهما فجأة. واستمر وفاقهما بعد العودة إلى باريس. نجح في الرسم وفي الاهتمام بالأطفال وفي قضاء بعض اللحظات معها. جعلهما هذا الهروب يستعيدان التوازن وبدأت شجاراتهما تشبه حلماً سيئاً. وبفضل الرحلات التي كان يقوم بها لعرض أعماله، صار الرسام يهرب من حين لآخر وهذا ما ساهم في استعادة تفاهمهما. لم تضمر له قط أية ضغينة، واستمتعت بالبقاء لوحدها إلى جانبه بعض الوقت.

ذات يوم، تلقى الرسام دعوة لحضور ملتقى فناني بلدان الجنوب الذي سيُعقد في الصين. كان يحلم منذ زمن طويل بهذا البلد الذي لا يعرف عنه أي شيء خاص، لكنه يُسحره ويثير



Telegram: SOMRLIBRARY

اهتمامه. كان سعيداً واستعدّ لهذه الرحلة بحماسة صبي. كان ذلك في شهر آب/ أغسطس. عندما وطئت قدمه أرض مطار بكين، اكتشف سماء بيضاء كلوحة أحادية اللون، لكنه بياض فيه شيء ما بليد وكئيب. بحث فيها عن غيوم أو ثقب أزرق دون جدوى. كانت سماء الصين مختلفة عن جميع السماوات. شعر على الفور بصداع في رأسه. عزا الأمر إلى المكيِّف والرطوبة المحيطة، لكن ألم الرأس لم يغادره رغم جميع المسكِّنات التي تناولها والتي كانت تهدِّئه بالعادة. رافقه الألم ليلاً نهاراً ولم يشعر بنفسه على ما يرام في أية لحظة. بدا له كل شيء غريباً. ولم يفهم أي شيء ممّا يحدث. حضر حفل استقبال في السفارة المغربية والتقى بعض الوجوه المعروفة وخاصة رفيق دراسته الثانوية الذي أصبح ملحقاً تجارياً. «قال له: لا تحاول البحث عن مؤشرات، هنا كل شيء مختلف، وعلى أية حال من الصعب جداً الخروج عن الكادر الإداري للسفارات، فكل شيء مراقب» ومع ذلك، قَبِلَ دعوة المستشار الثقافي الفرنسي الذي يعرف عمله حق المعرفة؛ اصطحبه إلى مطعم شعبي تُحضِّر الطعام فيه أسرة. استطاع الرسام على أية حال أن يدرك أنه كان يأكل الطعام الصيني في باريس أفضل ممّا في بكين. وفي الليل، شعر بتوعّك، وبدوار في رأسه، وبغبش في الرؤية، وألم في الخاصرتين. ظنّ أنه أصيب بنزلة برد. ولم يعُد يرغب بالبقاء في بلد كل شيء فيه سرّي ومنظم وموجّه. كان من المستحيل أن يلتقي رساماً صينياً عجوزاً نصحه صديق إسباني بزيارته. في الصين، العنوان وحده لا يكفي ظاهرياً. وعدل عن البحث للقاء هذا الرجل. قيل له: «آه، أنت أيضاً تريد رؤيته، كل الناس يريدون رؤيته، لكن للأسف لا أحد يعرف أين يعيش... ألا يوجد سواه في هذا البلد،


Telegram: SOMRLIBRARY

يمكن أن تُنظم لك زيارة لأفضل الرسامين في الصين إن أردت، أناس لم يقدّرهم الغرب بعد، لكن موهبتهم معترف بها!».

كان مريضاً، لكنه فكّر أنه يكفيه مغادرة هذا البلد ليشفى. وبعد أسبوع، نجح في تغيير بطاقة العودة ووصل إلى باريس في حالة سيئة. آلام مبرحة ومتواصلة كانت تكتسح صدره ورئتيه. دخل إلى قسم أمراض الرئة في مشفى كوشان الذي جرّعه مضادات حيوية قوية. ولم يحدث أي تحسُّن. وحتى على العكس من ذلك تفاقمت حالته - فقبلوه في قسم الحالات المستعجلة لأنه كان يختنق. واجه الموت، لم يكن له وجه وإنما رائحة قوية هي مزيج من ماء جافيل والأثير وأبخرة الطبخ. كان الموت يجتاز أروقة عديدة قبل أن يصل إلى هدفه. وضعوا له منفسة الأكسجين وأبقوه لساعات في قاعة انتظار الحالات المستعجلة لأنه لا يوجد سرير في القسم المتخصِّص. وعندما حلّ الليل، نقلوه إلى جناح الأمراض الاستوائية حيث يوجد مكان شاغر. كان هذا من حسن حظه. سأله بالمصادفة طبيب شاب: «هل كنت في آسيا مؤخراً؟» فأومأ برأسه إيجاباً. بدا له فجأة أن الروائح الجنائزية تتبدد وأن شبح الموت يبتعد. قال له الطبيب بهيئة غامضة: «هل أكلت قشريات نيئة؟». تذكَّر أنه لمح قريدس في السلطة التي تناولها في المطعم العائلي الصغير. «أنت مصاب بجرثومة طفيلية لا تعيش إلا في آسيا، ولا تعدي إلا القشريات وتهاجم الرئتين. أعتقد أنك مصاب بداء الثقوب الرئوية، أو الباراغونيموز، المشتق من اسم الجرثومة الطفيلية باراغونيموس ميازاكي» وأعطاه على الفور قرصين مضغوطين ليبتلعهما. وأوضح له: «إن لم تفلح في النوم، سأعطيك أقراصاً منومة ومهدئات» ثم اختفى الطبيب. أمضى الرسام واحدة من أكثر



Telegram: SOMRLIBRARY

الليالي رعباً في حياته. كان الفراش مغلفاً بالبلاستيك وفوقه وُضِعت أغطية خشنة. كان ينضح بحرارة لا تُحتمل. وكان ذلك يعذبه، لكنه لا يستطيع تغيير السرير. وحين يجلس، عليه أن يقوم بذلك بمنتهى الحرص لأنه قد يخلع أنابيب الأكسجين التي يتنفس بواسطتها. تَوَلَّد لديه إحساس أنه يخترق ناراً وأن بشرته تحترق وأن شعره يتساقط. رأى من جديد نهايته وأدرك لماذا يقال إن الموت هو المرض، لأن الموت ليس شيئاً، وما يسبقه هو الأسوأ. تذكر ما كانت أمه تقوله عندما تقضي ليلة سيئة: «هذه الليلة هي واحدة من الليالي التي سأحكي عنها لحفار قبري» كان يضحك لأنه وهو طفل لم يكن يفهم كيف يمكن لميت أن يتحدث ثانية وخاصة إلى حفار قبره. ثم ما عساها تقول له؟ أنها نامت نوماً سيئاً، وأنها قلقت، وأن عرقاً بارداً تصبب منها، وأن شعوراً بالموت الداهم راودها مصحوباً بآلام ووساوس؟

وهو غير قادر على النوم بحقّ، ولا على تسكين ألمه، دَوَّنَ انطباعاته في المفكرة التي يستخدمها عادة لتخطيط رسومه. بين اليقظة والنوم، بدا أن صوتاً يملي عليه هذه الكلمات:

ليلة 27–28 أيلول. حرارة ملتهبة تحرق بشرتي المتألمة، لا تطاق أكثر من العدوى. محنة مديدة؛ هذا الليل يشبه قاعة انتظار في قبو يُعَذَّبُ فيه المرء. أتعرق، أختنق، أفتح النافذة، أخاف أن تصيبني نزلة برد. أنتظر الصباح أمام أريكة بلاستيكية ذات قبح خاص. يجب استثناء المرضى الذين يمضون النهار كله ممدّدين على السرير من النوم ليلاً. ولا بد من تخصيص أنشطة لهم، ألعاب،



Telegram: SOMRLIBRARY

وجلب صناع الرسوم المتحركة والممثلين الإيمائيين والمهرجين، كأنهم أطفال.

السرير الجهنمي الذي جربت فيه كل الوضعيات يطلق موجات ملتهبة تتحول إلى كوابيس حين يستسلم جسدي للإرهاق: خَرَّبَ أطفال منزلنا وسكبوا سطول الألوان في كل مكان، فوق الأثاث والسرير وفي المكتبة. أرى شخصاً جاثياً جانباً يقطع الإسفنج الأصفر والأخضر والأحمر. وفي تلك الأثناء، يتخبط الأطفال في مستنقعات الألوان ويتجاهلون وجودي. ودون أن أرى وجه الرجل الجاثي، أشرع في ضربه بقوة إلى حدّ أنني أستيقظ متعرقاً ومرتعشاً. أقفز من السرير وأوشك على السقوط. لم أعد أطيق ملامسة مادته المؤذية.

أجلس على الأريكة التي غطيتها بملابسي حتى لا ألامس البلاستيك. أغفو وأحلم من جديد. إنني في الدار البيضاء، في فندق رياض سلام. أستقل تاكسي والسائق يقود بسرعة ويسخر من ارتطامي بالزجاج مع كل انعطافة. إنه مستعجل على نحو خاص، ولا يصغي إلي، ولا يلتفت، وعليه أن يقودني إلى هناك حيث قيل له أن يضعني. الأبواب مقفلة. نصل إلى مدينة الدار البيضاء ويرميني السائق في ساحة يبدو أن شباناً ينتظرونني فيها. الأول الذي نظر إليّ كان أصلعاً ودون أسنان. يحدق فيّ طويلاً وأسمع: انتهى أمرك، ستعاقب! يغادر ويتركني بين أيدي الشباب الآخرين الأكثر عدوانية. لا أعرف أحداً في هذه المجموعة. يقول لي شاب يرتدي كنزة كستنائية: لماذا لا تكتب باللغة العربية؟ ستدفع الثمن. فأقول له: لكنني لست كاتباً، أنا رسام، أنتم مخطئون. بيْد أن أحداً لا


Telegram: SOMRLIBRARY

يصدقني. اسمع: نحن نعرفك، شاهدناك على التلفاز، وأنت تحدِّثنا بالفرنسية. أحاول أن أفاوض وأدافع عن قضية أولئك الذين يكتبون بالفرنسية حتى لو لم أكن كاتباً، لكنني أشعر بحقدهم. يريدون دعوى مع حُكمٍ وتنفيذ في الحال. أشعر أنني ضعت. أقول لهم: جئت إلى الدار البيضاء لإقامة معرض للوحاتي. يضحكون؛ يصرخون: يريد أن يفلت منا، يدّعي أنه رسام حتى لا يحاكم؛ الأمر سهل، لأن الرسم ليس عربياً ولا فرنسياً... في تلك اللحظة يصل رجل ذو شعر أشيب. يبدو لي أنني أعرفه. يقترح تأجيل الدعوى إلى ما بعد الاستجواب. لقد أَفلتُّ من اللنشية(*)... الرجل لا يكلمني، يشيح بوجهه عني ويتركني في ركن حيث يُجهِّز أطفالٌ طاولة وكراسي وأدوات تعذيب...

استيقظ الرسام في الساعة الخامسة ولعن السرير الجهنمي الذي نام فيه.

أقبل النهار، وانتزع أنابيب الأكسجين، وأطلق ماء الدوش وراَه ينساب على جسده الذي اصطبغ بألوان رمادية وسوداء. لم يعُد يحلم، لكنه صار يُعاني الآن من الهلوسات.

هذه الإقامة في المشفى وإحساسه بأنه حاذى الموت من كثب جعلا الرسام أكثر هدوءً على نحوٍ غريب.

---

(*) اللنشية: نسبة إلى لانش وهو قاض أميركي يُنسب إليه قانون الإعدام بلا محاكمة.



Telegram: SOMRLIBRARY

أضعفه المرض كثيراً، وتأخرت آثار الجرثومة الطفيلية حتى اختفت تماماً. مع ذلك كان الرسام يخرج ويتصرف كما لو أنه لم يعُد مريضاً. واظب على الذهاب مشياً إلى محترفه الذي يقع في الدائرة الرابعة عشرة، البعيدة للغاية عن مسكنه. كان لديه طلب من بلدية برشلونة بمناسبة الذكرى السنوية لإعلان حقوق الإنسان، لم يفلح في تلبيته. وذات صباح شعر بالتعب أكثر من باقي الأيام، فقادته زوجته إلى محترفه بالسيارة. وأثناء المسير، سألها بصوت لطيف إنْ كان بمقدورها أن تأتي إليه نحو الساعة الخامسة. وبخلاف أي توقّع، انفجرت بالصراخ: «أنا لست سائقك، ولا سيارة أجرة عندك. أنت تعرف، حسبي أنني أقوم بدور الممرضة منذ شهر. من تخال نفسك؟ مركز الكون؟ يكفيك ما استفدته من حالتك، لذلك لا تعتمد علي بعد الآن».

كانا في شارع أليزيا. خرج عن طوره وردّ عليها: «ما دام الأمر على هذا النحو، سأتابع مشياً». فرملت السيارة بعنف وفتحت الباب. نزل وذهب إلى محترفه وحيداً.

قلب هذا الحادث حياتهما الزوجية رأساً على عقب. تتالت الخصامات بأشكال مختلفة. كان يتحمل قسطاً من المسؤولية في هذا التدهور. ضعفه وسذاجته وأوهامه، وأمله الأبدي بأنها ستتغير ذات يوم. وحتى يتجنّب الشجارات، بدأ يهرب ويقيم سراً علاقات مع نساء ودودات، نساء معجبات به كفنان وكرجل. وجد قربهن العزاء ورفاهية العيش التي يحتاجها. ساعدته هذه العلاقات السرية على الاحتفاظ بتوازنه وعلى عدم مغادرة المنزل بفظاظة. كان الأطفال سعداء، يحبّونه ويلاطفونه. أصبحت سعادته بعد الآن مصنوعة من


Telegram: SOMRLIBRARY

لحظات متعدِّدة، لكنها ليست في المكان ذاته ولا تحمل الأمل نفسه، وليس لها طابع الاستمرارية. فكَّر في ترقيع كلّ هذا وأن يعيش حيوات مزدوجة عديدة دون أن يعرض هذا التوازن الشهير للخطر.

لكن الأمور ساءت بينهما إلى حدّ أنه أقنعها بالذهاب لاستشارة طبيب نفسي في الشؤون الزوجية. انتقدته بشدّة قبيل الموعد: «لست مجنونة، وإذا قبلت أن أرافقك، فذلك لكي أبرهن لطبيبك مقدار جنونك وانحرافك وفظاعتك». وفي قاعة الانتظار، رمقته بنظرات مليئة بالضغينة.

ضبط الطبيب النفسي الأمور قبل أن يبدأ وشرح مجرى الجلسة. لم تكن بحاجة إلى ذلك. وراحت تروي بالتفصيل أمام هذا الغريب الفظاعات عن حياتهما، مُقَارِنَة الرسام بآية الله الذي يريد أن يحبس زوجته ويمنعها عن الحياة، منفقاً نقود أبنائه على أخوته وأخواته، ممضياً جلّ وقته في السفر، زوجٌ شبحٌ حقيقي... «غير موجود ببساطة دوماً! ومع الأطفال، أنا مضطرّة للقيام بالدورين، دور الأب ودور الأم. أبذل ما بوسعي حتى يظلون يحبونه، مع أنه أهملهم تماماً، أمّا هو فلا يبذل أيّ جهد؛ ويتذرع بأن عليه العمل في محترفه، وأن لديه معارض، ولا نراه البتة. وعندما يأتي مصادفة، يكون مزاجه سيئاً دوماً ويصرخ ويجأر ويضرب الأطفال!».

أما هو فقال حقيقته التي كانت أبسط: «منذ بعض الوقت لم يعُد لدينا التصوّر ذاته عن الحياة الزوجية، ولا الفلسفة ذاتها عن التربية؛ وصارت أسرتها تشغل حيزاً كبيراً في خياراتها ولا يسعني أن أعترض. ما قالته لك لا يطابق الواقع. إنني آسف، فهي لا تحترم القواعد، وترفض أن تضع نفسها موضع نقاش، في حين أنني جئت


Telegram: SOMRLIBRARY

لأنني أضع نفسي موضع شك ولأنني وددتُ لو نباشر جلسات علاج نفسي للأزواج».

ألغت الجلسة التالية ولامته لأنه اقتنص الفرصة ليذمّ أسرتها، وهو ما لم تحتمله.

عاد وحده بعد شهر لرؤية الطبيب النفسي. كان رجلاً طيباً بديناً، ذا سحنة كامدة، ويضع نظارة طبية ذات إطار أحمر، وعلى كتفيه تناثرت القشرة المتساقطة من شعره الكثّ. نظر إليه بهيئة واثقة كأنه يقول: «كنت أعرف أنك ستأتي». ترك الرسام يتحدث لبرهة ثم قاطعه:

- سأثق بك، وهذا أمر نادر وغير مهني البتة. ليس اسمي جان كريستوف أرماند. أنا أيضاً مغربي مثلك ومثل زوجتك. اسمي عبد الحق لامراتي وولدت في الدار البيضاء. درست الطب في الرباط وتخصصت في باريس. تمنيت أن أمارس مهنتي في بلدي، في المغرب، لكن هناك الكثير من سوء الفهم حول تخصصي. يعتبر الكثير من الناس أن أولئك الذين يأتون إلى الطبيب النفسي هم مجانين، لكن لنعُد إلى حالتك. لم تأتِ زوجتك لتغيير الأمور، إنما جاءت لأنها تعتقد أنك مضطرب وأنها في صحة عقلية جيدة. إنها مخطئة ولا يسعني أن أساعد أناساً ليس لديهم استعداد. ولهذا السبب، العلاج النفسي للأزواج غير مطروح في الوقت الحالي. إذاً، بماذا أنصحكم؟ بالانفصال؟ بالطلاق؟ بالاستسلام؟ بالفرار؟ أنتما من يقرِّر ذلك. ولا أحد سواكما يقرر ذلك. وستظل المشكلة موجودة دوماً. لا أحد يتغير حقاً. لستُ أنا مَن يقول ذلك، إنهم القدماء. حظاً موفقاً.


Telegram: SOMRLIBRARY

# الفصل الثامن

## مراكش، 3 نيسان/ أبريل 1993

ثلاثة برجوازيين يروون هذياناتهم فيما بينهم:
«رفعتُ الغطاء وشاهدتُ هوة سحيقة ومياه
سيل صافية.
– قبل أن أجلس مر عقاب من تحتي!
– قذفتني الريح بأوراق ميتة اخترقت وجهي»

**الملاك المدمر**، لويس بونويل

أمل الرسام دوماً أن يكرر رحلة دولاكروا إلى المغرب. كان الربيع يبسط ضياءه البهي على البلد عندما قرَّر أن يحجز تذكرة طائرة إلى مراكش. حمل معه، كما في أيام شبابه، بضع مفكرات وأقلام رصاص وريش تلوين ودون أية حقيبة. نزل في فندق صغير غير بعيد عن ساحة جامع الفنا وهَاتَفَ أحد أصدقائه الكتاب الذي يعيش في المدينة. فدعاه على الفور لزيارته. قدّمه الكاتب إلى امرأتين مثقفتين، هما أيضاً عابرتان. إحداهن تناهز الخمسين، ناحلة وجافة وتدخّن كثيراً. الأخرى كانت فتية على نحوٍ واضح، وفوق ذلك جميلة وممتلئة. كانت قليلة الكلام، لكن الأخرى تتحدث بدلاً عنها. الأولى تُدعى ماريا والثانية أنجيلا. والفرق بين عمريهما يبلغ



Telegram: SOMRLIBRARY

على الأقل ثلاثين عاماً. كانت ماريا تعمل في شركة متعددة الجنسيات وتسافر طوال الوقت. وسرعان ما شعر الرسام بمتعة غامرة في النقاش معها، خاصة وأنها تعرف المغرب حق المعرفة. عندما افترقوا، تواعدوا على اللقاء في اليوم التالي في الفندق الذي تقيمان فيه. وحرصتا على تقديم كتاب له من تأليفهما عنوانه «**أصول الفن الهندي في أميركا اللاتينية**» سيُعجبه بالتأكيد. كانت ماريا أرجنتينية وأنجيلا من كاتلان ومقيمة في غواتيمالا.

في الفندق، طلب أن يتحدث مع أنجيلا، لكن ماريا هي مَن أجابت. شكرها على الكتاب واقترح عليهما أن يقودهما إلى قرية في الجنوب لا تعرفانها وستُعجبهما بالتأكيد، لكن كان يترتب عليهما أن تستقلان الطائرة في اليوم التالي. تبادلوا العناوين وتواعدوا على اللقاء في المرة القادمة عندما تمران بباريس.

في المساء حاول مرة أخرى أن يتحدث إلى أنجيلا التي ردَّت باختصار، وهي متضايقة ظاهرياً، على مكالمته الهاتفية. اختصر المكالمة وندم على تصرّفه. وبعد عشر دقائق، اتصلت بدورها: «إنني في الطريق ويمكنني التحدُّث بحرية. سنتراسل بمجرد وصولي إلى بلدي، هل أنت موافق؟ أعرف الفرنسية، لكنني أتكلمها بشكل سيئ» وأجاب: «أمّا أنا فأكتب الإسبانية بشكل سيئ، لكنني أحاول أن أتحدث بها».

لم تخُنه غريزته. كان شيء ما ممكناً بينهما. مغازلة، مغامرة، حكاية عادية، ما أدراه... كان يشعر بنفسه مستعداً ومنفتحاً على جميع الاقتراحات، حتى أكثرها شذوذاً. كان يسعى للتحرر من سطوة زوجته التي لم تعُد تربطه علاقة بها منذ أشهر عديدة. في تصوّره أنه رحل، إلا أن كل شيء استمر في الواقع كما في السابق.



Telegram: SOMRLIBRARY

استأجر سيارة وتخلى عن فكرته في اقتفاء أثر دولاكروا واتجه إلى مسقط رأس زوجته في القرية. كان قد احتفظ بغرفته في الفندق في مراكش تحسباً لاحتمال أن يغير رأيه من جديد. كان يحتفظ بأسوأ وأفضل الذكريات عن هذه البلدة الصغيرة النائية.

ضلّ الطريق مرات عديدة قبل أن يجد الشاخصة التي تشير إلى «خميسة». سميت القرية بهذا الاسم لأنه لم يكن يوجد فيها سوى خمس شجرات وخمسة مساجد لنحو خمسة آلاف نسمة يقطنونها.

عند مدخل القرية، استقبله حشد من الأطفال الفرحين وهم يصيحون. كانوا يقولون: «مسيو، مسيو» وهم يدورون حوله. بعضهم حفاة وبعضهم الآخر بعيون مشوّهة. أجابهم بالعربية - فسخروا على الفور من لهجته الشمالية، لكنه كان قد فكّر فيهم. فأخرج من محفظته دفاتر وأقلام تلوين وعلباً من اللباد الفوسفوري. وزّعها وطلب منهم أن يطلعوه على رسوماتهم في اليوم التالي.

استقبله أعمام وأخوال زوجته، بخجل كبير. ولم يدّخروا جهداً لإرضائه. كان قد تذكّر زيارته الأخيرة مع زوجته، فتزوّد بمؤونة من الأدوية في مراكش وقدّمها لهم.

شكروه وسألوه عن أخبار زوجته. أكّد لهم الرسام أنّ كل شيء على ما يرام، وأنها تهتم بالأطفال والمنزل، وأنهم سعداء... كانت المرة الأولى التي يأتي فيها لوحده. راوده انطباع بأنه سيترتب عليه القيام بهذه الرحلة مراراً، لأن الأمور بدت له مختلفة. اكتشف أناساً متواضعين ولطيفين وكرماء، بقلب كبير. شرح لهم أنه مجرد مسافر عابر، وأنه يريد الذهاب إلى الجبل لالتقاط صور وليرسم. اقترح عليه أحدهم على الفور أن يرافقه ويحمل له أمتعته. كان شاباً ذا


Telegram: SOMRLIBRARY

عينين حيويتين، يتحدث الفرنسية قليلاً، لكنه لا يعرف أية كلمة عربية. عمره أقل من عشرين عاماً ويُدعى بريك.

خلال صعودهما، لم يكفّ عن طرح الأسئلة حول كليرمافيران. واستغرق الرسام وقتاً ليفهم أن المقصود هو كليرمون - فيراند. إنه أمر غريب أن تسمع، هنا في أعالي الجبال، اسم هذه المدينة يتردد بلا فائدة. كانت السماء زرقاء صافية، والرؤية رائعة، والأفق لامتناهٍ تقريباً. كان بريك قد أرشد زوجين فرنسيين زارا المنطقة قبل عامين. وكانا يعيشان في كليرمون - فيراند ووعداه أن يبذلا جهدهما ليحصلا له على تأشيرة تخوِّله العمل في منزلهما والاهتمام بالحديقة.

وفيما كان الرسام ينجز رسوماً تخطيطية على دفتره الكبير، قال له بريك فجأة:

- أتعلم، اقترحت ابنة عمي، زوجتك، أن تأخذني هي أيضاً إلى فرنسا. أعطيتها صورة عن هويتي وجواز سفري وأوراقاً أخرى. قالت إنه يمكنني الذهاب قريباً. لهذا السبب أريد أن أعرف كل شيء عن كليرمافيران، هل تسكن فيها؟

- لا، نحن نسكن في باريس في الدائرة الثالثة عشرة. الوضع هناك مختلف عن هنا.

- قالت لي إنه لديكم منزل كبير وأنني سأعتني بالحديقة.

- آه، حسن!

- أجل، سأكون عامل حديقتكم.

- لكن هل أنت عامل حديقة؟

- لا، لكن الزوجين من كليرمافيران سألاني السؤال ذاته. يجب أن أتأقلم مع هذه المهمة. أعرف كيف أقتلع الأعشاب الضارة وكيف أعزق التربة وأسقي...



Telegram: SOMRLIBRARY

- لكنك تزوجت مؤخراً، هل ستترك زوجتك وتذهب للغربة؟
- لا، قالت لي ابنة عمي إن زوجتي ستعمل في منزلكم، ستتكفل أيضاً بجواز سفرها وتأشيرتها.

هذا في الواقع ما حدث تقريباً بعد بضعة أشهر. حين عاد إلى باريس بعد افتتاح معرض في ألمانيا، فوجئ الرسام باكتشافه امرأة شابة تقيم في إحدى غرف الأطفال. كانت خجولة ولا تنطق بأية كلمة لا بالفرنسية ولا العربية. عندما سأل زوجته لماذا لم تحدِّثه من قبل عن هذا الأمر ولم تسأله عن رأيه، أجابته بطريقة عدوانية:
- أعرف ما أفعله. هذه الفتاة، متزوجة صغيرة السن، جئت بها إلى هنا لتذهب إلى المدرسة وتساعدني في الوقت ذاته على الاعتناء بالأطفال. أنت غير موجود دوماً، ولا تعرف ما يحدث في المنزل أثناء غيابك، ولا حجم الأعباء. أنت تبحث عن ذريعة لإزعاجي، أليس كذلك؟ ابحث عن شيء آخر...
- لكنك تضعيني أمام الأمر الواقع!
- أنت نفسك هو الأمر الواقع!
سكت. رأى في اليوم ذاته فداحة الضرر. كانت الفلاحة المسكينة ضائعة تماماً. في المرحاض بجانب الغرفة التي تشغلها، وجد مناديل المراحيض المتَّسخة ملقاة على الأرض. كانت فتحة المرحاض ملطخة بالبراز، لأنها اضطرت للصعود فوق فتحته، دون أن تعرف كيف يجلسون عليه. لم يقل شيئاً لزوجته، مفضلاً أن تكتشف الأمر بنفسها. ألقى نظرة على الغرفة. كانت قد استخدمت السرير لوضع أمتعتها. ونامت في الليل على فراش ممدودة على الأرض. وفي صباح اليوم التالي وجدها متكورة وحمراء تماماً.


Telegram: SOMRLIBRARY

كانت قد ظنَّت أن عبوة الخردل هي مربى فتناولت ملعقة كاملة منه. وفي المطبخ التقط سدادة معدنية لزجاجة كولا مليئة بالثقوب. لا بد أنها حاولت فتحها بأسنانها... وفي المساء، سمعها تنتحب في غرفتها.

بعد شهر عادت إلى قريتها. شعر الرسام بالارتياح. لكن بعد أسبوعين حلَّت مكانها شابة أخرى. كانت الفتاة حصلت للتو على الشهادة الثانوية وبدأت بدراسة البيولوجيا. لم تخبره زوجته بقدومها. ولم يكن أي نقاش أو احتجاج مفيداً. طرح سؤالاً واحداً فقط على زوجته: «وعامل الحديقة؟ متى سيصل؟» فلم يحصل على إجابة.

من قمة الجبل، كانت تبدو قرية خمسة بقعة حمراء وجافة. ليس ثمة واحة على أطرافها، ولا أثر للخضرة في محيطها، ولا وجود لأي دغلة. قال الرسام في سرّه إنها قرية ملعونة، لا شيء فيها سوى الأحجار والأشواك. أما بريك فكان بليغاً في حديثه عن مسقط رأسه وأكّد: «الله نسينا. وليس لدينا شيء: القليل من الماء، وبلا كهرباء، وبلا مدرسة، ولا طبيب، لا شيء، لا شيء ينمو فيها، لكن لدينا مستعمرة قطط وكلاب جياع مثلنا. يأتون إلى هنا لأنّ الناس تدعهم ينبشون في كل مكان. لذلك، كما تعرف يا أخي، كليرمافيران أفضل! عندما ظنّ أنه أنجز ما يكفي من المخططات والصور، عاد هو وبريك إلى القرية. كان ينتظره عشاء فاخر. كان طاجين لحم الغنم بالزيتون دسماً جداً. لم يستطِع أكله فابتلع بضع لقمات وسكب كسكساً دسماً كالطاجين. كان خجلاً لأنه لم يأكل بشهية هذه الأطباق التي أمضت النساء نهاراً كاملاً في تحضيرها. ولحسن الحظ، أكل المدعوون الآخرون كل شيء. نام في غرفة


Telegram: SOMRLIBRARY

تستخدم للصلاة. منعته الحرقة والحموضة في المعدة من إغماض عينيه. خرج في الصباح الباكر من المنزل واكتشف ضياءً عذباً وبالغ الرقة. التقط سلسلة صور على سبيل الذكرى. وعند عودته إلى باريس، عمل فوراً على كل ما رآه وما ولَّد فيه انطباعاً خلال هذه الرحلة.

فاجأته زوجته في محترفه وتعرَّفت على قريتها. لم تكن اللوحتان مكتملتين. نظرت إليهما وقالت وهي تغادر:

- سيكون ثمن مبيع هذه اللوحات لقرية خمسة. لا يحقّ لك أن تستغل هؤلاء الناس المساكين.

إنهم لايعرفون أنك تثرى من بؤسهم، مثل صديقك المصوّر الذي يصوِّر عمال المناجم ثم يقيم معارض يجني فيها الكثير من النقود. يجب منع هذا.

أجاب دون أن يعرف إن كانت سمعته:

- إنها ليست للبيع.


Telegram: SOMRLIBRARY

# الفصل التاسع

## الدار البيضاء، 1995

«البعض يقولون إنه يمكن معرفة ما ستؤول إليه روح الميت من اللون الذي يصطبغ به شعره»

**نهر الموت**، لويس بونويل

ذات يوم، وبعد أن باتا يعيشان منذ عامين في منزل جميل بالدار البيضاء، قالت له زوجته بنبرة مختصرة: «أعرف أنك تخونني، وأعرف حتى مَن هي».

بدأت مرحلة الشكّ. ولن تتوقف أبداً. راحت تراقبه وترتاب بكلّ ما يقوله وتشتبه بأي امرأة في محيطه. لم يكن لغيرتها حد. هكذا، وبينما كان يتأهب للانضمام إلى الرسام أنسيلم كييغر في برلين من أجل حوار حول «الفن والكتابة»، أخبرته أنّ رحلته ألغيت.

- لكن كيف أمكن ذلك؟ سألها. من فعل هذا؟

- أنا، من تريد أن يكون غيري؟ اتصلتْ فتاة لتسأل عن موعد وصول طائرتك إلى برلين، إنها مغربية، تدعى أسماء... شعرتُ من صوتها أنها عاهرة، لذلك قلت لها إن زوجي ليس مهتماً بهذه الندوة المزعومة وأنه سيبقى مع زوجته، ثم أقفلتُ السماعة.

هذه القصة جعلت الرسام غاضباً تماماً. حاول تدارك الإلغاء،



Telegram: SOMRLIBRARY

لكنه تأخر كثيراً، فقد مزقت الدعوات الخاصة بالندوة، ولم يعُد لديه أسماء المنظمين. كان خجلاً من الوضع واكتشف مقدار ما يمكن لزوجته أن تشكِّل من خطر عليه. حاول أيضاً الاتصال بأحد أصدقائه في برلين، لكن أحداً لم يجب. جاء عشية يوم الندوة. ولم يفلح في تهدئة غضبه. في تلك الليلة، نام في الصالون وقرر أن يسافر لرؤية أمه المريضة.

في صبيحة اليوم التالي، لم يكن قد استعاد هدوءه بعد، أسرع بالابتعاد عن المنزل. ولأن إلغاء الندوة جرحه، راح يجترّ أفكاره على طريق فاس، هناك حيث تعيش أمه. أعاد التفكير في عشاءٍ حديث العهد مع أصدقائه في مطعم فندق ميراج قرب طنجة. أخذت زوجته تروي أشياء مرعبة عن صديق مشترك. وراحت تختلق وتقول أي شيء وتتهم ذلك الشخص بأنه كاد يُغرق أطفالهما، ثم غَيَّرت مجرى حديثها وخاطبت زوجها: «أنتَ لست رجلاً، وأيضاً أقلّ من زوج! لو كنت رجلاً، لقاطعت هذا الصديق المدَّعي الذي كاد يميت أحد أبنائك!» عندها لم يعُد الرسام قادراً على التحمُّل، وفقد القدرة على ضبط أعصابه، فرشق كأسَ ماء في وجه زوجته. ردَّتْ هي على الفور ورشقته بقدح النبيذ. لم تعُد عيناه تبصران، ووجد نفسه في الظلام لبضع ثوان. تابع جميع الناس في المطعم المشهد. زوجان من أصدقائهما حاولا تهدئة الأمور، لكن العنف الذي حدث للتو آلمه كثيراً، وندم على فقدانه لرباطة جأشه. لن ينساق أبداً بعد الآن لمثل هذا التصرف. غادر، وعيناه تطفران بالدموع، مع صديقه ليتمشيا على طول الشاطئ. «قال له صديقه: عندما يستقر العنف في علاقة زوجية، لا تعود الحياة المشتركة ممكنة؛ وكل ما يتبقى ليس


Telegram: SOMRLIBRARY

سوى ترقيع وكذب على الذات. لذلك الطلاق هو الحلّ الوحيد»
كانت المرة الأولى التي يتفوّه فيها شخص بكلمة الطلاق عن علاقتهما الزوجية.

حين سافرت زوجته ووجد نفسه مع الأطفال، أصبح منزلهما الكبير في الدار البيضاء هادئاً، وسارت الأمور دون منغصات، وحتى الخصومات العادية بين الأطفال أصبحت أقل توتراً. راقب الرسام المنزل بعين المتقصّي وقال في سرّه: حتى الجدران استراحت. خُيِّم عليه هدوء غير عادي لدرجة أن الرسام تمنى لو يمتدّ إلى ما بعد هذا الغياب، لكن ما العمل؟

عندما كان يعيش في باريس ويذهب إلى محترفه، كان يحدث له أن ينام فيه كأنه يشعر بالعاصفة التي تنتظره في منزله. كان يرجئ استحقاق ليلة، آملاً أن يخفِّف ذلك من الشتائم المتبادلة. وكانت زوجته تشكّ بوجوده وحيداً في المحترف، فتفاجئه بدخولها منتصف الليل ثم تغادر دون أن تنبس بكلمة. كانت قد اعتادت أن تسمي مكان عمله «محترفاً مزعوماً» أو على نحو مباشر أكثر «مبغى».

بالتأكيد كان يستقبل صديقاته هناك، مفضلاً فترة ما بعد الظهيرة. كان يعمل صباحاً ويحب بعد الغذاء أن يمضي فترة قيلولة. كانت إحدى صديقاته تعرف أفضل من أي شخص آخر المعنى الذي أعطاه لهذه الكلمة. إنها امرأة متزوجة، وأستاذة في الرياضيات التطبيقية. كانت تحب تلك اللحظات التي تلتقي فيها الفنان الذي أُعْجِبَتْ به قبل أن تتعرف عليه. كانت تجلب له هدايا، غالباً شاياً عطرياً، وتحبه كما تحب زوجها الذي أبرمت معه ميثاق حرية مسؤولة بلا كذب ولا خداع. لم يشعر الرسام أنه مذنب في أية


Telegram: SOMRLIBRARY

لحظة. لم يرتكب أي سوء، وبحث عن توازنه خارج علاقته الزوجية التي تخضع للتقلبات، بحسب الأحداث الأسرية وخاصة الأسفار. مع الأستاذة، كما كان يسميها، كان يقضي ساعات في النقاش والكلام وأحياناً المساررة. وحدث أيضاً أن تجامعا، لكن لم يكن هذا هو المهم. نجحا بعد سنوات في إقامة نوع من السلام الذي يحتاجانه كلاهما، وعلى الأخص هو. كان ثمة حنان وصداقة وأيضاً شبق. كانا يشربان الشاي ويتحدثان عن المعارض قيد الإعداد. كانت تعرفه حق المعرفة وتستبق رغباته. كانت تحب القراءة وتحكي له عمّا كان يثيرها في كتابة روائيي القرن الثامن عشر. كانت هذه الأستاذة ذات العينين الصافيتين والشعر الكستنائي تمتلك بشرة بيضاء مذهلة. حين تتعرى، كان يطلب منها أن تتجول في المحترف ليستمتع بجسدها ومشيتها. كانت ترجوه أن يبقى مرتدياً ملابسه، فتركع، وتلتقط بأسنانها فتحة بنطاله، وتندس فيها، وتستولي على قضيبه بعد ذلك وتداعبه طويلاً، تقبّله ولا تفلته إلا عندما تبتلع المني الذي يجعلها ترتعش بمجرد أن يلامس حلقها.

ورغم شكّ زوجته، قال الرسام في سرّه إنه أحسن صنعاً باتخاذه قراراً مفاجئاً بالفرار من باريس وجوِّها المكفهر للإقامة باستمرار في الدار البيضاء. أفعمه ضوء المدينة ولوحظ ذلك في طريقته الجديدة بالرسم. كان المكان الذي يسكنه في غاية الجمال. بناه زوجان إنجليزيان شاذان جنسياً في سنوات العشرينيات. كانت للمنزل حديقة جميلة ويطلّ على الميناء القديم ويكشف أفق البحر، لكن هذا المسكن الرائع كان يكتئب كلما نشب خصام بينه وبين زوجته.

كان يراود الرسام دوماً هاجسٌ وحدسٌ غريب بأنه سيكون



Telegram: SOMRLIBRARY

ضحية سكتة أو شيء من هذا القبيل. استشار صديقاً متخصصاً بأمراض القلب فأخبره بما ينبغي عليه تجنبه: الشِدَّة قبل كل شيء، والضيق والغضب المتكرر وردود الفعل العنيفة. «قال له: كن خبيثاً ولا مبالياً، ولا تستسلم للانزعاج والهيمنة، نحن في العمر ذاته يا عزيزي، لذلك أعرف عمّا أتحدث، اهرب، حين تشعر بالتوتر في منزلك، اذهب إلى محترفك، نحن بحاجة إليك باعتبارك صديقاً بالتأكيد، لكن أيضاً باعتبارك فناناً، فأنت معروف ومشهور ومحترم، وتمتلك الموهبة وعملك يفرضك بوضوح في كل مكان من العالم، لذلك لا تستسلم للقنوط... حسن، تخطيط القلب الكهربائي جيد، واختبار الجهد أيضاً، ضغطك مضطرب، سأهتم بذلك، مارس الرياضة واتبع حمية غذائية وعلى الأخص، على الأخص، تسلى!».

كان يعرف كل ذلك. ولم يقُم صديقه إلا بتأكيده. أخذ يعالج ضغطه ولم يعد يتناول الأطعمة الدسمة. ولم يعد يدخن إلا سيكاراً من وقت إلى آخر، وصار يمارس المشي بشكل يومي. منذ أن غادر باريس وحياتها المضطربة وعاد للعيش في المغرب، أصبح لديه الكثير من الوقت للاهتمام بصحّته. راح يذهب كل صباح للمشي مع صديق يسميه غوغل لأنه كان مثقفاً إلى حدّ أنه يكفي طرح سؤال حتى يقدم عرضاً ألمعياً طيلة النزهة على امتداد طريق عين دياب الساحلي. كان يجري تمرينات رياضية بينما صديقه يتكلم، وكان ذلك يستمر نحو ساعتين، ثم يغطس في البحر ويعود بعدها إلى الفيلا التي هيّأ فيها محترفه.

في الربيع، جاء صاحب معرض إسباني يتعامل معه لرؤيته وأصرَّ أن يكون مستعداً للمعرض الكبير الذي يُحَضِّر له في بداية العام


Telegram: SOMRLIBRARY

التالي. استقبل أيضاً ناقدين فنيين يؤلفان كتاباً عن عمله. لم يكن المُؤَلَّفَ الأول الذي يخصّص له، لكن هذا الكتاب هو الأهم، لأنه سيصدر في ثلاث لغات في فترة المعرض. إنه عمل ضخم، أبدى تواضعاً، لكنه كان في أعماقه فخوراً ومغروراً؛ فلم يُظهر شيئاً من ذلك وشعر بطاقة خاصة تولد فيه قادته لإنجاز سلسلة لوحات كان قد تخيَّلها ووضع مخططاتها. في هذه السلسلة، قرر أن يرسم أشجار حديقة منزله. كانت كل شجرة تشبه الأخرى ومختلفة عنها في آن معاً، لكن دقة الخط، والتطابق بين الواقع والمتخيل كانوا مدهشين، وتقريباً مكتملين. كانت لوحات كبيرة ذات خلفية محايدة، أشجار معزولة، لكنها مخلوقة من جديد. كان يكره عبارة «طبيعة ميتة»، لأن الفن برأيه ليس شيئاً جامداً، إنه الحياة ولا شيء ميت في لوحاته. وظلّ حذراً من النعوت والتصنيفات. لم يكن ينتمي إلى المدرسة الواقعية، خاصة الواقعية! لفت أحد أصدقائه الكُتَّاب نظره إلى صعوبة كتابة نص عن عمله، فالكلمات المناسبة نادرة وبعضها ملتبسة. لذلك اضطر لاستبعاد جميع التعابير غير الملائمة.

غادر إلى مدريد لبضعة أيام حتى يشتري الأدوات التي يحتاجها، واستغل ذلك لرؤية بعض الأصدقاء. التقى لولا من جديد، تلك المرأة التي أحبها قبل زواجه. كانت قد تغيرت، تزوجت وأنجبت طفلين. راح ينظر إليها أحياناً من دون علمها وتأكد كم هي الذكريات كاذبة. كان قد احتفظ لها بصورة امرأة جميلة ذات جسد رائع وشبقية مذهلة، فوجدها ربة أسرة أهملت نفسها. كانت سهرة حزينة. قبَّلها واصطحبها إلى منزلها. كان من الأفضل عدم إيقاظ الذكريات. وعندما عاد إلى الدار البيضاء، لم يجد في انتظاره سائقه ومعاونه الذي كان يهتم عادة بجميع الإجراءات الإدارية،



Telegram: SOMRLIBRARY

ويقوم بالتسوق وينظم الفواتير، وعلى الأخص كان يوفر عليه جميع مشكلات النظام العملي، لا سيما أنها مشكلات مألوفة وسخيفة في هذا البلد، وباختصار، لم يكن طوني الذي يدعى في الحقيقة عبد الرزاق، لكن رب عمله الإيطالي السابق أطلق عليه هذا اللقب لسهولة اللفظ، لم يكن ينتظره. أمر غريب. لم يتخلف طوني قط عن موعد، ولم يتأخر قط، وظل بلا شائبة، أميناً لمواعيده ومستبقاً الأحداث. اتصل به هاتفياً. «أنا آسف يا سيدي، لكن زوجتك سحبت مني مفاتيح السيارة وطردتني. كنت سأتصل بك، لكنني لم أكن أعرف موعد هبوط طائرتك». اتصل بزوجته فقالت له: «تخلصنا منه! كان هذا الطفيلي يسرق نقود أطفالي ويخدعنا. أنت ساذج، ومخدوع طوال الوقت ولم تزَل تصدق كل أكاذيبه. انتهى أمر طوني! ليذهب ويسرق في مكان آخر، وعلى أية حال لسنا بحاجة إليه، إنه يعيش على ظهرنا، الآن ليس أمامه سوى الذهاب للبحث عن رب عمله الإيطالي اللوطي... فضلاً عن ذلك، إنه أمر مريب أن تتمسك به إلى هذا الحدّ! حسن، لا يهمني، طردته لأنني اكتشفت أنه يسرق، إنه لص، مساعدك طوني!».

وفيما كانت تصرخ بالحماقات استولى عليه غضب جامح. لم يعُد يسيطر على نفسه، وأخذ الناس ينظرون إليه ويتابعون طريقهم نحو مكتب التسجيل. ألقى أرضاً حقيبته التي فيها حاسوبه وراح يصرخ بدوره. كان يدور كالمجنون في صالة المطار، أغلق هاتفه مرغياً ومزبداً وشاتماً زوجته. كان منهاراً، وأصبح لعابه مراً ونادراً. كان ذلك علامة على غيظ كبير. بحث عن كأس ماء. وهو يشرب، ابتلع خطأ جرعة ماء، وأخذ يسعل، وصار لونه أحمر تماماً، فركن الكأس جانباً ووضع يده على صدره. كان أحدهم قد التقط حقيبته


Telegram: SOMRLIBRARY

وأحضرها له. وهو يشكره، شعر كأن طعنة سكين اخترقته على مستوى الصدر. تألم، وانهارت ساقاه، فجلس على كرسي وأخذ يرتعش ويتصبب عرقاً ويعاني وجعاً عنيفاً في الرأس أقوى من المعتاد. هبّ موظفو المطار الذين يعرفونه لنجدته، وسألوا عبر مكبّر الصوت إنْ كان يوجد طبيب بين المسافرين. هرع سويدي وقال بالإنجليزية: «إلى المشفى، بسرعة» بقي فيها أربع وعشرون ساعة ثم أقلّته سيارة أجرة في اليوم التالي إلى بيته.

لم يكن ذلك إلا إنذاراً. كان الأطفال في المدرسة وزوجته خرجت. وربما رحلت. شعر بارتياح كبير، لأنه ماذا يمكن أن يُقال بعد حادثة المطار؟ عدم قول أي شيء هو شكل من أشكال الرضا. لذلك كان يلائمه عدم وجودها. ارتاح من جولة مواجهة. وحتى لم تقلق لأنها لم ترَه يعود يوم شجارهما الهاتفي. ظنّت ولا بد أنه رحل من جديد أو نزل في فندق أو عند إحدى عشيقاته. أما طوني، فجاء لرؤيته في المشفى ورجاه ألا يحقد على زوجته، وأنه سيستمر في خدمته على كل حال. كان متأسفاً وشقّ عليه أن يرى ربّ عمله وصديقه في هذه الحالة.


Telegram: SOMRLIBRARY

# الفصل العاشر

## الدار البيضاء، 1995

«بين الرجل والمرأة، القسوة لا غنى عنها»،
ردت زوجة القاتل ماتسوكو.

**القهر في وضح النهار**، ناجيزا أوشيما(*)

فوجئ الرسام باكتشافه أن زوجته غيَّرت عاداتها منذ إقامتهم في الدار البيضاء. صارت تتغيب أكثر الأحيان، وتعود منتصف الليل، وتفرط في الشراب وتقول إنها كانت مع «البنات». أخذت تتردد على عصبة نساء مطلقات وساخطات، أصبحن مسترجلات مع تقدم العمر، يجتمعن في منزل مشعوذة يكشف قبحها الجسدي عن سواد روحها. قصيرة وبدينة، ولها شعر لبوة، وعيناها صغيرتان غائرتان، وعلى الأخص جبهتها ضيقة توحي، بحسب متخصص في الفراسة،

(*) ناجيزا أوشيما من رواد السينما اليابانية وهو من مواليد عام 1932. في عام 1959، أخرج فيلم «مدينة الحب والأمل»، وشارك العديد من المخرجين اليابانيين كما دخل في تجربة أفلام الرسوم المتحركة منها فيلم «النينجا» عام 1967 و«يوميات سارق شنجوكو» وبعد السبعينيات بدأت شهرته تظهر في فرنسا وأوروبا بعد فيلم «الولد الصغير» كما نجح في عبور المحيط الهادي ليصل إلى كاليفورنيا.



Telegram: SOMRLIBRARY

بالشؤم. كانت تدعو نفسها «لالا»، مدَّعية أن والدتها كانت إحدى محظيات الحسن الثاني وأن اسم كل أميرة صار مسبوقاً بـ«لالا». كانت تروي أي شيء، زاعمة أنها هبِّية سابقة حظيت بعشاق بعضهم مشهورين، مغنين وموسيقيين وحتى ممثل شهير مستندة إلى صورة التقطت معه في مدينة تدّعي أنها لوس أنجلوس في حين أنه على الأرجح ديكور في القصبة بزاكورا. كانت تقول إنها أقامت في الهند عند معلم فتح عينيها على أسرار الروح؛ وتعلمت منه أين يوجد نبع كل طاقة، الإيجابية والسلبية، وطفقت تؤكد أن الأمواج التي نرسلها تستغرق وقتاً للانتقال، وهكذا تلقت للتو فقط موجات أمها الميتة والمدفونة قبل عشر سنوات، باختصار، راحت تلعب دور المتصوفة بكلمات معقَّدة لا تعرف معناها بدقة، لكن كان لديها ما يكفي من اليقين لتؤثر في العقول المستعدّة لمجاراتها وإطاعتها في هذياناتها ومناوراتها. كانت تقدِّم لهم من جديد النقاشات النسائية لسنوات الستينيات في قُرْبَة فيها مزيج من الصوفية والأسطورية والشرقية، كل ذلك وسط أبخرة بخور صُنع في الصين ويتوفر عند محلات العطارة الشعبية في حي معاريف. كانت تزعم أن معلمها وشيخها الروحي الهندي أرسل لها هذه الأعشاب بعد أن قطفها من حديقته وجففها في صومعة تأملاته. كانت تعطيها أسماء اقتبستها من عناوين أفلام بوليود التي تباع على أقراص كمبيوتر مقرصنة قرب سوق الخضار في جوتييه.

كانت لالا تتمتع بحسّ المسرحة والإخراج. في منزلها، كل شيء معدٌّ سلفاً، لكنه يأتي أُكُلَهُ رغم البلاهة الواضحة لخطابها وسخافته. وكلما بالغت أكثر، ازداد تأثير ذلك على حاشيتها من المريدات اللاتي لا يشتبهن بخداعها. لقد عثرن أخيراً على توأم



Telegram: SOMRLIBRARY

الروح، تلك التي تفهمهن وتستطيع إيجاد الكلمات للحديث معهن وإرشادهن إلى الطريق. كانت لالا قد تزوجت ابن عمها الذي ورث تركة كبيرة. كان لوطياً يريد الحصول على غطاء اجتماعي فدفع لها بسخاء. وبعد عام من الحياة الزوجية الزائفة، انفصلت عنه بعد أن ابتزَّت منه بضعة ملايين وأيضاً الفيلا التي يقيمان فيها. وبما أنه لم يعد لديها أي هم مادي، سَخَّرَت ما يكفي من الوقت والمال لتشكيل حاشية صغيرة حتى تشعر بأهميتها. كانت تطمح لإنجاز ترجمات لدور نشر أميركية، لكنها لم تستطع أن تُظْهِر اسمها مطبوعاً على الغلاف إلا على واحدة منها. كان والدها، الذي تزوج ثانية بعد وفاة أمها، يعيش بعيداً عنها ولم يكن يراها البتة تقريباً. حاولت أن تجذب إلى طرفها زوجة أبيها التي سرعان ما أدركت خدعتها الكبرى وواجهتها بعيوبها. بعد بضعة أيام، حملت إلى والدها صوراً تشوِّه سمعة زوجته، صور فبركتها على حاسوب. أرادت أن تؤذيها، لكن زوجة الأب، الأقوى والأكثر صواباً من لالا، أثبتت التزوير. وبعد إخفاق هذه المكيدة المثيرة للرثاء، قوطعت ولم يعُد من حقّها دخول منزل والدها، لكنها روت «للبنات» أنّ مشعوذة سحرت والدها وسلبته ثروته وأنها تأمل أن تفلح في إنقاذه ذات يوم.

أخذت زوجة الرسام على محمل الجدّ هذه القصة الوهمية. وراحت تؤكد أن زوجة الأب، المنحدرة من أسرة في أغادير، تنتمي إلى سلالة مشعوذين مشهورين في الجنوب. وعندما شكك زوجها فيما ترويه، استولى عليها الغضب وأخذت تصرخ لأنه تجرأ على التشكيك بكلام لالا.



Telegram: SOMRLIBRARY

فكر الرسام للحظة أن هذه العلاقة تخفي ميلاً سحاقياً. كان يعرف فضلاً عن ذلك أن زوجته تكره المثلية الجنسية وأنها لم تكن تطيق النساء اللاتي يتقربن منها لإغوائها. مع ذلك، كانت شغوفة بهذه اللالا إلى حدٍّ دفعه للتساؤل. كانت تقضي معها أحياناً النهار بطوله. لا بد أنها كانت تكنّ لها بعض المشاعر، لأنها لم تكن تقسم إلا بها، وتردّد خطابها حرفياً، وتلقيه بقوة وبحزم، وتستخدم نبرة خطابية في بعض الجمل كأنها في محكمة. حاول أن ينصحها ويثبت لها أن هذه المرأة واهمة وتشعر بالضجر وتحتاج إلى حاشية لتشعر بوجودها، لكن دون جدوى. كانت تدافع عنها ولا تحتمل أي نقد يوجّه لها. عندئذٍ اختار أن يتَّخذ سبيل الغيرة. كان من الطبيعي أن يغار زوج من شخص يستأثر بزوجته اثنتي عشرة ساعة يومياً. ظن أنها ستتأثر بهذه الحجة، وستعتبرها دليلاً على الحب. قد لا تقرر قطع علاقتها مع لالا إلا أنها قد تدرك على الأقل شيئاً من الحالة النفسية والعقلية لهذه المتحكِّمة.

لكن لا، كانت تقول له: «أخيراً ثمة شخص فتح عيني، لالا هي المرأة الأنبل والأكثر فضيلة وإخلاصاً في المدينة. إنها فنانة موهوبة. أنا مدينة لها لأنني فهمت أخيراً أنني ضحَّيت بحياتي؛ الآن، سأقاوم، ولن أحتمل بعد إذلال أسرتك وخُدَع أخيك وزوجته المسنَّة، ودسائس أخواتك اللاتي لا يأتين لرؤيتنا إلا لاستجداء المال. أنا امرأة حرّة، وأفعل ما أريد، أفهم نفسي، وسأعيش بطريقة مختلفة عن معيشتي تحت سلطة فاسد ووحش أناني ووغد، زوجٌ عازب يواصل العيش كما لو أنه ما زال وحيداً، مخادعٌ غير أهلٍ لتحمُّل مسؤولية أطفاله. أجل، بفضل لالا، فتحتُ عينيّ جيداً، سأعيش أخيراً، سأعيش حياتي، أما أنت فأحتقرك أنت ومومساتك


Telegram: SOMRLIBRARY

اللاتي يَحُمْن حولك وحول نقودك القذرة. . . طردْتُ أختك الصغرى مؤخراً حين قلت لها إنك سافرت إلى آسيا؛ صدَّقتني وعادت أدراجها؛ كانت خائبة. أفهمتها أنه لم يعُد هناك جدوى من السفر من مراكش إلى الدار البيضاء؛ قلتُ لها إنك أفلست، وأنه لم يعُد لدينا مال. أظن أنها بكت بسبب ذلك».

أصبحت القضية مفهومة وشديدة التشابك، ولم يبقَ أمامه إلا استخلاص النتائج منها. اقترح أصدقاؤه أن يتحدثوا إليها، خاصة وأنهم يعرفون سمعة المشعوذة، لكن زوجته كانت ماهرة في إيهامهم بأنها لا تصغي إليهم بانتباه فحسب، وإنما متّفقة معهم أيضاً في الرأي. وكان الأصدقاء يعودون مسرورين من وساطتهم ويركنون للاطمئنان. من العسير أن يكتشفوها. كان نظام دفاعها قديماً وبدائياً، لكنه ذو فعالية مدهشة. كانت تتصرف كما يحلو لها وتنسى بنوع من الابتهاج ما يفكر به الآخرون حولها.

اقترح صديق على الرسام أن يباشر بإغواء لالا لإبعادها نهائياً عن زوجته. لم يمتلك الشجاعة للقيام بذلك، ولم يحصل له قط أن لعب دور المخادع. لم يكن لاعباً. وكان يترك ذلك لأعدائه وخصومه.

استمرت لالا بالاحتفاظ بعلاقات حميمية مع زوجته، وسط يأس أطفاله الذين انتهوا بدورهم إلى اكتشاف أن هذه الصداقة مشبوهة. اشتكوا لوالدهم الذي نزع الطابع المأسوي عن القضية لئلّا يشوشهم. وذات يوم تحامقت لالا وتدخلت بينما كانوا يفاوضون أمهم على برنامج العطلة الصيفية. لم يحبذوا هذا التدخل وطلبوا من أمهم ألا تعود لمخالطتها، لكنها كانت تحت تأثير صديقتها الحميمة، مفتونة بها، ومخلصة تماماً لأوهامها المثبطة.

كانت لالا تكتب نصوصاً حول «الطاقة الأولية» لم تفلح في



Telegram: SOMRLIBRARY

نشرها. كانت تجمعها وتجلدها وتقدّمها إلى الأشخاص الذين يستحقون ثقتها. كانت تقول إن فكرتها شخصية إلى حدّ أنها لا تتمنى نشرها بين الجمهور العريض. وكانت ترفق تلك النصوص برسومات تقريبية، وكانت النتيجة مثيرة للسخرية إلى درجة أن الأمر لم يكن يستحق كلّ اللغط الذي تثيره حولها. هكذا كانت طائفتها الصغيرة تسهم مالياً في قطار حياتها. ولم يكن أحد يجد عيباً في ذلك.

ذات يوم، سنحت للرسام فرصة مشاهدة فيلم يروي قصة مُدَرِّسَة جميلة تصل إلى ثانوية، متزوجة ولديها طفلان أحدهما منغولي. تتعرف على امرأة مسنة، أستاذة في هذه المؤسسة، تعيش وحيدة مع قطتها. تنعقد بينهما صداقة، وشيئاً فشيئاً تتوطّد العلاقات إلى درجة أنهما أصبحتا لا تفترقان، العجوز تحمي الشابة وترشدها على المستوى التربوي وحتى العاطفي. تستسلم الشابة ذات مساء لمبادرات أحد طلابها، وهو مراهق وسيم. تفاجئهما العجوز وتبدأ بابتزاز صديقتها التي ليس لديها علاوة على ذلك الرغبات ذاتها ولا حتى المشاعر ذاتها. تعتقد أنها أخضعتها، لكن حادثاً عارضاً وقع لقطتها وللطفل المنغولي أنهى هذه الصداقة الغامضة. شعرت العجوز أنها مغدورة ومهجورة، فأشاعت أن المُدَرِّسَة الجديدة منحرفة جنسياً نحو الأطفال وأنها أقامت علاقات جنسية مع أحد طلابها. انفجرت الفضيحة؛ فحُكِمَ على الشابة بعقوبة السجن، لكن مع مرور الزمن حرّرها هذا الحدث من أسْر العجوز الشريرة.

لم يكفّ عن التفكير بلالا وعلاقتها بزوجته. اشترى نسخة دي في دي من الفيلم وطلب منها أن تشاهده بروية. هذا ما فعلته، لكنها قالت له: «لا أفهم لماذا كنت تصرّ على أن أشاهد هذا الفيلم».



Telegram: SOMRLIBRARY

بالطبع كانت قد فهمت الصلة بين الحالتين، لكنها لم تشعر أنها معنية بشيء. اكتفى بالابتسام وتخلى عن أية فكرة لانتزاعها من المرأة الشريرة. قال له أحدهم: «سترى، ستتركها ذات يوم، وستهجرها، الأمر يحتاج إلى قليل من الصبر».

ظهرت مآسٍ أخرى وأصبحت العلاقة مع المشعوذة ثانوية بالنسبة إليه. أدرك أن المهمّ هو أن ينقذ نفسه، وأن يبدأ بالهرب وأن يتخلّص من هذه العلاقة الزوجية التي لم يعُد له مكان فيها ولا مكانة.


Telegram: SOMRLIBRARY

# الفصل الحادي عشر

## الدار البيضاء، نيسان/ أبريل 2000

«الأحلام والحياة هما الشيء ذاته. وإلا فإن ذلك غير جدير بالعيش».

**أطفال الفردوس**، مارسيل كارني(*)

لم تكن إيمان ممرضة فحسب، وإنما كانت أيضاً مُدَلِّكَة طبية. كانت تدلّك له ساقه الهامدة والذراعين. تفعل ذلك بلطف وقوة في آنٍ معاً. كان يحبّ تلك اللحظات ويقدّر التقدم الذي يحرزه، مهما بلغت ضآلته. كانت مشاغبة قليلاً، تُلَوِّحُ بابتساماتها وتغمز بعينيها وتثير بسحرها. كان قد تعلّق بها واستمتع ذات يوم بالإصغاء إليها تروي له حكايتها كما سبق أن وعدته.

ذات صباح، في موعد زيارة إيمان شاهد الرسام رجلاً وامرأة مسنّة برداء أبيض يدخلان. كان وجه المرأة متغضناً، قاسياً، بلا ابتسامة. قالت له: «أنا ممرّضتك الجديدة وأخي هو مدلّكك. زوجتك هي من أرسلتنا». احتجّ ضارباً الأرض بعكازه، ولم تفلح الكلمات بالخروج من فمه. إنها المرة الأولى التي تسمح فيها زوجته

(*) مارسيل كارني (Marcel Carné) (1906-1996): مخرج سينمائي فرنسي.



Telegram: SOMRLIBRARY

لنفسها بالتدخل دون أن تأخذ حالته بعين الاعتبار، مع أنه لم يعُد يتواصل معها منذ الإصابة. طردهما وأفهم التوأمين أن يدفعا لهما ويطلبا منهما ألا يعودان أبداً. كان لا بد من استدعاء إيمان لشرح ما حدث لها، لكنه كان مصدوماً من هذا التطفُّل المفاجئ إلى حدّ أنه لم يمتلك الشجاعة للقيام بذلك وانتظر حتى تهدأ العاصفة التي أثارتها هذه الزيارة المزعجة فيه.

عودة إيمان التي حصلت بوساطة توأمه الوفي، سكَّنت روعه وشوّشته في آنٍ معاً. كانت هذه العودة عيداً وفرحاً داخلياً لم يُظْهره بسبب وجهه المشوه، لكن عيناه غدرتا به. شرحَتْ له إيمان كيف أن زوجته زارتها قبل يومين واستخدمت لهجة متوعّدة وحاسمة. لم تحتمل إيمان الدخول في صراع مع زوجةِ مريضها وآثرت التخلي عنه. وحتى كانت تنوي أن تكتب رسالة تعرب له فيها عن أسفها وتعاطفها البالغ. «أجابها: بعد الآن، لا علاقة لك مع أحد غيري! وإذا اتفق وكلّمتك زوجتي، قولي لها إنني أنا مَن استخدمتك وأنا مَن يقرر».

وهي مفتونة، أنجزتْ إيمان عملها مدندنةً بأغاني وهامسةً بكلمات أسهمت في تخفيف توتره. كان بحاجة إلى ذلك لأن غيظه الأخير كان لا يزال يعتمل فيه. ما الذي حدث حتى تُخْرِجَ زوجته فجأة فأس الحرب؟ وهل يترتب عليه الاستعداد لمبارزات جديدة؟ لم تكن روحه مطمئنة. قررتْ إيمان أن تبقى وقتاً أطول واقترحت على الرسام قدح شاي. كان التوأم يلعبان الورق ويوليان ظهريهما للمريض حتى لا يزعجانه. إنه شاي تايلاندي، يدعى «شاي الشعراء»، معطّر وذو مذاق لطيف. رفعت القدح إلى مستوى شفتيه،


Telegram: SOMRLIBRARY

وجعلته يشرب رشفة بعد أخرى. جلست أمامه، فوجدته سعيداً، وسألته إن كان لا يزال مهتماً بحكايتها. أجابها بحركة من عينيه، لكنه قطع ابتسامته فجأة، متذكراً التكشيرة القبيحة التي ترسمها على وجهه. كانت إيمان بين الفينة والأخرى تنهض وتنظر عبر النافذة تحسُّباً من وجود زوجة الرسام في الجوار. أدرك مخاوفها، فصرفها على مضض منه، آملاً أن يراها في اليوم التالي. وللأسف، كان عليها أن تعتني بجدتها التي لا تزال متشبثة بالذهاب إلى الحمام رغم سنّها وتعبها. وأثناء مغادرتها، انحنت عليه وداعبت خده. قالت ضاحكة: «إنها توخز!» لم يحلق التوأمان له ذقنه منذ يومين.



Telegram: SOMRLIBRARY

# الفصل الثاني عشر

## الدار البيضاء، 1998

«بين رجل عاقل وسوقي، لا تترددي، تزوجي السوقي»، قالت السيدة موني لجولي.

ليليوم، فريتز لانغ

كان الرسام وزوجته يعيشان جحيماً حقيقياً. أصبح منزلهما ميدان معركة، وأصدقاؤهما شهوداً عليها، وعائلتاهما حكاماً عديمي النزاهة فيها. مع ذلك لم يفقد الأمل تماماً في إيجاد طريقة لوقف الشجار. وراح يمضي ساعات طويلة في تأمُّل ما وصل إليه حالهما.

هكذا ظنّ ذات يوم أنه وجد مفتاح الانهيار العجيب لعلاقتهما الزوجية: أصبحت زوجته مزدوجة. ثمة شخصيتان في واحدة، طبعان ومزاجان ووجهان. حتى صوتها تغيَّر. كان يعرف أنّ كل كائن إنساني مزدوج تقريباً، لكن إلى هذا الحدّ يصبح الأمر مقلقاً. أحياناً لم يكن يتعرف عليها. فيقول لها: «من أنتِ؟ غريبة؟ هل أنت أم أطفالي أم امرأة مسكونة بأخرى؟» ولم تكن تجيبه. كان قد صادف في حياته أناساً ينعتونهم بغريبي الأطوار، لكن الأمر مختلف هنا، إنه حالة مرضية: كانت تنتقل من حالة لأخرى دون سابق إنذار أو إدراك. وعندما كانت تتصل به لتقول له بصوت واضح وصريح:



Telegram: SOMRLIBRARY

«عندي مفاجأة لك» يعرف أنه سيمضي ربع ساعة سيئة. إنها طريقتها في طلب استفسار منه، أو ببساطة في شن هجوم رتبته مسبقاً.

ذات مرة، عندما عاد، وجد في المدخل لوازم حمامه مبعثرة على الأرض. كانت زوجته تنتظره جالسة أعلى الدرج وهي تدخن لفافة تبغ. في تلك الفترة، كان يستخدم الواقي الذكري لمضاجعتها. قالت بهدوء: «قبل سفرك إلى كوبنهاغن، كان يوجد أحد عشر واقياً، ولم يعُد يوجد الآن سوى تسعة. لقد مارست الجنس مرتين، أيها القذر، ستدفع ثمن ذلك. اتصلتُ بالفندق؛ تُدعى باربارة، إنها عاهرة تعمل في صالة كلام».

وهي مقتنعة أنها مُضطهدة، وأن عائلة زوجها تنوي إيذاءها، وأن أصدقاءه انتهازيون وعديمي الشرف، وأن جيرانها حاسدون، وأن الأشخاص الذين يعملون في البيت يسعون إلى سرقته، أخذت تشك في جميع الناس. هكذا بنت قناعاتها الراسخة. ولم تعُد قابلة لأي نقاش. كان قد لاحظ أنها قبل أن تشن هجوماً على عائلته حاولت أن تبعده عن بعض أصدقائه، خاصة المقربين منه. لم تكن تعوزها الحجج، وكانت مناسبات لقاءاتها بهم متواترة، لذلك ترتب عليها إيجاد ثغرة للهجوم.

كان صديق طفولة الرسام فريسة سهلة بالنسبة إليها: طبعه سيئ، ومعقَّد وعنيد مثلها. استفزته فردّ عليها بطريقة جارحة. تمَّت القطيعة وأُنْذِرَ الرسام بأن ينهي علاقته بهذا القزم الذي تجرأ على انتقادها. كان لدى هذا الرجل حسّ الدعابة، لكنه لا يتعامل بخفة مع أي شيء. قاوم الرسام حتى جاء يوم كتب فيه صديقه إليه رسالة القطيعة. لقد نجحت خطتها.


Telegram: SOMRLIBRARY

هاجمت بعد ذلك صديقاً آخر، رجل حكيم وفيلسوف، تخاصم مع زوجته، لكنه لم يصل إلى حدّ الافتراق عن زوجها.

فعلت الشيء ذاته مع آخرين، خاصة مع صديقة كان لديها صالة عرض نظَّم فيها أحد معارضه الأولى. كان يعتبرها كأخت، وواحدة من أفراد الأسرة. أصبحت مقربة من والدته وصارتا تتبادلان الخدمات. اتهمتهما زوجة الرسام فجأة بأنها عشيقة زوجها أو كانت عشيقته وهو ما جعلها تقهقه: لم يكن بينهما سوى صداقة لا لُبس فيها.

لم يكن الرسام يتدخل البتة بشؤون زوجته، وهي عادة دائمة لم يضطر إلى خرقها إلا مرتين لأنها تعرَّضت فعلياً للخطر. كانت المرة الأولى عندما أخبرته أنها تقابل طالباً سورياً. حاول أن يفهمها أن عليه أن يهتم فقط بدراسته وأنه على الأرجح يعمل لصالح أجهزة المخابرات. شرح لزوجته أن النظام السوري هو نظام بوليسي مرعب. وأنه سبق أن وقَّع عريضة لإطلاق سراح المعتقلين السياسيين الموقوفين في دمشق. وكان يعتقد أنه من الخطر عليهما سوية بقاء زوجته على اتصال بذلك الطالب. لم تصدِّقه واستمرّت في تناول القهوة معه. المرة الثانية في الدار البيضاء، كانت عندما حذّره بعض الأصدقاء: «لدى زوجتك علاقات غريبة الآن. هل تعرف أنها تظهر علناً مع امرأة تدعى لولو، مشهورة بعلاقاتها مع مهربين وأشخاص مشبوهين يزودون السعوديين العابرين بالفتيات؟ طبعاً، لا علاقة لزوجتك بذلك، إنها لا تدرك الوضع والخطر الذي يمكن أن يسببه ذلك لكما. من الضروري أن تقطع أي اتصال معها».

عندما علم بالورطة التي حشرت نفسها فيها، نصحها أن تتبع


Telegram: SOMRLIBRARY

حرفياً النصائح التي أمليت عليه. فلا يزال هناك وقت لاستدراك الأمور. أخذَت الأمر على محمل السوء، وصرختْ بأنه يشبه باقي المغاربة، ذكوري ومشبَع بالأحكام المسبقة، وأنه ينقاد بسهولة للانخداع بالشائعات. لم تكن قادرة على تصديق زوجها، ولا على منحه ثقتها، ولا على مصارحته. لم تكن تشكّ. لم تكن تشكّ البتة. ولم تعترف قط بأخطائها. كان يعرف ذلك منذ زمن طويل وهو ما بدأ يُعرف الآن في محيطهما. واظبت على لقاء لولو رغم التحذيرات المتكرِّرة لزوجها، حتى جاء يوم اقترحت فيه عليها اقتراحاً بذيئاً أثار استنكار زوجته. فافترقتا أخيراً.

لزمن طويل، لم يتساءل عن وفاء زوجته. لم يكن يفكر أن لديها عشاقاً، مع أن لديها متسع من الوقت لخيانته ما دام يسافر كثيراً وما دام لا يراقبها ولا يفتش أمتعتها ولا يقرأ رسائلها ولا ينظر إلى مفكرتها. كانت حرة وليس لديها ما تبرره أمامه. بعد رحلة قامت بها مع صديقتها إلى تونس، راوده الشك. فقد عادت وفي رأسها فكرة ثابتة: أن تقرأ وتعرف كل شيء عن ستانلي كيبريك وتشاهد جميع أفلامه. تذكّر أنها لم تحب فيلم **أوديسا الفضاء 2001**. من أين جاء هذا الحب فجأة؟ في الواقع، قابلت شخصاً يدعى حسن يُنجز أطروحة عن كيبريك وعرض عليها بعض أفلامه. ولم يكن هذا الشغف المفاجئ سوى ثناء له؛ فقد أهداها حسن كتاباً ضخماً عن أفلامه. وطوال خمسة عشر يوماً، لم تفتأ تتحدث عن فيلم **باري لندن** وفيلم **طريق المجد** وفيلم **الغزو الأخير** وفيلم **الدكتور فيلامور**.

لقد فضحت نفسها.



Telegram: SOMRLIBRARY

عندما حاول أن يسألها عن علاقتها، تجنَّبت ذلك مدَّعية أن تربيتها لا تسمح بأن يكون لها عشاق. وذات يوم وجد واقيات ذكرية سقطت من حقيبة زينتها في الحمام.

- ماذا تفعلين بها؟

- آه، هذه، إنها عينات تلقيتها خلال الحملة ضد مرض الإيدز.

لم يصدِّق كلمة واحدة ممّا قالته، صمت وفكر: «إذا فتحت هذا الملف، فيجب قول كل شيء، وسيكون ذلك هو الجحيم».



Telegram: SOMRLIBRARY

# الفصل الثالث عشر

## الدار البيضاء، 15 تشرين الثاني/ نوفمبر 1999

«عندما أكون معك، لا شيء يخيفني، ولا حتى الحرب، وربما الشرطة»، قالت فيرونيكا لبوريس قبل أن يذهب إلى الحرب.

**حين تحلق اللقالق**، ميخائيل كالاتوزوف(*)

كان لدى الرسام صديق يوناني حميم، يدعى يانيس، يسارره ويتعلم معه اللغة اليونانية لأنه ينوي الذهاب ذات يوم للعيش في جزيرة تينوس الصغيرة. كان يانيس يتمتع بحسّ الدعابة، خاصة السوداء، وينجز أفلاماً عن الفنانين المعاصرين ويكتب من حين إلى آخر أخباراً في صحف بلده. كان أيضاً غاوياً، رجل نساء، مع أنه ليس لديه جسد رائع ولا جسد لاعب كرة سلة أميركي. كان جسده بالأحرى يشبه الأستاذ عباد الشمس وكان يتبع أسلوباً تهكمياً في تأمل ما يحصل له. كانا يلتقيان دوماً في المطعم ذاته؛ مع صديق آخر هو الأب فرانسوا الذي لم يكن قساً وإنما شاعراً وكاتباً كبيراً

(*) ميخائيل كالاتوزوف (Mikhaïl Kalatozov) (1903-1973): مخرج سينمائي من أصول جورجية.



Telegram: SOMRLIBRARY

مغموراً. هكذا كان يانيس يحب أن يناديه وهو يعلم إلحاده المتطرف وحسه الساخر.

كان فرانسوا مثل يانيس في عداد الوفد الذي ذهب إلى ضاحية كليرمون فيران لطلب يد زوجة صديقهما الرسام المستقبلية. بقيت رحلة جديرة بالتذكُّر بالنسبة إلى أصدقائه الذين وطئت أقدامهم لأول مرة هذه الأراضي الغريبة والمترعة بالكآبة. اكتشفوا بؤس هذه الضواحي التي أُهْمِل فيها المهاجرون وأبناؤهم ووصِمُوا باعتبارهم محرضين على الاضطرابات والإخلال بالأمن.

منذ بعض الوقت، أخذ يانيس وفرانسوا يقلقان على صديقهما. كانا يشاهدانه مرهقاً من الشجارات ونوبات الغضب والتعب والتبرم المتكررين أكثر فأكثر. كان يساررهما، وكلاهما، مولعان بالحرية والاستقلالية، يساعدانه على التحرر من هذا الزواج الذي لا شيء فيه على ما يرام. كانا يخافان عليه لأنهما يعلمان أنّ ضغطه الدموي ليس منتظماً.

ذات يوم، رافق يانيس الرسامَ إلى متجر كبير حيث اشترى منه آلة تسجيل صغيرة. اعتقد يانيس أنه يحتاجها في عمله ولم يفهم بماذا تفيده، ربما لإملاء مراسلاته، لكن كان يعرف أن صديقه لم يكتب رسائل قط.

- زوجتي تناقض نفسها باستمرار، ولا تعترف أنها قالت هذا الشيء أو ذاك، لذلك قررت أن أسجل أحاديثها، دون علمها، لأجعلها تسمع ما قالته ثانية.

- لكن ما الفائدة؟

- آمل أنها ستعترف يوماً بأحد أخطائها، وعندئذٍ سأستمتع



Telegram: SOMRLIBRARY

بتسجيل اعترافها وإعادة تشغيل الشريط عدة مرات لأسمعها تقول «أنا آسفة، لقد أخطأت» أو «أنا غلطانة»، أو «معك حق»، أو«اعذرني، ما كان يجب عليّ» وسأضيف «شكراً، حبيبي»، وهو ما لم تقله قط...

- لم أكن أعتقد أن الأمور سيئة بينكما إلى هذا الحدّ. أعترف لك بأن هذا يصدمني. كما تعلم، أنا طلقتُ لأسباب أقل وجاهة... لم يكن لدي شيء مهم ألوم زوجتي عليه. بالأحرى كنت أنا من يتفوه بالحماقات...

لم تسنح الفرصة أبداً للرسام أن يشغِّل مسجلته. المرة الوحيدة التي اعترفت فيها أنها جازفت بالقيادة بسرعة وهي متعبة وأوشكت خلالها على التسبب بحادث خطير ومعها جميع أفراد الأسرة في السيارة، في تلك المرة لم تكن المسجلة في متناول يده. يومذاك، لم يكن يهمه تسجيل اعترافاتها. كان لا يزال تحت تأثير الصدمة الانفعالية ليوم أمس عندما شاهد سيارة شاحنة تتجه بأقصى سرعة نحوهم. كادت تخفق في الإتيان بأية ردة فعل لأنها لم تكن في حالتها الطبيعية. وجرى تفادي الحادث بفارق ضئيل. صرخ الأطفال وبقي هو مسمراً في مقعده، غير قادر على النطق بكلمة. ثم خيم صمت مطبق لَفَّ هذه اللحظة المرعبة. بعد وصولهما إلى المنزل لم يتكلما ولم ينظر أحدهما إلى الآخر أيضاً.

منذ ذلك اليوم، قرر ألا يسافر معها في السيارة مرة أخرى. فهذه الحياة لم تعُد تلائمه، لكنه عاين هذه الحالة مراراً لدرجة أنه لم يعد يجديه ذلك. صار ينبغي القيام بفعل ما، والاعتراض، والفرار إن أمكن. ما صار مؤكداً بالنسبة إليه، هو أن جبلاً من المصاعب


Telegram: SOMRLIBRARY

ينتظره قبل أن يقرِّر. في تلك الفترة تابع جلسات العلاج النفسي حتى يُدَعِّم دفاعاته المناعية، كما لو أنه يعاني من مرض ينخر عضلاته وعقله وحياته.

قال له الطبيب النفسي:

- الأمل الوحيد هو أن تباشر زوجتك تحليلاً أو علاجاً نفسياً، لكن كما تعلم، هي وحدها يمكنها أن تقرر؛ لا أحد، لا أصدقاؤها ولا ناصحوها، وبدرجة أقل أنت أيضاً، مسموح لهم أن يرشدوها إلى الطريق الواجب اتباعه. ابتسم وأوضح أن ثقافة زوجته لا تؤهلها لمثل هذه الخطوة. بالأحرى، ستستشير مشعوذين يعطونها وصفات لاتباعها، نوع من البخور تحرقه ليلة ظهور البدر، أعشاب لوضعها في زوايا غرفة النوم، كتابات لتحلها في ماء مجلوب من مكة، تعويذات تعلقها في أعلى شجرة معمرة أو تدفنها تحتها، وتعويذات أخرى ترميها في البحر حين تكون أمواجه هائجة...

هذه الممارسات السحرية الشائعة عند الأميين والمتعلقين بتقاليد أجدادهم في المناطق الجبلية كانت تعزز لامعقوليتها. وهي أحد الأسباب التي أوقعتها في طائفة صديقتها الشهيرة لالا التي واظبت على التأثير بلطف لتخريب العلاقة بزوجها وعلى الأخص بأسرته، وشجعتها على مضاعفة زياراتها للمشعوذين، القريبين منها والبعيدين.

ذات يوم، شربت منقوع أعشاب وصفته لها لالا. كان تأثيره مباشراً. وهما على المائدة لتناول الغداء مع الأطفال، فجأة انتابتها لحظة غيبوبة كشخص سيغمى عليه. نهضت، ترنحت وألقت نفسها على السرير وغطت في نوم عميق. وإزاء قلق الأطفال، استدعى صديقه الطبيب الذي هرع وفحصها واستنتج أنها تصرفت كما لو أنها



Telegram: SOMRLIBRARY

ابتعلت جرعة حبوب منومة. أخذ الأعشاب المذكورة وانتابته موجة غضب.

- إنها أعشاب لا نعرف عنها شيئاً. من يؤكِّد لنا أنها غير سامة؟ سأوقظها وأجري لها غسيل معدة.

هزَّها، ففتحت عينيها ببطء، ونهضت وهي تقول إن الأمر بسيط. خطر ببالها أن تتقيأ؛ شعرت بتحسن، لكنها لم تعرف مطلقاً أنها تناولت مواد خطيرة.

وهو يتناقش فيما بعد مع أحد أصدقائه، أبلغه الرسام قلقه الكبير:

- كيف سأترك أطفالي مع امرأة لاعقلانية ولا مسؤولة إلى هذا الحد؟

كان لهذا السؤال معنى مزدوجاً. من جهة، كان من حقه أن يقلق، ومن جهة أخرى، كان هذا نوعاً من التبرير لئلا يضع حداً لهذه المحنة.

عندما كان يراها في المجتمع، لطيفة وجميلة وخدومة ومُجاملة ومحبوبة من الجميع ويهنئها الرجال على جمالها وسحرها، وعندما كان يسمعها تتكلم بصوتها العذب في شؤون الحياة، وعندما كان ينظر إليها خلسة، كان يشعر أنه موزع بين الإعجاب والغضب. كانت تعجبه هذه المرأة اللطيفة جداً مع الآخرين، وكان يغضب لأن هذا اللطف والاهتمام غائبان على نحو مخيف عن علاقتهما. ظنّ لبرهة أن لديها ازدواجاً في الشخصية، لكنه كان مخطئاً. لم يكن لديها هذا الازدواج، إنما كانت الشخصية ذاتها التي تحتفظ بأفضل ما فيها للآخرين وبأسوأ ما فيها لزوجها. إنها تجعله يدفع ثمن كل هذه



Telegram: SOMRLIBRARY

السنوات التي تألمت فيها من النظرات المُحْتقرة لأسرته وبعض أصدقائه. ذات يوم، فاجأت امرأة تقول لزوجها بخصوصهما:

- إنها جميلة وشابة، لكن صديقنا يستحقّ أفضل، امرأة جميلة وحقيقية من مقامه ومن مستواه.

بالتأكيد، كان قاسياً سماع ذلك. وشطبت الزوجان من القائمة دون مزيد من التوضيح.

ذات يوم، بعد أن رآها منشغلة براحة أخيها الصغير القادم لزيارتها، بمنتهى الاهتمام، مقترحة عليه تناول قرص فيتامين سي في كأس ماء لأنه سعل، وكاوية له قميصه الذي غسلته بالأمس، ومستعلِمَة عن عمله، وداسّة في جيبه مبلغاً كبيراً من المال، قال لها فور مغادرة أخيها:

- لماذا لا تعتبرينني مثل أخيك الصغير أو الكبير؟ ابذلي جهداً، انظري إليّ، لستُ وحشاً كما تظنينني، لا، أنا فقط مختلف عن الآخرين، أنا فنان، وأحتاج إلى المساندة والتفهُّم، لا أحتاج أن تعجبي بي، هذا أكثر من أن يُطلب منك، ثم إنها أمور لا تُطلب. اهتمي أكثر قليلاً بزوجك العجوز إنه ليس شريراً، إنه طيب أيضاً. سعلتُ كثيراً وأُصبْتُ بذبحة صدرية، ولم تقترحي عليَّ البتة كأس فيتامين، إنه ليس أمر ذو شأن، لكن هذه الاهتمامات الصغيرة تسعدني. في الواقع، هذه هي نقطة ضعف علاقتنا الزوجية: السعادة! إسعاد الآخر، وعلى نحو متبادل. للأسف، الكثير من الحدود اخترقت من الطرفين. لم يعد ثمة احترام بيننا. إنني آسف لذلك، وأنا أيضاً أتحمل المسؤولية مثلك. لا أعتقد أنني قللت من احترام أحد قط. كنتُ أرعناً، بالتأكيد، وكنتُ طائشاً، ولم أهتم بما


Telegram: SOMRLIBRARY

يكفي، لكنني لم أبرمج نفسي قط على التقليل من احترامك، لكن كم مرة دفعني الغضب وفظاظة ردود فعلكِ للتفوّه بكلمات لم أفكِّر فيها ولم تكن ضمن قاموسي قط. أنتِ نجحتِ في إخراج أسوأ ما في داخلي، وأنا بالمثل. لا أتهم أحداً. حاولتُ دوماً تجنب الشجارات، في حين أن علاقتنا الزوجية استقرت في الشجارات كما لو أنها سرير حب وغرام. ذات يوم سأرحل، وعندئذٍ لا توقفيني، لأنه سيكون اليوم الذي سأصل فيه إلى حافة الهاوية وإذا دفعتني سأسقط. أخيراً، اعلمي شيئاً، في ذلك اليوم ستكتشفين أنك عشتِ مع غريب، مجهول، شخص لم تشاطريه شيئاً، ما عدا الأطفال لا شيء حسن، ولا شيء محبّذ. لقد أخطأنا، هذا ليس خطؤك ولا خطئي. ربما أتحمل مسؤولية أكبر. كان عليَّ أن أثق بحدسي أكثر، لكن الحب أعمى حقيقة! لا يقف المرء بوجه القدر، لكنه لا يترك نفسه ألعوبة لأوهامه. طبعاً، ستسير الأمور، وستربحين برباطة جأش وحنكة. الاختلافات بيننا كبيرة، وهي ثقافية قبل كل شيء. نحن قادمان من كوكبين بعيدين عن بعضهما. كنتُ أعرف ذلك، لكنني راهنتُ على قوة حبنا لتجاوزه. في الحقيقة، بقينا غرباء. أنا عشتُ هذه الغربة بندم، وأنتِ تحاربين طواحين الهواء. ذات يوم، ستفهمين ذلك، وسيكون الأوان قد فات، وسيكون كل شيء قد انهار.

جاء هذا اليوم في منتصف شهر تشرين الثاني/ نوفمبر 1999.
كان يعمل عندما دخلت عليه هائجة، وألقت في وجهه حاسبه المحمول فانكسر نصفين ورمته بعد ذلك بثقالة ورق برونزية ثقيلة أصابته في كتفه الأيسر، وهي تصرخ بشتائم في ثلاث لغات، البربرية والفرنسية والعربية، وتصيح بين الإهانات: «ستدفع ثمن ذلك،


Telegram: SOMRLIBRARY

ستدفع ثمنه، سأحطمك، سأجعلك فقيراً مدقعاً، سأحرق جميع لوحاتك اللعينة، سأرميها في القمامة، أنت لست إلا وحشاً، منحرفاً وزوجاً حقيراً وأباً لعيناً وخائناً، إنك مثل والدك، شخص مسكين، بلا قيمة. . .»

هنا تضافرت الصدمة الجسدية مع الصدمة النفسية وشعر بحمى مفاجئة تستولي عليه بغتة، ودم حار يجري في عروقه بسرعة كبيرة، وأخذ وجهه يختلج كأن جلده تمدَّد، وسقطت الريشة من يده وتصلبت ذراعه، وشاهد الأشياء مشوشة، ثم سقط على الأرض، فارتطم رأسه بجهاز التدفئة وسال دمه بعد أن سُحِجَ جلده، لكن الأخطر هو أن عيناه اضطربتا ولم يعُد يستطيع تحريك ذراعيه وساقيه.

ذُعِرتْ واتصلتْ بالطوارئ. نقلوه إلى أقرب مشفى. إنها جلطة دماغية. هكذا كان التشخيص. جلطة دماغية في الأوعية الدماغية: فالجٌ في الجانب الأيسر مع صعوبات في الجانب الأيمن. ولا بد من الانتظار لتقدير مدى خطورة الحالة.

كان الطبيب يتحدث بسرعة ومنفعلاً. فهو يعرف شهرة الرسام. وأظهر لباقة بمنع السكرتيرة من إخبار الصحافة.

طلبت زوجته سريراً إضافياً لتنام إلى جانبه. قال لها الطبيب: «من باب الحيطة، الأفضل أن يبقى وحيداً، نحن موجودون، لا تقلقي، حين يستيقظ سنخبرك».

لحسن الحظ، لم يتذكر ذاك اليوم. نسيه تماماً كما لو أنه لم يوجد قط.

بالمقابل، كان قد شاهد الموت. إنه أزرق، بلا شكل ولا



Telegram: SOMRLIBRARY

رائحة، يوقظ انطباعاً فقط أنه مغلف ببخار أبيض، ثم مائل للأزرق. لم يكن يفكر، لكنه راح يرى صوراً تتقاطر على نحو متسارع وتغدو سديمية. لم يلتقط أي شيء منها، وأصبح جسده كتلة صماء لم يعُد بوسعه التحكم فيه. ووجهه لم يعُد هو وجهه. حلّ مكانه شخص مرسوم على نحو سيئ. طفق يتساءل إنْ كان هذا المستأجر الفظ سيبقى طويلاً. وحده رأسه كان لا يزال نشطاً. كان يسمع كلمات وضوضاء غير مفهومة بسبب البخار المتكاثف الذي استحال إلى الأزرق الغامق الملطخ بالأسود. فتح عينيه، ورأى غبشاً، فأغمضهما. كان عليه أن يتأكد أنه لو فتحهما على اتساعهما فإنّ الموت سيتراجع ويمضي بمحاذاته ويتركه لبعض الوقت، كهدنة. كان يفكر على نحو غريب بلوحته الأخيرة ويقول لنفسه في هذا الكابوس الواقعي: «لن أفعل مثل نيكولاس دوستايل، يجب أن أنهي هذه اللوحة، سأواصل حتى النهاية. لن أرمي نفسي من النافذة. لن أسقط نتفاً على الرصيف» سيواصل حتى ماذا؟ حتى هذا الجنون الذي يترصده ويساعده على الاستمرار في عمله.

كان بين أيدي الأطباء الذين يحاولون إنعاشه.


Telegram: SOMRLIBRARY

# الفصل الرابع عشر

## الدار البيضاء، 27 آب/ أغسطس 2000

«لا تحاولي أن تثيري تعاطفي مع همومك. يجب على كل واحد أن يتدبر أمره في هذه الأرض. لا أشعر بالإشفاق على آلام الروح» أجاب إسحاق بورغ كنّته.

**التوت البري**، إنغمار بيرغمان

في ذلك اليوم، استقبل إيمان في محترفه. لم يكن بوسعه الرسم بعد، لكنه راح ينظر إلى العديد من لوحاته التي منعه المرض من إنجازها والتي بسطها على الأرض. بعض زواره ذهلوا أمام هذه الأعمال المسماة غير منجزة، وبعضهم الآخر لم يُعِرها أي انتباه. أما هو، فقال في سره: «إذا كان عليّ الرحيل طوعاً، سأرتب محترفي قبل ذلك، وسأترك توصيات محدَّدة لأطفالي، سأفعل ذلك حتى لو تأكَّد لي أنهم لن يتبعوها، لكن من يدري. بعد ذلك، سأذهب لرؤية كاتب العدل حتى تحصل بناتي على مثل حصة أبنائي، لأنني ضد هذا التمييز الذي يهين المرأة بمنحها نصف حصّة الذكر الذي يتمتع بحصة كاملة. إنه القانون الإسلامي، لكن يؤسفني أنّ الفقهاء لم يغيروا هذه الممارسة الشرعية منذ زمن النبي حين كانت المرأة لا تعمل. هكذا، قبل رحيلي، سأضع الأمور في نصابها» راح



Telegram: SOMRLIBRARY

يفكّر في ذلك بتلذُّذ كما لو أنّ فكرة الانتحار لم تعُد غريبة عنه. كانت تسليه واقعة التحضير لميراثه وتخيُّل ردود فعل الآخرين. راودته الرغبة بالكتابة، لكن أصابعه لم تكن قادرة على الإمساك بالقلم. خطرت بباله فكرة الاعتراف أمام كاميرا؛ وذَكَّرَه ذلك بفيلم أميركي جميل لعب فيه أندي غارسيا دور شخصية قاطع طريق سابق لجأ إلى مدينة أميركية صغيرة وأسَّس شركة تقترح تصوير الرغبات الأخيرة للمحتضرين. بعضهم حكى عن حياته، وأسدى نصائح وقدَّم فلسفة مبسطة. تذكَّر على وجه الخصوص فتاة جميلة جداً كان غارسيا يغازلها. سألها: «هل أنت عاشقة؟» كان السؤال مفاجئاً. دَرْسٌ في الإغواء حفظه الرسام.

كانت تعتريه الرغبة للحديث مع إيمان، لكن نطقه لا يزال صعباً. لذلك قرَّر الإصغاء إليها وهي تدلِّكه. كانت ترتدي قميصاً أبيض تكشف بعض فتحاته عن جسدها. كان الجو حاراً وأرادت أن تتصرف على راحتها. فمريضها رجل لطيف ومحترم. ولم يكن ثمة شيء تخشاه. وهي تمرِّر برفق يدها على ذراعه اليمنى بقصد جعلها أكثر ليونة، راحت ترسم مداعبات، وهو ما أمتعه وجعله يبتسم، لكن كانت لا تزال ابتسامته قبيحة، وهو ما أزعجه كثيراً. تمتم: «شكراً، اعذريني؛ اروي لي حكايتك...» واستغرق وقتاً لإفهامها. تراجعت وقالت له: «بعد العمل، لديّ وقت اليوم. أولاً، سأهتم بذراعيك وساقيك، هذا مهم، لدي رغبة جامحة أن أراك معافى، قوياً وفي أحسن حال. كما تعرف، أُكِنُّ لك مودة فائقة. لا أعرف الكثير عن الرسم، لكن ألوانك وأشكالك تكلمني؛ لا أدري ما تقوله، لكنني سعيدة. أنت ترسم أشياء أفضل من أي مصور، عندك


Telegram: SOMRLIBRARY

يوجد عمل حقيقي، ويُلاحظُ أنه يستغرق منك وقتاً مديداً. أما المصور فيكتفي بالضغط على زرّ... حسن، لننتقل إلى الساق اليمنى، ابذل جهداً، يمكنك أن تتحرك، حسن، أنت تتجاوب!».

عندما ركعت على ركبتيها لتدليك القدمين، استطاع أن يرى صدرها. لم يعرف ما إذا كانت مدركة لذلك، لكنه أحبّ النظر إليه دون علمها. ظلّ دوماً يشعر بميل إلى النهدين.

بعد أن انتهت، اقترحت أن تسخِّن الماء لإعداد الشاي، وجلست بعد ذلك أمامه وراحت تروي حكايتها مثل **شهرزاد في ألف ليلة وليلة**.

كان يا ما كان، في سالف العصر والزمان، عاشت فتاة شابة تحلم طوال الوقت. لم تكن تعرف عن الحياة إلا ما يأتيها في أحلامها. في المدرسة، كانت ترى شخصياتها المتخيلة تتنزه بين الصفوف، وتظهر لها بوضوح حاضرة في الدرس. كانت لديها قدرة غريبة على العيش في عالمين، واحد متخيل وآخر واقعي، لكنها كانت تنتقل بينهما بيُسر. لم تكن أحلامها تشبه أحلام الشابات في مثل سنها.

كانت تحلم أنها تصعد الأهرامات متّكئة على ملك مصر الذي تعالجه بابتساماتها ومداعباتها.

كانت تحلم أنها تقود أوركسترا سيمفونية في قاعة واسعة ستمتلئ بأسرتها وأصدقائها. ولكل موسيقي نجمة تلمع فوق رأسه، ونغمة بسطتها الملائكة فوق مجموع المشاركين.

كانت تحلم أنها تجتاز المحيط الأطلسي وحيدة، لكنها صرفت النظر عن ذلك لأنها لا تعرف السباحة.

كانت تتخيل نفسها إماماً تتقدم المصلين في مسجد كبير


Telegram: SOMRLIBRARY

وتلقي موعظة تذكِّر بحب الرسول للنساء.

كانت تحلم أنها عصفور دوري يطير من غصن إلى غصن ويعطي إجابات عن دغل من الأسئلة.

كانت تحلم أنها أخت شهرزاد وتُحَضِّر لليلة الزفاف الأولى من الأمير؛ بدت أصغر من المعتاد، لكن لم تُفَوِّت شيئاً من المشهد.

كانت تحلم أنها تدير مشفى وأنها مزوّدة بعصا سحرية.

كانت تحلم بحبات تمر من السعودية وبكأس حليب ماعز.

كانت تحلم أنها لم تعُد تعاني من ألم الظهر في نهاية يوم عمل طويل.

كانت تحلم بنهارات صيفية طويلة تحت شجرة، محاطة بشخصياتها، تأكل العنب والفاكهة القادمة من بلاد نائية.

كانت تحلم أنه بوسعها أن تحلم طوال الوقت.

لهذا كان عليها أن تعمل أكثر.

توقفت ولاحظت أن الرسام استعاد تعبير وجهٍ شبه الطبيعي. كان يصغي إليها ويشرب كلماتها. أشار بعينيه أن تتابع. شَرَّبَتْهُ بضع رشفات شاي، ومسحت شفتيه، وعادت إلى مكانها لتتابع قصتها.

كان يا ما كان، كان هناك رجل مغتاظ. كان يتمتع بطيبة طبيعية استفاد منها أناس بلا قيمة.

قاطعها ضارباً بيده على الأريكة. هيأ ذهنياً ما كان يريد قوله: «أريد حكايتك، وليس حكايتي..» أدهشها ذلك ثم وعدته أنها ستحكيها في المرة القادمة.


Telegram: SOMRLIBRARY

لكنها في المرة التالية كانت مستعجلة. وقعت جدتها وانكسر عنق فخذها. فكر في والده الذي توفي بعد عشرة أيام من سقوطه عن كرسيه. حدث ذلك في أيلول، كان الرسام يعمل على إحياء ذكرى جياكومتي عندما رنّ الهاتف. قال له صديقه الطبيب: «في مثل هذا العمر، إنها مسألة بضعة أيام» شعر بحزن غامر. هذا الموت المفاجئ حرك فيه موجة غضب كبحها تاركاً الدموع تنذرف من عينيه. كانت زوجته مثالية. فوجئت كل العائلة التي قلّلت من قدرها برؤيتها تقوم بواجب العزاء على أكمل وجه. ولم يعد هناك مجال للسخرية أو التلميحات بشأن أصلها. سرَّه أنها نجحت في اجتياز هذا الاختبار.

كان لدى إيمان الوقت الكافي لإعطائه حقنة وإجراء بعض التدليكات، وقالت له إن ما كانت تحلم به حقاً هو أن تراه معافى وأن يرسم صورتها. «سأروي لك الكثير من الأشياء عندما سأجلس لترسمني، ستكون مندهشاً» وافق بإيماءة من رأسه.

بعد مغادرة إيمان، جاء المساعدان ليأخذاه إلى المرحاض. تلفظ بكلمة «حمام». نظر كل واحد منهما إلى الآخر مندهشاً ثم تساءلا إنْ كان ذلك مناسباً لمرضه. أحدهما استدعى الطبيب الذي قال لهما أن يتجنبا القاعة الحارة جداً والتدليك القاسي كما يمارسونه في الحمامات الشعبية. استأجرا القاعة ذات الحرارة المتوسطة واصطحبا الفنان على كرسيه المتحرك. كان سعيداً أن يرتبط من جديد مع إحدى ذكريات طفولته.

كان التوأمان فعالين وماهرين. أما هو فكان مرتاحاً ومستعداً للتخلص من بشرته الميتة. وصل رجل وفركه كما لو أنه ينتزع خضاراً


Telegram: SOMRLIBRARY

من الأرض. وطفق آخر يدلكه برفق. شعر بتحسُّن، وخاصة فيما بعد، عندما خرج ليرتاح في القاعة. غفا وشخر قليلاً. وفي المساء قرر ألا يتناول العقاقير المنومة. كان يشعر بما يكفي من الاسترخاء وأنه يستطيع النوم دون تناول جرعة مواد كيميائية. راودته أحلام اختلط فيها الجميع، زوجته وإيمان وآفا وأستاذة الرياضيات التطبيقية ومدير صالة عرضه وشخصيات أخرى تقاطرت طوال الليل. وفي الصباح، استولى عليه الخوف كما لو أن ما حلم به كان نذيراً، وينبئ بزيارات وداع للمحتضرين.

مثل جميع الرجال الذين يحبون النساء، فكر في موكب النساء اللواتي أحبهن. وراح يتخيل أيضاً أنه جمعهن يوماً في منزل واسع ويقول لهن كم منحنه من المتعة والسعادة. سيشكرهن ويقبلهن واحدة واحدة للمرة الأخيرة. وتساءل فجأة: «هل ستكون زوجتي موجودة؟ هل ستكون من بين اللواتي منحنني المتعة والسعادة؟» لم يرغب أن يكون ظالماً. المتعة؟ بالتأكيد. كان يحب مضاجعتها، لكنهما لم يتكلّما عن ذلك قط. لم يحدث هذا. فوجئ أنها لم تتفوه قط بكلمة واحدة عن علاقتهما الجنسية، ما عدا مرة واحدة قالت له غاضبة: «لستُ مُشبعة لا جنسياً ولا مالياً؛ أنتَ عنين!».

كان أمراً غريباً ومثيراً للاهتمام أن تربط الجنس والمال في الجملة ذاتها. كان قد قرأ فرويد وعرف الكثير عن هذا الموضوع، لكن وصفه بالعنين جعله يضحك بلطف. ما كان بمقدوره أن يجيبها أن النساء الأخريات لم يتذمّرن منه إطلاقاً، وإنما على العكس تماماً، لكن هذه الجملة راحت تطنّ في رأسه من حين إلى آخر كما لو أنها رنين منبّه أصبح مجنوناً. «حسن، موافق، ربما هذا صحيح،


Telegram: SOMRLIBRARY

إنها ليست مسرورة ولا مشبعة، لكنني أعرف أن هذا ليس صحيحاً، إلا إذا كانت تتظاهر، في هذه الحالة لا يسعني فعل شيء».

بعد هذه السكتة الدماغية، أعاد طرح السؤال على نفسه مجدداً: «لماذا لم نفلح قط في التحدث فيما بيننا وإجراء نقاش دون شجار، وفتح حوار دون رغبة في تحطيم كل شيء، وباختصار، في التفاوض والعيش بوئام معاً؟ هل أنا الوحش والشرير الذي تحدّثت عنه؟ هل أنا مختل الإدراك إلى درجة أن تلومني على أنني لم أشعر بنفسي معنياً قط بأسرتي وبما يجري في منزلي؟ أعرف أنّ كل هذا ليس صحيحاً، لكن من كثرة كلمات الاتهام، ينتهي الأمر بي إلى تصديق ذلك أو على الأقل إلى الشك. ربما هذا ما تطمح إليه، أن توصلني إلى الشكّ بنفسي، وقدراتي وتصرفاتي، وأن تجعلني في حالة لا يسعني الإفلات منها، تحت رحمتها، شيء من أشيائها، ضحيتها، وأن تستطيع التصرف كما يحلو لها، كما لو أن آية الله أوكل إليها أمر هذا المنزل». آية الله، غالباً ما سمّته على هذا النحو. هل كانت تعرف على الأقل ما يعنيه ذلك؟ في ذهنها، كان الأمر يتعلق بشتيمة.

تبدأ الهزيمة منذ اللحظة التي ينجح فيها الخصم في جعلك تشكّ في نفسك بنفسك، إلى أن تشعر بأنك مذنب وتصبح مستعداً للتصرف بحسب رغبته، والخضوع لمتطلباته.

اعترف له أحد أصدقائه أنّ زوجته تنشب أظافرها فيه عندما يتشاجران. «قال للرسام، الحرب أبدية بيننا. سيأتي يوم أتوقف فيه عن القتال. انظر، كل أصدقاء طفولتنا استسلموا أمام زوجاتهم، خضعوا ويعيشون بسلام. أنا لم أصل بعد إلى هذا الحدّ. سأناضل حتى اللحظة التي سترسلني فيها إلى المقبرة!».

مع ذلك كان كاتبٌ من أصدقائه يبدو أنه يعيش في سلام


Telegram: SOMRLIBRARY

استثنائي. ليس فقط أن زوجته لا تنكِّد عليه، وإنما تساعده أيضاً، وترعاه، وتغمره بدلالها، وتبادر كي لا يزعجه أحد أو أي شيء. سأله الرسام عن سرّ ذلك. بعد تنهيدة عميقة، قال له الكاتب: «ليس عندي سرّ، تركت لها ببساطة كل شيء. تراقب كل شيء. لا أعرف رقم حسابي المصرفي، ولا أسافر أبداً بدونها، ولا أقابل أحداً خارج الحلقة الضيقة. تدخل إلى بريدي الإلكتروني وإلى هاتفي النقال وإلى بريدي... وهي التي تجيب نيابة عني. الصحفيون يخافون منها وأنا تخلّصت من كلّ هذه الهموم. لا أتذكر المرة الأخيرة التي رأيت فيها امرأة أخرى عارية. لذلك، من حين إلى آخر، أشاهد أفلاماً إباحية أثناء نومها لأملأ الفراغ. أخرج على رؤوس أصابعي من الغرفة، وأمتع نظري، أحياناً أستمني. إذا أردتَ السلام، فها أنت تعرفه الآن».

الاستسلام؟ أي التلاشي! بماذا يفيد أن تتصاغر إلى درجة لا يعود معها أحد يلاحظك؟ أليست العلاقة بين اثنين إذاً ممكنة إلا إذا كان أحدهما ظلاً؟ أعاد الرسام قراءة كتاب لصديقه. كتابٌ أهداه لزوجته ويحكي فيه قصة موظف في وزارة الداخلية في ظلّ الديكتاتورية يقضي نهاراته في تعذيب المناضلين السياسيين، لكنه حين يعود إلى منزله مساء يصبح أباً وزوجاً مثالياً. في الصباح، يوصل أبناءه إلى المدرسة، ويقبِّلهم، ويزرِّر ياقات قمصانهم خوفاً من إصابتهم بالبرد، وبعد ربع ساعة، يخلع بزته ويشمِّر عن ساعديه ويمارس التعذيب في قبو إدارته. كان مرتاح الضمير.

كان التلميح إلى الحالة الشخصية للمؤلف واضحاً. مع ذلك لم يقُل الرسام شيئاً، لكن الحياة على هذا النحو كانت بالنسبة إليه مرفوضة.


Telegram: SOMRLIBRARY

# الفصل الخامس عشر

## الدار البيضاء، 28 آب/ أغسطس 2000

«حين توجد وصفة ناجعة للسعادة الزوجية، سيكف الناس في الحال عن التزاوج فيما بينهم».

**هبني عينيك**، ساشا غيتري

بعد أن تعب الرسام من اجترار أفكاره السوداء ذات ظهيرة صيفية حارة، أغمض عينيه وقرر أن يستعرض نساء حياته. في البداية، وكما في حلم، امتزج بالأفق واصطبغ بألوان الشمس الغاربة.

فجأة، وصلن جميعهن معاً. كان بوسعه رؤيتهن دون أن يرينه. بعضهن يرتدين الأسود، وبعضهن الآخر يرتدين الأبيض، وجميعهن في حداد. مع أنه لم يكن بعد ميتاً. لعلهن لبَّين هذه الدعوة الغامضة من أجل حفلة وداع؟

وحدها كريس مزيَّنة بكل الألوان. امرأة ذات عينين لوزيتين، ووجه رضي، وذراعين محملين بالهدايا. راحت تبحثُ عنه ولم تجده. حين التفتَتْ، شاهدت النساء الأخريات يتقدمن نحو الأفق دون أن يتكلمن. ظنَّت أن هذا حلم، إلا أنّ الحلم لم يكن حلمها، إنما هو حلم الرجل الذي أحبَّته دون أن تعيش معه.

إنها حكاية لا تشبه الحكايات الأخرى. وُلِدَ الحب فجأة



Telegram: SOMRLIBRARY

وتوقف أيضاً بغتة. كانت مشبعة بالاستيهام والأماني لأنها أحبت الفنان قبل أن تلتقي الإنسان. كان الحب جارفاً، وذات صباح استيقظت وأعلنت له: «هذا انتهى!» نظر إليها، وأومأ بحركة تعني أنه ليس موافقاً، لكنها كانت جدية، وتغيَّر وجهها وطريقتها في الحركة أيضاً. أصبحت ضائعة المعالم، وصارت من جديد، في فضاء الليل، المرأة التي لديها كثير من العمل لتنجزه. اعترفت له أنها تخاف الرجال وأنه لم يفتأ يؤكد هذا الخوف عندها، وشكرته كما لو أنه إطفائي أو كهربائي يقوم بإصلاح أو ترميم عطل في منزله.

قبل أن تغلق الباب قالت له: «سأكون دوماً صديقتك، انتهى الجنس، أحب وحدتي التي أخونها أحياناً مع رجل، أُفضله من صنفك، وسيماً، ليس متقدماً في السن، مشهوراً. بعد ذلك، أعود إلى حياة العزلة وإلى عملي الذي يستهويني ويمنحني الكثير من الرضى. عندما تجتاحني الرغبة، أداعبُ نفسي، ومن حين إلى آخر لديّ وسيلتي المتواضعة التي تثيرني جيداً وتمنحني نشوة الجماع. هو ذاك يا عزيزي، واعلم أن الأمر كان رائعاً جداً، ومبهراً. وداعاً!».

بقي متسمراً من ذلك لبضع لحظات، ورأى في فضاء الفصل شخصاً يعبُر بسرعة من حيِّز إلى آخر فأثاره كثيراً. لم يكن لدى كريس حسّ الفكاهة ولا النضج في علاقاتها مع الرجال. لعلها كانت تفضِّل النساء ولم تتجرأ على البوح بذلك؟ مع هذا، كانت تقول إنها أحبَّت مضاجعته. لم يُصِر، ومَزَّق الصور الملتقطة لهما خلال بعض الأسفار، وقرر أن يقلب الصفحة.

بعد ذلك مرّت زينة، حبّه الأول، بقربه. رافقته ذكراها طوال حياته دون أن يلتقيها ثانية أبداً. لم يكفّ عن البحث عنها في وجوهٍ



Telegram: SOMRLIBRARY

أخرى، سمراء ذات بشرة كامدة وجسد منحوت من الشبق والرغبة. انتهى غرامهما نهاية مأسوية وكانت منذ البداية أخطر كبت في حياته العاطفية. مع زينة لم يمارس الجنس ممارسة كاملة قط؛ كان ينتظر يوم الزفاف الذي لم يأتِ البتة لأسباب معقدة؛ وكانت العذرية في تلك الفترة أمراً غير قابل للتفاوض، فاكتفيا بالمداعبات واحتكاك الجسدين حتى بلوغ القذف الذي يضطر إلى مسحه بمناديل يغسلها في المغسلة عند عودته إلى منزل والديه. كانا يتداعبان في الزوايا المظلمة لضواحي المدينة، في المقابر، حتى جاء يوم طردهما الحراس وهم يرمونهم بالحجارة. أصابها حجر شَجَّ صدعها. فاضطرت لإخفاء أثره بوشاح حتى اختفى. وراحا يلتقيان في منزل صديقة سافر والداها إلى مكة. أحبّا تلك الفترة التي شعرا فيها بالأمان، لكنها ظلت ترفض الإيلاج. راحا يكتشفان الجنس والحب بسذاجة المراهقة. وَسَمَتْهُ هذه المرحلة ودهاليزها السرية. ثم رآها في أحد الأيام في الطريق، يداً بيد مع رجل يكبرها في السن. انتهى كل شيء، لم يعُد هناك إلا خيبة الأمل، وكان هذا كارثة. ابتسم وهو يعيد التفكير بها لأن الغيرة جعلته مثيراً للسخرية.

بعدها بثلاثين عاماً، كانت زينة تمرّ أمامه في هذا الفضاء الأبيض الذي يجري فيه الرسام جردة حساب. أصبحت الآن محجّبة وتسبِّح بالسبحة. أصبحت مؤمنة ويُقال إنها تتردد على الحلقات الصوفية للروحانيين الإسلاميين.

فجأة، رأى أنجيليكا تنفصل عن الجمع بلطافة. كانت بهلوانية يونانية، جميلة، لكنها غريبة الأطوار على نحو مرعب. كانت قد لعبت معه دور الساذجة، لكنها في الواقع لم تُضِلْ طريقها قط. كانت



Telegram: SOMRLIBRARY

أنجيليكا بكل بساطة امرأة جذابة. لم تكن تحب الرسام، لكنها استمتعت بمضاجعته. كانت قد اقترحت عليه أن يكتشف معها المناطق النائية من بلدها في عزّ الشتاء. وهو مُوَلَّه بها، صرف القليل من المال الذي يملكه في تلك الفترة ليلحق بها أينما وجدت. كان جمالها لغزاً، وجسدها رشيقاً، ومزاجها متقلباً، لكن صوتها ما زال مفعماً بالشبق. تركها يوم طرق بابها رجلٌ آخر قادم للبحث عن خطيبته. شعر الرسام أن الممثلة الهزلية التي ضاجعته بمهارة غدرت به واستعملته وسرقته. لا يزال حتى اليوم يشعر بالمرارة، مع أنه نجح في محو ذكرياتها. لم يكن قد دعاها، لكنها جاءت رغم كل شيء، بهيئة امرأة تَصَادَفَ مرورها من هناك. ظلت أنجيليكا تتمتع دوماً بالذكاء والفطنة.

الوحيدة الصهباء التي أحبّها في حياته تَقَدَّمَتْ جميلةً كما في يوم لقائهما. أغراه فيها عيناها الزرقاوان وحسها الفكاهي وضحكتها. كان قد دعاها لتلتحق به إلى المغرب في فترة لم يكن قد تزوج فيها وكان يبحث خلالها ليس عن المرأة المثالية إنما على الأقل عن المرأة التي تحرِّك فيه الرغبة بالعيش معها. تذكر اللحظة التي وصلت فيها على سفينة وأنه رآها مشرقة بين حشد المسافرين المتعبين. كان يحب هذه اللقاءات في المحطات والموانئ. كان هذا جانبه الرومانسي. أمضيا أياماً ماجنة... وسافرا بعد ذلك إلى كورسيكا وانتهت علاقتهما على نحو مفاجئ، دون تفسير ودون تعليق. كان ينتظرها في مطعم مغربي لم يزل يتذكر ديكوره والوجه القلق للصبي الذي اعتاد على خدمته والذي أدرك أن شخصاً تخلف عن موعده معه. قال له ليواسيه: «أنا أفهمك، لو فعلت بي امرأة هذا، لأشبعتها


Telegram: SOMRLIBRARY

ضرباً» رفع عينيه وقال: «لا، لستُ من هذا النوع، وليس هذا أسلوبي. النساء، باللطف نحتفظ بهن وليس بالكلمات. هذا ما يجعل منا في المغرب متخلفين عن كثير من المجتمعات».

وفيما كانت تمشي أمامه دون أن تراه، كانت الصهباء الجميلة تفكِّر بشدة في عشيقها لبضعة أسابيع، ذاك الذي تسميه «صديقي الثمين»، والذي هجرته فجأة حتى لا تحتفظ منه إلا بذكريات جميلة.

فجأة، سَحَبَتْ يَدٌ الرسام من حلمه العذب الذي غرق فيه. إنها ممرضة جاءت لتعطيه الحقنة. وهو لا يزال مذهولاً من أحلامه، ظنّ أنها من مجموعة النساء اللاتي أحبهن، لكنها كانت سيدة ترتدي ثياب رجل، جدية وبلا دعابة. راحت تنجز عملها بصمت، وحتى لم تكد تسأله أين يفضل أن تحقنه.

عندما غادرت، شعر بالقلق يغمره. ومع حلول الليل، أصبح الضوء حزيناً في مرسمه. وبخلاف كل توقع، جعله ظهور هذه المخلوقات المحبوبة يشعر بالحنين، شعور كان عليه أن يتجنبه بأي ثمن - وكما كان يقول: «الذكريات تُضجِرْ» ثم أنهكه التعب من جديد. وطفق ينظر من حوله رافضاً أن يصدِّق أن حياته انتهت، وأن عمله بقي غير منجز. أراد أن يتحرك، لكنه لم يفلح في ذلك إلا بمشقّة. كره نفسه واعترته رغبةٌ بالصراخ. فكَّر أنه لو نجح في هدم ما هو موجود حوله، لكانت تلك طريقة على الأقل للرد على نداء هذا الموت المستقر فيه بلا حياء. وراح يردد: «الموت هو المرض».

فجأة، سمع صوتاً يقول له: «لا تستسلم للانهيار، تشجّع، إنها لحظة عصيبة وتمرّ. هيا، الحياة تناديك، إنها ساحرة، صدقني...» بحث ليعرف من أين يصدر، وتَلَفَّتَ بقدر ما استطاع. إنه ابن أخته


Telegram: SOMRLIBRARY

الأثير، المهندس المعماري الشغوف بالموسيقى وكرة القدم، الذي جاء لزيارته. أحضر له آيبود ملأه بأغاني سنوات السبعينيات. لم يمكث فترة طويلة، وضع ببساطة السماعتين في أذنيه قبل أن يغادر، وشَغَّلَ الجهاز وتركه مع بوب ديلان.

أغمض الرسام عينيه، وأصغى إلى الموسيقى، وانتظر أن تستأنف نساء حياته تقاطرهن، كما لو أنه في السينما، وأن ينطلق الفيلم من جديد بأعجوبة. فجأة، ظهرت على مسافة أمتار منه الصحفية التي كانت تضحكه لأنه يسخر من ردفيها وصدرها الصلبين واليابسين كصدر وردفَي نموذج شمعي. وأكثر من ذلك كانت طريفة، وزّعت نفسها في تلك الفترة بين صديقتها الأثيرة وخطيبها الرسمي. اعترفت له على الفور أنها كانت تحبّ تنويع اللذات وأنها جامحة الطموح. فضلاً عن ذلك، أحرزت بالمحصلة نجاحاً باهراً في مهنتها. تذكّر الرسام المساء الذي رآها فيه متربعة في قاعة الإيليزيه. كانت تجري حواراً، برفقة صحفي آخر، مع رئيس الجمهورية. استمتع في تخيلها عارية تماماً وهي في أوضاع ماجنة ومعقدة كانت تحبها. عندئذٍ أصبح كلّ ما يقوله الرئيس مضحكاً.

كانت تمشي برشاقة أمامه، لكنها لم تكن تراه. تساءل عن سبب تلبيتها لدعوته. لعلّها تزودت بكاميرا خفية لتنتزع آخر سبق صحفي عن مأتم رسام تضاعفت أسعار لوحاته.

جاء دور من كانت تذكِّره بغاي دينواي في فيلم **التدبير** لإيليا كازان. كانت صديقة ضاجعها بيُسر وعاش معها بلا منغصات. جاءت لرؤيته لأنها كانت تُحَضِّرُ أطروحة عن الفن التشكيلي المعاصر


Telegram: SOMRLIBRARY

وتأثيراته. كانت نشيطة وشجاعة؛ وكان لديها حسّ الدعابة والخفّة، وهو ما أعجبه كثيراً. ولدت من زواج مختلط، أب تونسي وأم فرنسية، واحتفظت بالاثنين على المستوى الثقافي، وفَضَّلَت التحدث باللغة العربية مع لُكْنَة. كانا يضحكان كثيراً وغالباً ما تجامعا في أيّ مكان. كانت تقوده إلى أمكنة لا يعرفها وتمنحه نفسها بشغف. وعندما كانت تصل إلى منزله بالتنورة، كان يعرف أنها لا ترتدي سروالها الداخلي. فيمرِّر يده بين ساقيها ويطلق صيحة فرح. كان يعشق كل تنانيرها، حتى تنانير الشتاء. وعندما كانت تصل مرتدية البنطال، كان يعرف أنها في فترة الحيض أو أنها لا ترغب بالمضاجعة.

انقطعت علاقتهما يوم عادت إلى بلدها لتتزوج. هي أيضاً كانت ضمن مجموعة نساء ما قبل الزواج. أحياناً، كان يأسف لأنه لم يقترح عليها أكثر من العلاقات الجنسية. كانت تتمتع بأخلاق رفيعة ولطف حقيقي وبكثير من السحر.

في المرحلة ذاتها، التقى طالبة مغربية ذات بشرة استثنائية. سافرت لمتابعة دراستها في كندا وماتت فجأة في سنّ الرابعة والعشرين. ظلت ذكراها تلاحقه وآلمه موتها مع أنه لم يعرفها حق المعرفة. كانت تمنحه نفسها بجموح وتأمل شيئاً آخر غير اللقاءات بين درسين. بحث عن شبحها دون جدوى.

هذا العام كان أيضاً عام اللقاء بمغربية أخرى تحمل جمالها كعبء ومأساة وشيكة الوقوع. كانت عيناها رماديتان، عينان واسعتان، لكن شيئاً ما كان يعتمل في داخلها. لم تفلح في أن تغدو سعيدة، وغالباً ما بكت وكان جسدها يتشنج عندما يداعبه. كان أول مرة يقيم فيها علاقة مع امرأة مصابة بالبرودة الجنسية. كانت تبكي،



Telegram: SOMRLIBRARY

وتتكور في حضنه وتلتمس منه مداعبات مديدة ورقيقة، وهو ما كان يهدئها ويساعدها أن تغفو على كتفه. أدرك أنها كانت قد تعرّضت لصدمة، لكن ليس من شأنه أن يقوم بدور المحلل النفسي. أبوها حاول اغتصابها. كانت تشعر بهذا كجرح مميت. أفهمته ذلك بالإيماءات ووارت وجهها في الوسادة ثم انتحبت طويلاً. تزوجت، وأقام لها والداها عرساً كبيراً. زوجها، وهو رجل لطيف وبلا كاريزما، لم يعرف كيف يهتم بها. كان يعود متأخراً ويهملها. استنجدت بأحد أصدقائها، لكنه في ذلك المساء كان يعاني من التهاب اللوزات ولا يسعه التنقل. حدّثها ووعدها أن يأتي لرؤيتها بمجرد أن تتحسن حالته. لم يكن يرغب أن يصيبها بعدوى تلك الجراثيم كما قال لها. حاول إضحاكها، لكن على الطرف الآخر من خط الهاتف، لم يكن هناك إلا صوت بعيد لامرأة يائسة. قال لها: «انتظريني، أنا قادم» وعندما وصل لم يجد أحداً. كانت قد ذهبت بالسيارة إلى شاليه على الشاطئ، وابتلعت كمية كبيرة من الأقراص المضغوطة ونامت. هزّ انتحارها مشاعر جميع الناس، لأن كل الفتيان من أترابها كانوا مولعين بجمالها وكل الفتيات كن غيورات من لطفها ورشاقتها.

ثم حضر من كان يسميهن «الطالبات»، اللاتي كن يأتين لرؤيته لأنهن يُحَضِّرْن بحثاً أو عرضاً عن الرسم والمغرب. كن جميعهن سريعات التأثر باستعداده ويستسلمن بسهولة لتلميحاته السرية. بعضهن يأتين لبضعة أشهر، وأخريات يختفين. كان يجد ذلك مؤسفاً، لكنه سرعان ما ينساهن. كنّ جميعهن تقريباً حاضرات، يمشين في هذا الحلم، سعيدات بزيارتهن لماضٍ مشترك. لم يعُد



Telegram: SOMRLIBRARY

يتذكر الأسماء، لكنه تذكر عطورهن وحركاتهن الحميمية. كانت توجد بينهن آسيوية جميلة، عادت إلى النظام بعد أن افترست عدداً لا بأس به من الرجال، ولم تظهر ثانية. راح يتذكر طريقتها الملتهبة في المضاجعة. عندما علم أنها أصبحت متدينة، لم يفاجئه ذلك البتة.

كانت توجد تلك التي تكتب الشعر باللغة العربية وتحلم أن تنجز كتاباً مع لوحاته. استولت عليه بطريقة ذكية وحرفية: أرسلت له بضع مجموعات مع نسخة عن بورتريه لها رسمها اليوناني فاسيانوس. امرأة جميلة في رسم جميل. وما إن دخلت إلى محترفه حتى أدرك أن شيئاً ما سيحدث بينهما. إنها مسألة حدث ونظرة. لم تكن متقدمة في السن، لكن شعرها أسود رائع وعيناها رمادية مخضرة. تكلّما في السياسة، فهي قادمة من منطقة مزّقتها سنوات عديدة من الحرب. لم تتفوه بكلمة عن موضوعها. وهي تغادر، طلبت منه معروفاً: أن تستطيع دعوته إلى العشاء. «إنني أنا بالأحرى من سيدعوك الأسبوع القادم - قالت له، ليست مشكلة، أنا مصرّة، ثم إنني سأكون الأسبوع القادم في اليونان». في اليوم التالي، تعشيا في مطعم هادئ. هي من قالت له: «هل أنت حرّ هذه الليلة؟» فأجابها بطريقة مراوغة: «في الليل، أنام، على الأقل أحاول أن أنام» فتأبّطت ذراعه وهمست: «هذه الليلة لا أرغب بمضاجعة صديقي، بل مضاجعتك أنت. لن أنام إلى جانبك، سأعود بعد المضاجعة».

استمرت هذه العلاقة العارضة عامين. كانا يلتقيان على فترات متباعدة في باريس، لكن خلال الأسفار. وذات يوم، وجّه صديقها لها إنذاراً نهائياً: «إما أنا أو هو» فاختارت الأمان وتزوّجا بعد بضعة أشهر.


Telegram: SOMRLIBRARY

على نحو غريب، رآها في هذا الموكب بصحبة زوجها، الأكبر سناً منها ووزناً؛ لا بد أنه كان يتمتع بخصال خفية.

كانت هناك من يدعوها بـ«ملاك برازيليا»، طالبة شابة في تاريخ الفنّ جاءت إلى محترفه يوماً مبعوثة من طرف أستاذها المتزوج ابنة عمه المغربية. كان جمالها يذكّره ببعض الممثلات المصريات الممتلئات. عندما صافحها أغمي عليها. كانت المرة الأولى التي يشهد فيها حالة إغماء. أنعشها على قدر ما استطاع؛ ثم بعد أن استعادت وعيها، اعتذرت منه واعترفت له: «عندما يلمسني رجل يعجبني، يُغمى علي» ابتسم ووعدها ألا يلمسها بعد. فردّت ضاحكة: «لكن هذه عقوبة!». أصبحت عشيقته في فترة إقامتها في باريس، ثم التقيا في بوينس آيريس. كان كل لقاء بينهما احتفالاً، تترك نفسها على سجيتها وتكلمه بالعربية، بكلمات حفظتها عن ظهر قلب. أصبح الحبُ صداقةً وحناناً احتفظا به في قلبيهما بعناية. كانت تقول إنه أكثر رجل أحبّته؛ فيلزم الصمت؛ كان يحبها كثيراً، لكنه لم يكن يستطيع إظهار هيامه بها.

فتح عينيه ونظر حوله واستدعى التوأمين بالضغط على زر الجرس، وأفهمهما أنه يرغب في الخروج بنزهة صغيرة. قال في سره إن هناك شيء من التصنيف الاصطناعي في هذا الموكب. كان يكره نفسه ويرفض الاكتفاء بهذه الصور التي تجتاح روحه كلّما أغمض عينيه.

في المساء، احتسى القهوة آملاً أن يضع حدّاً لهذا الموكب، لكن مخيلته أجلسته في شرفة راح يُعْجَبُ منها بالنساء اللواتي يعبرن بأناقة.


Telegram: SOMRLIBRARY

كانت توجد كارولين، المرأة ذات الساقين الكاملتين التي تعرف عليها وهي تقاوم سرطان الثدي. كانت كائناً استثنائياً من الحساسية والحنان والذكاء. كان يسعد برؤيتها والإصغاء إليها وضمّها إلى صدره ومساررتها. انتهت هذه الصداقة إلى حبّ رصين. كان يشقّ عليها أن تظهر عارية أمامه، بعد أن خضعت لعملية استئصال الثدي. مضاجعةُ جسدٍ يعتور جماله عاهة! هذا شاق وخطير. كيف تعبِّر له عن ذلك وكيف تخبره؟ احمرّت وقالت له ذلك ببساطة: «خلصوني من ثدي الألم، لكنني أنتظر أن يضعوا مكانه ثدياً اصطناعياً قبل الصيف، لأنني سأذهب مع أبنائي إلى شاطئ البحر». طلبت منه أن يغمض عينيه عندما تتعرى وأن يطفئ النور. كانت تحتفظ بضمادة حول صدرها. راح يلمسها بلطف ويداعبها بحذر. لعق الدموع عن خديها وضمّها إليه دون أن يؤلمها. استغرقا بعض الوقت للاعتياد على ذلك، ولأجل هذا لم يجدا شيئاً أفضل من الدعابة. لذلك راحا يضحكان ويتمازحان ويتصوران وضعية الثدي الجديد ويتعاهدان على الذهاب لعرضه على الشاطئ الجميل. لاحقه الثدي المفقود لفترة طويلة. وراح يفكر فيها ويشعر بالغضب إزاء هذا الظلم الذي انقضّ على هذه الروح الجميلة، هذه المرأة الرضية، الطيبة والحنونة.

لن تذهب إلى الشاطئ. كابدت هذه المرأة ألماً فائقاً. وتمتّعت بالشجاعة والأمل. وطفقا يتراسلان بدل أن يلتقيا. وهذه رسالتها الأخيرة:

أكتب إليك من قاعة انتظار، مرعبة مثل جميع قاعات الانتظار في المشافي. أرتدي منامة وأضع وشاحاً على رأسٍ تساقطَ شعره،



Telegram: SOMRLIBRARY

أشعر أنني قبيحة ومنبوذة من الحياة، لكنني مطمئنة، الطبيب صديقي، وهو رجل مسن ما زال يمارس مهنته رغم بلاهة القانون الفرنسي، يجعلني متفائلة، ويعرف كيف يكلمني وماذا يقول لي. أنا هنا وأفكر فيك، أنا هنا وأرى عجائز يعبرون أمامي، هزيلين جداً وقد تركهم الموت في رواق، أفكر فيك وأتوسل إليك أن لا تدع أحداً يطعن في نزاهتك كفنان وإنسان، وأن لا تعطي حقاً لأحد في أن يدوسك وأن يسرق منك أثمن ما عندك، عملك وفنك ولطفك. أقول لك ذلك لأنني أعرف أن حساسيتك غالباً ما أرهقتها أنانية الناس. كن قوياً وطيباً، واستمر في إدهاشنا ومنحنا أفضل ما عندك.

أنا هنا وأنتظر وأعرف أنني أريد العيش، وتعتريني رغبة أن أصرخ ليسمعني الله، إن كان موجوداً، ويمنحني القليل من الوقت، فقط لأحب أكثر، ولأضاجع، وأتناول طبق عدس، وأشرب نبيذاً فاخراً وأدخن معك سيكاراً. أنتظر هذه اللحظة، وسأقتنصها أينما توارت، ولن أدع أحداً يخطفها مني.

ثمة امرأة بجانبي، تنظر إليّ وأنا أكتب. تميل نحوي وتقول لي: «كم أنت محظوظة، تكتبين إلى شخص تحبينه على ما أتصور؟ أنا ليس لدي مَن أكاتبه. هجرني أبنائي وزوجي مات وجميع صديقاتي في المأوى، بلا ذاكرة. حسن، قولي شيئاً لطيفاً لهذا السيد. قولي له أن جيزيل تقبِّله. سيعرف أنه توجد في هذا العالم امرأة تبلغ الثالثة والثمانين من العمر لا يعرفها وتقبله. شكراً»

وها أنذا قد فعلت، يا حبيبي، يا شجرتي وموسيقاي، يا أجمل حماقاتي. جاء دوري الآن، وسأدخل لعند الطبيب. لا تنسَ، لا تدع أحداً، ولا تسمح لأحد أن يطعنك في نزاهتك.



Telegram: SOMRLIBRARY

حمل في داخله لزمن طويل حداداً لا يوصف على هذه المرأة، لم يستطع أن يتقاسمه مع أحد. ودَّ لو استطاع أن يعيش معها لأنها كانت تُوَلِّدُ فيه صفاءً جوهرياً؛ كانت تمنحه السكينة وتحبه. لم يحظ معها إلا بلحظات من اللطافة. كانا قد تعارفا خلال معرض استعادي لأفلام بيلي فيلدر. وكانا مولهين بسينما تلك الفترة، مثل سينما لوبيتش وكابرا. راحا يتكلمان سهرات بكاملها عن هذه اللحظة أو تلك لأورسن ويلز في فيلم **عطش الألم**. ولو أنّ المرض لم يقضِ عليها وهي شابة وجميلة وحيوية، لكان أنهى أيامه معها. طفق يحدِّث نفسه بهذا حتى يحافظ على ذكرياتها حية. وعندما علم أن رفاتها نُثِرَ في أفريقيا هناك حيث عاشت طفولتها، انتابه لبرهة الاضطراب والذعر. كيف لهذا الجسد الذي ضمّه مراراً أن يتحلل إلى رماد ممتزج بالرمل في أرض بعيدة؟ كانت هذه الفكرة تعذبه. أقصاها وتابع التفكير فيها في لحظات حياتها الأكثر سطوعاً. لم يزل يسمع صوتها العذب وقهقهاتها. ذات يوم اتصلت به ابنتها وقالت له: «حلمتُ بأمي، إنها سعيدة، وقالت لي أن أتصل بك لأقول لك أنه يجب أن تنتبه لنفسك وأنها تحبك» مكث مذهولاً ووضع ريشته وأعاد قراءة رسالتها التي خبأها في درج مقفل بالمفتاح.

كان قد خصَّص لها مكاناً مفضلاً في هذا الحلم، لكنها لم تأتِ. شعر بالحزن ونسي تذكّر ملامحها كما لو أن ذلك حدث له إثر صدمة انفعالية قوية.

صورة آفا هي التي فرضت نفسها عليه مكانها. في البداية، عيناها الصافيتان، الخضراوان، الرماديتان، وشعرها كغرة اللبوة، وقامتها الممشوقة، وصوتها الشهواني بطبيعته، ثم هذا الجسد الرقيق


Telegram: SOMRLIBRARY

الذي كان يُغرقه في هذيان يثير فيها موجة ضحك مجنونة. هبطت آفا على حياته بعد بضعة أشهر من هذا الحداد السري، مثل زوبعة، كنوع من المطر الجميل الذي يُدهشه ويجعله يجثو على ركبتيه أمامها. لقاءٌ مقتطف من صفحات لنابوكوف أو بوشكين، أو مقتبس في بعض النواحي من فيلم **ذهب مع الريح**، أو من فيلم **باندورا** الذي لعبت فيه آفا غاردز دور آفا، ما خلا أن آفا لا تجلب الشؤم والخراب. كانت حباً، وجنوناً هادئاً، وسفراً. كان ثمة سرّ وجاذبية في نظرتها، لكن ثمة فرح بالحياة أيضاً. عندما التقاها، عرف على الفور أنهما خلقا ليعيشا حباً جامحاً. لم يعُد هو ذاته، منذ أن قدّمت له ورقة صوّرت عليها رسماً لماتيس، وهي طريقتها في تقديم نفسها له. وعلى ظهر الورقة، كان يوجد رقم هاتف وتوقيع على شكل نيزك. عندما اتصل بها، انفجرت ضاحكة كما لو أنهما يعرفان بعضهما مسبقاً ولهما ماضٍ مشترك. قالت له: «رسومك تؤلمني، لدي الكثير من الندوب في حياتي، وأنت ليس من حقك إضافة ندوب إليها» ثم أضافت: «تاراتاتا، تاراتاتا...»

أدركت آفا أنها وصلت إلى حياته في اللحظة التي لم يعُد فيها شيء على ما يرام في علاقته مع زوجته. كان معذباً وحزيناً ومتعباً من مواجهة الرياح المعاكسة، مع رغبة بالخلاص منها حتى يسترد حريته. كان يقول ذلك لزوجته، فترد عليه: «هذه ليست مشكلتي، أنت أنجبت أطفالاً، لذلك عليك أن تتحمل!» حاول دون جدوى أن يشرح لها أنهما يمكن أن ينفصلا دون أن يسببا ألماً للأطفال، وأنه لا يمكنهما معاندة القدر وأن جميع محاولات التوفيق بينهما فشلت، لكنها لم تسمع شيئاً من هذا النقاش وراحت تعاند بإصرار أذهله.


Telegram: SOMRLIBRARY

كان يصارع وحيداً. الكلمات تتلاشى وتتطاير غباراً في الهواء. لم تكن تسمعها وتصدّها حتى قبل أن تصل إلى مسامعها. وحدها الأفعال كانت تجعلها تخضع قليلاً، وكانت ترى فيها يدُ ساحر أو يد امرأة استراتيجية قررت أن تهدم منزلها. كانت تسقط مريضة، وتنزوي في غرفتها، وتترك المنزل مهملاً، وتقول للأطفال أنها تعاني لأن والدهم وحش، وتبكي وتهزل وتجعل الجو خانقاً. قال الطبيب للرسام على انفراد: «إنها تبتزّ بالإحباط، انتبه، قد تتعرض لانهيار إن لم تكن هذه حالها الآن» كانت تتجرع أدوية، لكنها ترفض التحدث مع طبيب نفسي.

في تلك الفترة حقَّق عمله نجاحاً باهراً في بينال بالبندقية؛ واستهوى العديد من صالات العرض في أوروبا وأفريقيا. كان عليه أن يرسم، لكن تدهور علاقتهما الزوجية استولى على روحه. اكتشفت زوجته آفا، لكنها لم تفلح في معرفة المزيد عنها. لا اسمها ولا مكان عملها. وطفقت تتوسل إليه أن يقول لها من تكون. قاوم، ورفض الحديث في الأمر، وقلَّل من شأن المشكلة، ولم يمتلك الشجاعة للاعتراف بكل شيء خشية أن يتسبب بكارثة. وكانت قادرة على ذلك، لأن لا عقلانيتها كان يمكن أن تُحدث دماراً. كانت تكرهه وترميه بكلّ ما تطاله يدها وهي تشتمه لتجعله يشعر بالذنب. كان الأطفال يتفرّجون على هذه المشاهد الميلودرامية متسائلين عن الذنب الذي اقترفه والدهم. لم يكن يريد أن يحشرهم في هذه الأزمة، لكنها تكفَّلت بالأمر وحرَّضتهم. وهي تشعر بالغدر، راحت تسعى بكل الوسائل للانتقام، ولتردّ له الألم الذي يسببه لها بخمسة أمثاله. التزم الصمت وراح يفرّ ويتركها في اضطرابها. لم يتحدث مع آفا بالأمر؛ لم يكن لديهما متسع من الوقت وكانا يحرصان أن



Telegram: SOMRLIBRARY

يعيشا كل لحظة فيه. كانت رغبته بهجر زوجته قوية، لكن ضعفه، أو ما تسميه زوجته جبنه، منعه عن اتخاذ مثل هذا القرار.

وإلى خافية الليل انضاف سرّ الأرق، وراح ألم حادّ يحرث جسده وروحه. كان يعاني من ارتفاع الضغط الشرياني وكان يعالجه دون أن يفلح في جعله متوازناً تماماً. ثمة وخزات كانت تصعد إلى مستويات مقلقة؛ ثم يعود من جديد طبيعياً. كان يخاف الليل ومن خطر انقطاع تنفسه. وبات يخشى قدوم المساء واللحظة التي سيأوي فيها إلى فراشه. كان ينام في محترفه، وكانت أعضاؤه ترتعش بارتجافات عصبية منهكة. فينهض ويمشي بضع خطى في هذا المكان المرتب على أكمل وجه حيث وضع لوحاته وأدواته ومجموعة كتبه عن الفن ووثائقه. يشرب ماءً ويتجرع مسكنات ثانية، ويعود للتمدد وينتظر. فلا يأتي شيء. كان بوسعه متابعة الغيوم التي تجتاز سماء باريس من كوة السقف. وقبيل الفجر، ينهكه التعب فينام ساعة أو ساعتين.

اعتاد أن يتصل بآفا كل صباح في الموعد ذاته، وبالضبط قبل أن تغادر إلى عملها. كان يتمنى لها نهاراً رائعاً وينتظرها بقية الوقت.

أعطت السرية للقاءاتهما فرحاً خاصاً. كانا يقولان: «نحن لصّان؛ سعادتنا هي سرنا؛ حبنا هو نجاتنا؛ نرفض أن نكون غريقين؛ نحيا هذا الحب ونعرف أننا سنغدو يوماً كائنين حزينين جداً».

ثم جاءت القطيعة. فظّة ونهائية وقاسية. هجرته لأنها عرفت أنه لن يتخلى أبداً عن أسرته ليعيش معها. كان حدسها صائباً. كان يخاف من انتقام زوجته. خوفٌ لا يُقهر. كان مسمراً في مكانه، لا يستطيع التقدم ولا يستطيع أن يولي ظهره لحياة بائسة لينطلق إلى


Telegram: SOMRLIBRARY

مكان آخر بصحبة المرأة التي يحبّها. لذلك قَبِلَ اقتراح أحد أصدقائه الذي له باع طويل في تاريخ الشعوذة. قال له: «دع الأمر لي، دعني أعرف ما يحدث، أرجوك، أعطني موافقتك لأشاور باسمك عجوزاً منزوياً في الجبل بعيداً عن المدينة ولديه قدرة خارقة، فهو يعرف ما يجري بين الناس، لديه هذه الموهبة، إنه رجل يعمل فقط بواسطة القرآن، بلا تمائم وبلا سحر شيطاني، فقط تلاوة القرآن والأرقام».

تركه يفعل ما يحلو له، فماذا سيخسر في جميع الأحوال؟

كانت معاينة الرجل العجوز للحالة مدهشة: «هذا الرجل تعمل عليه زوجته منذ زمن طويل، تحاول محاصرته بقصد تملّكه وحتى يغدو شيئاً مطواعاً لها. إنه محاطٌ بطلاسم من كلّ الأنواع؛ هو فنان، وشخص ناجح، وهي غيورة، وتتلقى نصائح من عدة أشخاص في بلدتها. عليه أن يرحل. نحن لسنا من أنصار التفريق بين الزوج والزوجة، لكن في هذه الحالة، يُخشى وقوع شيء ما؛ لا أعرف ما هو، لكنها لن تدعه أبداً بسلام. خذ، أعطه هذه التميمة، وليحملها معه وليقرأ صفحة من القرآن كل مساء قبل النوم. هذا سيهدئ نومه المضطرب جداً. إذا رغب بالبقاء مع زوجته وأطفاله، عليه أن يخضع، وإلا سيعاني جحيماً لأنها تعمل مع أشخاص سيقومون بالضروري لكبح كل ما يقوم به. وعندما سيلتقي بامرأة، سيسعى كل شيء لإفشال قصتهما. سيكون من العسير عليه أن ينعم بالرقاد. وثمة لعنة تحوم حول هذا الرجل. ليملأ الله قلوبنا بعطفه! لن تدعه بسلام أبداً».

بقي فاغراً فمه وراح يبحث عن التمائم التي وضعتها في محترفه. وجد بعضها تحت الأريكة التي كان يحدث له أن ينام



Telegram: SOMRLIBRARY

عليها، وفي الحمام وفي المطبخ وحتى في حقيبته. كان محاصراً. هو مَن لم يكن يؤمن بتلك الأشياء غَيَّرَ رأيه وأصبح حذراً. أدرك أن رُقَى السحر الملقاة على آفا فعلت فعلها. قال في سره: «الآن وقد عرفْتُ سأفعل ما بوسعي لأرتبط بالمرأة التي أحب» قام بعدة محاولات، دون جدوى. كانت آفا قد رحلت وغَيَّرت رقم هاتفها وكان من المستحيل العثور على أثر لها. ظلّ هكذا دون أية أخبار عنها لمدة عامين تألم خلالهما بصمت وهو مستمر في العيش مع زوجته، آملاً أن يُحَضِّرَ لرحيله النهائي. لم يسنح له الوقت للذهاب. وحدثت النوبة الدماغية بعد هذا الشجار المرعب بينهما.



Telegram: SOMRLIBRARY

# الفصل السادس عشر

## الدار البيضاء، 12 أيلول/ سبتمبر 2000

«أنتَ في منتهى الأنانية. بنظرك، لا أحد مهم. لا تؤمن إلا بنفسك؛ ولا تصغي لأية نصيحة. بالتأكيد أنتَ لا تعرف ذلك، وتحاول التشبه بالسادة القدماء؛ من المعيب أن تقدم نفسك كصديق للإنسانية المعذبة» قالت الكنَّة لحماها.

**التوت البري**، إنغمار بيرغمان

أحياناً، في عزّ النهار، تعود إلى ذاكرته لمحات من ذكريات الطفولة، لا أهمية لها ظاهرياً. تتراقص أمام عينيه كدمى متحركة في عيد شعبي. كان هذا يدهشه في كل مرة. هكذا رأى بمنتهى الوضوح الدلو الخشبي الذي كان والده يحمله معه إلى الحمام. دلو قديم، عادي، لونه كستنائي استحال إلى أسود. كان والده، قبل أن يغادر، يضع فيه دوماً صابوناً ومنشفة حمام وحجراً خشناً لإزالة البشرة الميتة. لماذا إذاً عاد هذا الدلو، بعد نصف قرن ليشغل ذهنه؟ وفي يوم آخر، رأى فجأة، وبمنتهى الوضوح أيضاً، الحصيرة المجدولة من القش التي كان يصلي عليها أبواه. لم يكن فيها شيء مميز. مع ذلك كانت موجودة، عائدة، مركونة بجانب الدلو. وثمة متسولة، كان قد أعطاها خبزاً وقدمت له قطعة سكر بالمقابل، ظهرت من



Telegram: SOMRLIBRARY

جديد بالطريقة ذاتها، بوجهها المليء بالتجاعيد وابتسامتها الخالية من الأسنان وفي باطن يدها قطعة سكر بشكل نجمة.

وبعد بضعة أيام، شاهد ذلك الكسيح الذي يغني بصوت نشاز أمام مدرسته، ثم ذاك الكلب المريض الذي كان يتسكع في أزقة فاس وكان الأطفال يطاردونه وهم يرمونه بالحجارة. كان هذا الحيوان المسكين يعاني من صعوبة في المشي وراح الرسام يتساءل: لماذا هذا الكلب فجأة؟

السؤال ذاته بالنسبة إلى بنطال الغولف الذي تمزّق عند الركبتين عندما سقط من الأرجوحة. تعود هذه الذكرى إلى سن السادسة، وكانت المرة الأولى التي يركب فيها أرجوحة. دفعه أخوه البكر، وهو في أوج تأرجحه، أفلت الحبال وألقى نفسه على الأرض، ووجهه مضرج بالدماء. الغريب أن موضوع البنطال أثّر فيه أكثر من وجهه المدمى.

حقيبة قديمة من الكرتون كان والده يحتفظ فيها بأعداد مجلة **لايف** جميعها مخصصة للحرب، ظهرت له ذات صباح دون سابق إنذار. غالباً ما حدث له في طفولته أن سحب منها عدداً وتصفحه. لماذا لا يزال يتذكر وجه ذلك الجندي الأميركي الفتي وهو يبكي أمام جسد صديقه الميت؟ كان يدعى سالومون. كان أمراً غريباً، سالومون جاثياً على ركبتيه، ويديه على وجهه المخضل بالدموع. أين أصبح هذا الشاب؟ راح يتخيل أنه عاد إلى بلده وتزوج امرأة صهباء، ويعمل في تجارة السيارات.

مرة أخرى، ها هو وشاح قرضه العثُّ جاء يلاحقه. كان لونه أحمر ولم يعد يصلح لشيء، مثل تلك اللمبات المحروقة التي كان والده يحتفظ بها في درج آملاً أن تُصْلِحَ نفسها بنفسها. وشاهد أيضاً



Telegram: SOMRLIBRARY

مسامير بقياسات مختلفة في حقيبة ورقية موضوعة في زاوية المطبخ، أو أيضاً ربطة العنق المتسخة، الملطخة ببقع الدسم التي كان أستاذ اللغة العربية يرتديها. معلمته، الشابة المتزوجة، التي كانت تباعد بين ساقيها بخفة عند جلوسها على كرسيها، مرت أيضاً لزيارته. وكذلك رأى ثانية على نحو غامض رقم تسجيل سيارة الشفروليه لعمه، في فترة كان فيها الرجل الوحيد في العائلة الذي يمتلك سيارة: 2 MA 236.

ذات يوم، استعاد ذكرى قذفه الأول الذي حدث أثناء لعبه مع ابنة عمه. كان ذلك أشبه بتيار كهربائي ممتع اخترق قضيبه. نهض وهو يخفي بيده البقعة على بنطاله. شعر بالخجل، لكن ابنة عمه التي تكبره بعام واحد دعته للحاق بها إلى غرفة والديها المسافرين. الرائحة القوية والجديدة التي فاحت من أسفل بطنه والرغبة الحارقة للقاء ابنة عمه التي تنتظره على السرير عادتا إليه، كاملتين. رآها من جديد كاشفة عن ردفيها الورديتين، وتقول له: «هيا، ضع قضيبك في مؤخرتي!».

قال الرسام في سره إنه لا بد أن يُعزى هذا التدفّق للذكريات إلى شلل ساقه وذراعه الأيسرين. وذات يوم، في عزّ إحدى الذكريات المبهمة، رن الهاتف بقوة. أحد مساعديه الذي لم يكن بعيداً مرر له جهاز الهاتف. إنه وكيله الذي اتصل ليستعلم عن أخباره. لا بد أنه كان خائفاً بشكل خاص على نسبته المئوية! طمأنه الرسام: حالته ستتحسن. عليه بالصبر، الكثير من الصبر.


Telegram: SOMRLIBRARY

# الفصل السابع عشر

## الدار البيضاء، 5 تشرين الأول/ أكتوبر عام 2000

«أفراد الشعب من أصل وضيع هم الأقل حساسية. انظري إلى ثور جريح: إنه هادئ الأعصاب» قالت برجوازية لأخرى قبل المأساة تماماً.

**الملاك المدمر**، لويس بونويل

بعد هذا التدفق للذكريات الصغيرة التافهة، مرَّ بلحظات من الأحلام الطويلة المتبوعة بكوابيس مرعبة. كان الطبيب قد حذَّره، لكن الرسام لم يتوقع مثل هذا النشاط الدماغي. جعله أول أحلامه يرى من جديد زوجته، كما كانت، في الفترة، التي كان مغرماً بها ولم يكن يرى فيها غيرها. كان ودوداً جداً، وكانت في غاية الرقة واللطف. لم تكن تعارضه البتة ولم تبدِ رأياً مخالفاً، إلى درجة أنه خشي أن تكون فاقدة للأمان أو أنها خاضعة أكثر ممّا ينبغي. راح يشكر السماء كل يوم لأنه صادف هذه الفتاة المختلفة جداً عن الفتيات التي عرفهن. فبعد أن بقي عازباً لفترة طويلة دون أن يستقر مطلقاً مع النساء اللواتي يلتقيهن، أثرت فيه عينا هذه الفتاة بعمق. ومنحته الرغبة في أن يكون جدياً. لا مجال للتلاعب ببراءتها وجمالها. كان يكبرها بخمسة عشر عاماً تقريباً، لكنه ظنّ أن ذلك لا يثير أية مشكلة. ثم طاف به الحلم عبر عامين من السعادة أعقبا زواجهما. لا خلافات



Telegram: SOMRLIBRARY

ولا خصومات ولا غيوم. كانا سعيدين، يسافران ويتسليان ويضحكان ويضعان خططاً للمستقبل. كانت فترة رائعة. أجمل من أن تدوم. وكانت، بشعرها الكستنائي الرائع وقدّها الممشوق، لا تُقَاوم.

لكنه عانى من كوابيس مرعبة أيضاً. خاصة الكابوس الذي ظهر فيه رجل قصير وسمين احتال عليه وسلبه مبلغاً من المال إضافة إلى بعض اللوحات. قدّم نفسه كتاجر لوحات فنية، لكنه كان رساماً فاشلاً تَحَوَّلَ إلى مجال الأعمال أو بشكلٍ أدقّ إلى ميدان السمسرات القذرة بالتنسيق مع أخيه الذي يمارس الدعارة في فنادق كوت دازير الفخمة. قبل إصابته الدماغية، نجح الرسام في نسيانه ورماه في حفرة الاحتقار. كان قد آثر تجاهله أكثر من قضاء سنوات في أروقة المحاكم، لا سيما أنه ليس لديه سوى إيصالات مزورة مع عنوانٍ وهمي وتوقيعٍ على ختم مزيف، لكن ها هو الرجل القصير يعاود الظهور لازدرائه، في الوقت الذي انهارت فيه قوته الجسدية. رآه يطوف حول اللوحات، يحمل مشعلاً مبللاً بالكحول على أهبة الاشتعال. أغمض الرسام عينيه، لكن الشيطان المتجسد في صورة إنسان انبثق من جديد، مطلقاً قهقهات هستيرية. أخذ يحلم بالطريقة التي يتمنى أن يقتله بها. رآه مهروساً بواسطة خلاطة إسمنت، وأحشاؤه متناثرة على أرض يغطيها الطين؛ تخيله على سرير في مشفى، وحيداً، شاحباً وجائعاً، يختنق في مواجهة الموت الذي سينتزعه بعد ساعات طويلة من المعاناة.

ثم طرد هذه الصور الانتقامية ودعا الله أن يأخذ له حقه ذات يوم. وفجأة، اختفى النصاب السمين بشكل نهائي.

عندما حلّ الليل، أركبه المساعدان في السيارة ليعود إلى



Telegram: SOMRLIBRARY

المحترف، لكن بما أن زوجته مسافرة، طلب منهما أن يصطحباه إلى البيت وهَاتَفَ إيمان لتأتي إن أمكنها ذلك من أجل جلسة تدريب. جلس في الغرفة التي هجرها منذ زمن طويل. كانت تفوح برائحة عطر زوجته ومشبعة بآثار حياتها، ملابسها في كل مكان، والحمام مليء بعدد لا يُحصى من مستحضرات التجميل. طلب من مدبّرة المنزل أن تغيّر الأغطية وتعيد ترتيب البيت.

مع مرور السنوات، أصبح لا مبالياً إزاء الغيرة التي يشعر بها كثير من الناس حياله. وتبنى لنفسه حكمة، هي فلسفة الحياد. الأكثر غيرة كن النساء اللاتي أحبهن والفنانين من بلده الذين لم يتفهموا نجاحاته ولم يتقبلوها. كان قد عمل على نفسه مطولاً وتوصل إلى توصيف مفاده بأنه، مهما يكن من أمر، من الأفضل أن يكون موضع حسد وغيرة على أن يكون مجهولاً ودون موهبة، لكن غيرة زوجته كانت تهاجمه؛ ولم يتمكن من تأملها بلامبالاة. لا بد أنها كانت أقوى منه، وأكثر تصميماً من الآخرين، وتتقدم دون أن تلتفت إلى الخلف لتتأكد من حجم الأضرار التي سببتها في نوبات شكها المتكررة التي تقارب الجنون. ثمة درجات متعددة للجنون؛ وجنون زوجته لم يكن مرتفعاً، لكنه يكفي فقط ليجعل حياته لا تطاق. في هذه الحالة، ليس هناك ما يمكن فعله؛ التحمل أو الفرار؛ الانسحاب أو مضاعفة العنف والقسوة. هو كان يتحمل ويحتجّ.

ذات يوم، قال لها: «الغيرة مرض ينمّ عن ضعف الشخصية واستلاب المرء لذاته». حاول أن يقنعها ويبرهن لها أنه ثمة فضاءات وأسرار بين الرجل والمرأة يجب احترامها وإلا سينفجر كل شيء ويتشظى. لم تصغِ إليه وظلّت تتبع بدقة التعليمات التي تلقنها إياها مشعوذتها.


Telegram: SOMRLIBRARY

السر. مفهوم لم تتقبّله. يجب أن لا يحتفظ أحد الزوجين بأيّ سر حيال الآخر. الزواج هو انصهارٌ فيه واحد زائد واحد يساوي واحد. ذَكَّرَه هذا ببرنامج تلفزيوني مغربي جمعت فيه صحفية أربع نساء من أعمار مختلفة وفي شروط مختلفة وكلهن غير متزوجات. كان عليهن أن يبررن هذا «الشذوذ». إحداهن قالت إن الحظ لم يسعفها، وأنها وقعت على خطيب مدمن على الكحول، أما الأخرى ففضلت أن تنذر نفسها لمهنتها بدل البحث عن زوج يستغلها أو يمنعها من العمل، بينما قررت الثالثة بعد طلاق والديها ألا تتزوج أبداً، فيما بحثت الرابعة عن رجل لتشاطره كل شيء إلى حدّ أن يختفي كلاهما بحيث لا يعودان يشكلان إلا شخصاً واحداً. لم تتحدث أية واحدة منهن عن الحديقة السرية، عن الحوار،عن البناء اليومي للعلاقة الزوجية في احترام الاختلافات، مع عدم استبعاد الشقاقات.

غفا وهو يشاهد فيلماً. كانت أفكاره مشوشة وبليدة. لمح من بعيد خيال رجل، ربما والده الذي يتقدم نحوه مرتدياً جلبابه الأبيض، بلحيته المشذبة، ووجهه المشرق، بدا شاباً وباسماً. كان والده أكثر شباباً منه. تمعن فيه بتأنٍّ، وتعرّف إليه، لكن كما في فيلم صامت كان الصوت غير مسموع. اقترب والده، انحنى، وأمسك يده اليمنى وقبلها. قال في سره أثناء هذه الرؤيا أن العالم يسير بالمقلوب. فهو من كان دوماً يقبل يد والده ووالدته. أما القبلة على الخدين فحدثت عند استقلال البلد.

استيقظ، بعد قبلة اليد هذه، وهو في مزاج منشرح، أوقف الفيلم وطلب شاياً. قيل له: «إيمان تُحَضِّره» فتمتم بصوت خفيض: «لنأمل ألا يكون ذلك أيضاً رؤيا».


Telegram: SOMRLIBRARY

# الفصل الثامن عشر

## الدار البيضاء، 4 تشرين الثاني/ نوفمبر عام 2000

«للصدفة روعتها، وهذا أمر طبيعي»

السيدة. . . ، ماكس أوفيس(*)

في تلك الليلة، رأى حلماً استحال إلى كابوس وأيقظه وهو يشعر بصداع قوي. كان عليه أن يزور رئيس دولة. وكان الفصل صيفاً، فترتب عليه أن يرتدي قميصاً أبيض وبنطالاً من الكتان الأبيض. هكذا كُتِبَ على بطاقة الدعوة. في الطريق إلى القصر، أفلت عصفورٌ فضلاته الصفراء بلون الخردل فلوَّث قميصه الأنيق. صار يترتب عليه أن يبدله، لكن ليس لديه متسع من الوقت لذلك. طلب من أحد أصدقائه أن يعيره واحداً من قمصانه. ولم يكن لدى هذا الصديق إلا قمصاناً ملونة. لم يكن مسروراً. فالوقت يمر وموعد الاستقبال يقترب. ارتدى قميصاً رمادياً، وعندما خرج من منزل صديقه، أوقفه رجال شرطة بلباس مدني: «عليك أن تتبعنا، أنت محكوم وسنقودك مباشرة إلى السجن». حاول دون جدوى أن يسألهم

(*) ماكس أوفيس (Max Ophüls) (1902-1957): مخرج سينمائي فرنسي من أصول ألمانية.



Telegram: SOMRLIBRARY

عن الجريمة التي اقترفها، فأجابوه: «لا تزد حالتك سوءاً، فأنت تعرف حق المعرفة ما اقترفته» وسحبوا منه هاتفه النقال وقالوا له: «لا رسم في السجن، ولا دفتر ولا قلم رصاص. هذه هي الأوامر» أخذ يصرخ، لكن لم يصدر أي صوت عن حنجرته. كانت زوجته على العتبة مع أعزّ صديق له، لكنهما لم يحركا ساكناً لأجله. أراد الاتصال بمحاميه فخانته ذاكرته ولم يعُد بوسعه تذكّر رقم هاتفه ولا اسمه. كان يشعر بألم في رأسه. وفي تلك اللحظة استيقظ. ودَّ لو ينهض ويفتح النافذة. كانت الساعة الثالثة صباحاً. وجميع الناس كانوا نياماً. نجح في الجلوس على السرير واحتفظ بعينيه مفتوحتين حتى لا يعاوده الكابوس.

في الصباح، نام من التعب. عندما وصل المساعدان مع الإفطار لم يكن مستيقظاً، فتركا الطبق على الطاولة الصغيرة بجانب السرير وغادرا.

ألمٌ آخر سيقطع رقاده. تَشَنُّجٌ في الساق اليسرى. صرخ ثم أغمض عينيه منتظراً أن تنحل الملزمة. قال في سره: «بدأ النهار على نحو سيئ». كان من الأفضل ألا يعمل في المحترف. وبالأحرى كان بحاجة إلى التدليك والتشجيع.

عندما وصلت إيمان، كان في الحمام مع مساعديه اللذين يعينانه على قضاء حاجته. كانت بالنسبة إليه لحظات مرهقة، وعلى نحو خاص مخزية. حينها، كان يشعر على نحو فظيع بثقل إعاقته. فأن يمسح له رجل ويغسله رجل آخر، وأن يمكث واقفاً بصعوبة فيما يمرران القفاز على المناطق الحميمية، كان ذلك يثير فيه حنقاً يخرسه. قال في سره: «نظرياً، هذا ما ينبغي على زوجتي أن تقوم



Telegram: SOMRLIBRARY

به، لكنني لا أتمنى ذلك إطلاقاً، حسبها أن تتركني بسلام وتدعني أستعيد قدراتي الحركية».

لكنه حين اغتسل وحلق ذقنه وغَيَّر ملابسه، شعر بالتحسن قليلاً وهو ما ساعده على نسيان تلك اللحظات العصيبة. وعندما رأى إيمان ولا سيما عندما استنشق عطرها الأمبر بربسيو، ابتسم. «قالت له، اليوم سنمضي النهار معاً، إنه يوم عطلتي، سأدلكك، وأعطيك الحقنة، وسأقدم لك مأكولات بسيطة طهوتها بنفسي، وبعد ذلك سأحكي لك تتمة قصتي، إلا إذا كنت تفضل شيئاً آخر أو أعود إلى منزلي...»

كان راضياً. وكانت إيمان في غاية الرقة، ومؤثرة إلى درجة أنها كانت تعيد إليه الأمل وتساهم في تحسن حالته. قال بهدوء: «كيف أشكرك؟».

بعد لحظة، وهي تدلك ساقه، ودون أن تنظر في عينيه، راحت تحدثه:

- كما تعلم، يمكنك أن تكون أبي، ومع ذلك لا أنظر إليك كأب؛ أنت تكبرني بثلاثين عاماً تقريباً، لكنني أجد في فنك وشخصيتك إنسانية يفتقدها بفظاظة شباب اليوم، لا سيما في المغرب حيث الجميع يريدون النجاح بسرعة وكسب الكثير من المال، وحيث المظهر أهم من جوهر الأشياء. أحب أن أكون في رفقتك، أحب أن أواسيك، وعندما تدلكك يداي تحاولان امتصاص ألمك وإلقائه بعيداً عنك، لذلك بعد كل جلسة أنفض أصابعي لأرمي الآلام من داخلك. كما لو أن يداي تبللتا بماء أسود وكما لو أنهما تنتفضان للتخلّص منه. أستاذ هندي هو مَن علّمنا ذلك أثناء دورة تدريبية في الرباط».


Telegram: SOMRLIBRARY

بعد هذه الجلسة، اقترحت عليه أن يستند عليها ليخطو بضع خطوات. قال لها: «لكن مساعداي من يهتمان بذلك، فأنا أثقل ممّا ينبغي بالنسبة إلى كتفيك الضعيفتين». ساعدته على الخروج من السرير، وأعطته عكازاً، وأخذا يمشيان ببطء في الغرفة. توقف وطلب من التوأمين أن يأتيا لإلباسه ثياب الخروج. كان يريد أن يبدو أنيقاً في صحبة هذه المرأة الشابة. وعندما عادت إيمان، فوجئت بالتغيّر. أصبح الفنان رجلاً وسيماً. أمسكت ذراعه. شعر بجسده على جسدها وأخجله انتصاب قضيبه. كان الطبيب قد طمأنه: «الانتصاب نخاعي، إنه يأتي من النخاع الشوكي» طوّق خصرها بذراعه اليسرى وتقدّما وهما يتقاربان أكثر فأكثر. راودته الرغبة في ضمّها بين ذراعيه، في تقبيلها، في دفن وجهه في شعرها، أحجم، وعلى أية حال، لم يكن يسعه في الوضع الذي هو فيه أن يتماسك لوحده أمامها. تساءل إن كانت شعرت بشيء. راحت تحدّثه، لكنه لم يعِر انتباهاً لكلماتها، كان مضطرباً وطالب أن تُجلسه على الأريكة الكبيرة ليستطيع مدّ ساقيه. جلست على الأرض ووضعت رأسها على ساقه اليسرى. ظلا هكذا لفترة مديدة. كان هادئاً وبذل جهداً ليداعب شعرها بيده اليمنى، الأقل تضرراً من اليسرى. نهضت فجأة وشرعت بخطوات راقصة وقالت له: «هذا موعد الغداء، دعني أحضره، أعرف أنّ طباختك بطلة، لكن أنا لدي وصفات استثنائية من جدتي» لم تكن لديه شهية للطعام، لكنه أرغم نفسه وأكل ما كانت تضعه أصابعها في فمه. لو كان في ظروف أخرى، لوجد هذه الحركات مترعة بالإثارة الجنسية، أما الآن، فهي نفعية. كانت تناوله ليأكل كما تفعل مع طفل رضيع أو مع عجوز خرف. حين أدخلت قصبة في الحساء، أبعد الإناء بهدوء


Telegram: SOMRLIBRARY

وقال: «لا شكراً، لست جائعاً» ومع أنه كان يحب هذا النوع من الحساء، إلا أن احتساءه بواسطة قصبة أمام هذه المرأة الجميلة كان يقلل من شأنه كثيراً.

أعاده التوأمان إلى المحترف. وتبعتهم إيمان. أجلسوه في الكرسي المتحرك.

- إيمان، هل تريدين أن تستمري في إسعادي؟

- بالتأكيد أيها القبطان.

كانت المرة الأولى التي تناديه فيها هكذا، وبلا شك كانت قد شاهدت قبعة البحار المعلقة في ركن المحترف. كانت تخصّ أحد أصدقاء الرسام الذين نسيهم.

- أنا سعيد لأنك ناديتني بالقبطان. كانت ابنتي البكر تناديني قبلك على هذا النحو. كان ذلك يسليها. حسن، خذي هذا المجلد من طبعة البلياد لبودلير، افتحيه على الصفحة التي توجد فيها ورقة مصفرة، هناك كَتَبَ عن أوجين دولاكروا. اقرئيه، فأنا أحب هذا النص.

شربت كأس ماء لتصفية صوتها وشرعت تقرأ. أغمض القبطان عينيه ليتذوق تلك الجمل بشكل أفضل. كان صوت إيمان وقوراً. لو أنها عملت عليه، لأمكن أن يغدو أجمل.

حين توقفت وأنهت القراءة، قال لها الرسام:

- كما ترين، بعد أن أمضى بضعة أشهر في المغرب عام 1832، التقط هذا الفنان شيئاً من روح البلد. أنجز الكثير من الرسوم والتصاميم، لكنه لم يرسم شيئاً هنا. رسم المغرب من الذاكرة، وكانت النتيجة مدهشة. يؤسفني أنه لم يترك شيئاً في هذا البلد، أقصد أنه كان عليه أن يقدم بعض اللوحات كعلامة شكر



Telegram: SOMRLIBRARY

وامتنان. لم يفكِّر في ذلك. في الجزائر، رسم نساء الجزائر العاصمة في منازلهن، وهو أمر رائع حتماً. هو ذاك يا عزيزتي إيمان. أهديك كتاباً ضخماً عن هذا الرسام. انظري إليه وسترين كيف أعاد هذا الزائر العبقري تفسير المغرب من جديد. وإذا قرأتِ يوماً مذكراته، فسيفاجئك ما قاله عن أجدادنا. ما قاله ليس لطيفاً! لكن تلك هي الأفكار التي كانت سائدة في تلك الفترة.



Telegram: SOMRLIBRARY

# الفصل التاسع عشر

## الدار البيضاء، 6 تشرين الثاني/ نوفمبر عام 2000

«ترعبني واجبات التهذيب».

**عائد**، كريستيان-جاك

حانت اللحظة التي بدا فيها أن حياة الرسام أخذت تجنح وتغيِّر معناها. راحت الجدران من حوله تتقارب والسقف يوشك على الانهيار، همد صوته، ثم ابتعد، وتصلَّب جسده وشعر بالدوار. أخذ الرسام يرتعش أحياناً بكلّ جسده، مع أنه لم يكن يشعر بالبرد. أحسَّ أنه وحيد على نحوٍ ما مع أن مساعداه لم يبتعدا عنه البتة. راوده إحساس بأنه يعيش في أسطوانة مظلمة وأن عليه أن يجري كي ينقذ نفسه. كان مطارداً تارة من ظله وتارة ثانية من ضجة، وتارة ثالثة من موجة حرارة منبعثة من كرة نار. كان يعيش في نوع من الفيلم، لا يزال فيه جسده ما قبل الفالج، لكن أفكاره تخصّ مريضاً مزمناً. كانت حالتان من الوعي تتنضدان، الأولى مع جسدٍ مُعاق، محاصر، في حالة ترميم، والأخرى مع جسدٍ شاب وحيوي. انهمر عليه الشقاء. كانت زوجته لتقول بالتأكيد إنّ عيناً شريرة أصابته أو رقية ما ألقتها جارتها عليه، لكنه راح يتوقف في الأسطوانة المظلمة عن الركض، يسقط، وينهض من جديد، ثم يسقط مرة أخرى، ويتلقفه ثقب أسود كبير. كان كل جسده يرتعش في السقوط، لكن رأسه بقي سليماً.



Telegram: SOMRLIBRARY

غالباً ما يقال إن الاكتئاب هو خلاصة العزلة بما يمكن أن تمتلكه من قسوة. في أسوأ كوابيسه، كان الرسام يلفي نفسه في قبو تتجمع فيه فئران الحي. ظلّت تلك الحيوانات ترعبه، وكان يخافها خوفاً لا معقولاً إلى حدّ أنه لم يكن بوسعه أن يحتمل حتى مشاهدتها في كتاب مصور. على الأرجح يعود ذلك إلى طفولته، عندما كان يذهب إلى المراحيض التركية فعضّه ذات مرة جرذ في عرقوبه. أنقذه طبيب شاب وزرقه على الفور بحقنة. في كابوسه، كان محكوماً عليه أن يعيش مع الفئران، وترتب عليه أن يتجرع الرعب الذي تسبِّبه له. وهو بينها، لم يكن جسده يطاوعه. من عساه يكون الشخص الذي وضعه في هذا المكان المرعب، دون ضوء، حيث لا يسمع إلا ضجيج هذه الحيوانات القادرة على إبادة مدينة من طريق نشر الطاعون فيها؟ عند الفئران، اختفى جسده الشاب والرشيق، ووحده الجسد البليد والمريض كان هناك. كانت الفئران تصعد فوق ساقيه، وتتجول بهدوء فوقه، وتتشاجر قرب رأسه، وتعضه هنا وهناك، وتسحبه من كل مكان. وفجأة اقترب منه جرذ ضخم، حالك السواد، وألقى نفسه على أعضائه التناسلية وانتزعها بقوة. جعله الألم يصرخ، ومع أنه حاول طلب النجدة، إلا أن صوته كان مخنوقاً بالكابوس، ولم يسمعه أحد. كان يستسلم للقلق عندما فاجأته عضة أخرى أقوى أيضاً وانتهت إلى إيقاظه. كان متعرقاً، والدموع تبلل وجهه بغزارة. ضاق ذرعاً بهذه الحالة، ومن هذا المنزل ومن هؤلاء الناس حوله، ولم يعُد يطيق ذلك، وراح يتألم بصمت.

ازدادت خشية الرسام من تلك اللحظات التي يأتي فيها ألم مجهول ليعذبه، لكنه لم يستطع مقاومتها. وبطريقة ما، حاول


Telegram: SOMRLIBRARY

مواجهة الإغفاء، فبذل ما بوسعه ليبقى يقظاً، ولسوء الحظ كانت الأدوية والضجر يجعلانه ينام، رغم جهوده. لم يستسلم البتة، وراح يضغط في كلّ مناسبة على الجرس ليعدّوا له القهوة. «أجل، قهوة! حتى لو منعني الطبيب عنها. أريد البقاء مستيقظاً!».

كان الرسام يحبّ القهوة الجيدة، الإكسبريسو الإيطالية. كان يشرب دوماً فنجان قهوة كثيفة، ثم فنجاناً ثانياً مخفَّفاً قليلاً. ويشعر بعد ذلك بتحسن. عندئذٍ كان يستطيع النظر خلفه، هناك حيث كان يبدو له منذ بضع لحظات أنه توجد الأسطوانة وباب النجاة اللذان يعذبانه. كان يعرف أن شبح الاكتئاب يحوم حوله وأنه قد يحصل له في أية لحظة ما حصل لصديقه أنطونيو تابوكشي الذي غرق في اكتئاب مديد طيلة ثلاث سنوات. ذات يوم، وبينما كان أنطونيو يقرأ صحيفته كعادته قبل أن يبدأ العمل في الحجرة المجاورة، لم يستطِع النهوض. وفي المساء وجدته زوجته كما تركته في الصباح على الأريكة. مع أنه لم يكن هناك شيء يجعله عرضة للاكتئاب. كان يشكِّل مع زوجته ثنائياً سعيداً، شريكين ومتكاملين. قال له الطبيب: «الاكتئاب هو مرض، وليس موجة في النفس، أو غيمة صغيرة عابرة، إنه خطير، ويجب الانتباه. الأرق هو عَرَضٌ جدّي له».

كوابيسه المتكرِّرة أقلقته إلى حدّ أنه قرَّر أن يستأنف بجدية أكبر تمارين إعادة التأهيل. صار يخرج كل صباح إلى المدينة. كان التوأمان يقودانه إلى شاطئ البحر، يمشي متكئاً عليهما، يتنفس الهواء البحري ويصر على إنجاز كل تمارينه. في البداية، لم يشأ الظهور بسبب نظرة الناس أو بسبب خشيته من مصادفة بعض الأشخاص الذين قد يشفقون على حالته. ذات يوم، صادف لاربي وجهاً لوجه،


Telegram: SOMRLIBRARY

وهو صانع أطر لوحاته، رجل موهوب، تدرب في إسبانيا، ويكنّ له محبة كبيرة. ظلّ دوماً يحبّ التحدث معه، لأن هذا الرجل الذي يكبره بأكثر من عشرين عاماً استمرّ في العمل في حين انحاز الآخرون للتمتع بتقاعدهم. كان نبيهاً ويحبّ أن يروي قصصاً فكاهية. طلب منه الرسام أن يأتي لرؤيته في محترفه ليثرثرا كما في السابق.

زاره في اليوم التالي ومعه حشيشة الكيف وغليونين. دخّنا وهما يشربان الشاي. كان يمسك له الغليون ثم يُشَرِّبه رشفة الشاي. شيءٌ مسلٍّ أن تجري الأمور بينهما على هذا النحو. صديقان قديمان اضطرا لأن يحتفلا سوية في زمن اللامبالاة. سأله لاربي إن كان «المعلم ما زال ينتصب». أومأ بالإيجاب وهو يرفع عينيه نحو السقف ليعبِّر عن أن جميع نسائه ابتعدن عنه.

- يجب فعل شيء، إذا كفّ «المعلم» عن الانتصاب، يُخشى ألّا يعود يستيقظ!

- أعرف

في تلك اللحظة ظهرت إيمان مرتدية جلباباً مع وشاح ملائم على الرأس. كانت تلك المرة الأولى التي يراها فيها الرسام محجّبة. أوضحت أنها بهذه الطريقة تكون أقل تعرضاً لتحرّش الفتيان في الشارع. خلعت الجلباب والوشاح، فصارت ترتدي بنطالاً ضيقاً وقميصاً جميلاً، حَلَّت شعرها الطويل وأخرجت الزيوت لتبدأ بالتدليك.

لاربي المعجب بجمالها اعتذر وخرج وهو يذكرها أنه يجب الاهتمام بـ«المعلم».

- أيها القبطان، هل يجب أن أناديك بـ«معلم» الآن؟



Telegram: SOMRLIBRARY

ابتسم

- قبطان يناسبني

تَذَكَّر عندما كان يُصاب بالتهاب الحنجرة السنوي - رغم اللقاح ضدّ الكريب كان يقضي أسبوعين أو ثلاثة طريح كريب قوي يتحول إلى التهاب حنجرة - كانت زوجته تخرج مساءً وينتظر عودتها بغباء. كان يثور، لأنه لا يستطيع النوم إلا بعد عودتها، يتصل بها فيردّ المجيب الآلي. ينظر إلى ساعته، الساعة الثانية، الساعة الثالثة، الرابعة، الخامسة وها هي أخيراً، يسمع صرير البوابة وهي تنفتح لتدخل سيارتها. كان يغمض عينيه، دون أية رغبة في الحديث ولا لمعرفة من أين جاءت، وفي جميع الأحوال، كانت تقول له: «كنتُ مع البنات، تحدثنا وتحدثنا، ولم أشعر بمرور الوقت...» كان يشمّ رائحة الكحول. وكان يكره تلك الأنفاس، فيتكور في السرير ويحاول النوم بينما هي تغفو بمجرد أن تضع رأسها على الوسادة. الآن وبينما تعتني هذه الشابة به، راح يقيس الهاوية التي تفصله عن زوجته. بالتأكيد كانت إيمان موظفة، تتقاضى أجراً، لكن ثمة شيء أكثر من ذلك، لطفٌ ورِقَّةٌ لا ينتميان إلى العمل.

كانت لديه مشاعر - مكبوحة جيداً - حيالها. عندما لا تأتي، يفتقدها. وعندما تحضر، يشعر بانبعاث الحياة فيه. لم يكن يرغب أن يصيغ في كلمات ما يشعر به، لكنه راح يكتشف شكلاً سرياً للسعادة. ذات يوم، سألته مجلة عن تعريف السعادة. حتى دون أن يفكر، أجاب: «تناول غداء مع أصدقاء تحت شجرة في فصل الصيف بتوسكان» كان يحب الصداقة، رغم بعض الخيانات، ويحب إيطاليا ويشعر أنه على ما يرام في ظلّ شجرة وارفة كأنها تحميه، كأنها مباركة، مباركة من والديه ومباركة من ارتباطه الروحي.



Telegram: SOMRLIBRARY

# الفصل العشرون

## الدار البيضاء، 2 تشرين الثاني/ نوفمبر 2002

«بالنسبة إلى كاتارينا، لستُ إلا كتلة عصير متجمدة هشة»، قال بيتر لصديقيه جوهان وماريان خلال العشاء.

**مشاهد من الحياة الزوجية**، إنغمار بيرغمان

مرّت ثلاث سنوات تقريباً على إصابته بالسكتة الدماغية. تمكَّن الرسام، بفضل أطبائه وموهبة إيمان، من العودة لاستخدام يده. صار بوسعه الآن أن يمسك ريشة ويُلَوِّن أشكالاً صغيرة دون أن يرتعش. لم تزل ساقه تؤلمه، لكن يمكنه التنقل بفضل كرسي متحرِّك. استعاد قدرته على الكلام، وأصبح نُطْقُه طبيعياً تقريباً، وصار بوسعه خوض محادثة. ويتوقع إقامة معرض لأعماله الجديدة. راح يُحَضِّرُ له بعناية لأنه يكتسب أهمية خاصة، فهو يعني بالنسبة إليه انتصاراً على المرض. فضلاً عن أنّ أسلوبه تغير مرة أخرى أيضاً. اتجهت لوحاته إلى التجريد وأبرزت صفاءً عميقاً. وهذا ما أذهل المتخصصين في أعماله.

تقربت زوجته منه. ومع أنهما لم يعودا يلتقيان منذ عامين، لكنها جاءت لتزوره في محترفه، في البداية من حين إلى آخر، ثم



Telegram: SOMRLIBRARY

على نحوٍ منتظم أكثر عندما استطاعا العودة لتبادل الأحاديث معاً. كانت أول مَن صفَّق له وشجعه عندما استأنف عمله وأنجز لوحة جديدة. وحتى نظمت احتفالاً صغيراً بهذه المناسبة. وبدا كأن حياة مشتركة استؤنفت بين المنزل والمحترف. وصار الرسام، على كرسيه، يلتقي زوجته نهاية العصر، حين ينتهي من العمل في محترفه. وراح يشاطرها ويشاطر الأطفال الوجبات والسهرات. وبقدر ما كان جسده يتحسن، لاحظ بسرعة أن علاقته الزوجية لن تشفى أبداً. عادت الشجارات من جديد للتسلل إلى حياتهما اليومية إلى حدّ أنها جعلته يحنّ إلى الأشهر التي عاش فيها مشلولاً، بين كرسيه وسريره، لكن منفصلاً عنها.

- كلما تَقَدَّمْتَ في السن، شابهت والدك أكثر!

لم يكن مديحاً ما صدر عن فم زوجته.

- ماذا تقصدين بذلك؟

- تزدادُ سخطاً وخبثاً وسوء نية ونفاقاً.

كانت زوجته قد دخلت إلى محترفه دون سابق إنذار، فيما كان هو منهمكاً في تحضير مزيج معقَّد من أجل لوحته. تظاهر أنه لم يسمعها. فأعادت الكرة.

- كما ترى، أنت لا تعترض...

تابع عمله، اختفت وعادت بمجلة عربية يظهر فيها بصحبة ممثلة لبنانية شابة. رمت الجريدة باتجاه حمالة ألوانه، فأفلتت من يديه وتحطَّمت على اللوحة. التفت الرسام وقال لها بهدوء:

- دعيني وشأني، لو سمحت، إنني ألون الآن ولا يسعني أن أناقشك. يجب أن أفكِّر في اللوحة، فقط في اللوحة. دعيني.



Telegram: SOMRLIBRARY

- أنت لست سوى نذل.

غادرت. أقفل الباب بالمفتاح وعاد إلى عمله، لكنه أدرك بعد برهة أنه لم تعُد لديه الرغبة بالتلوين، وتهالك على مقعده واعترته رغبة بالبكاء. فكر في والده الذي قارنته به زوجته منذ لحظات. يا له من تقييم خاطئ، كان مختلفاً عنه كثيراً! كان رجلاً ذا طبع سيئ، لكنه كان كل شيء إلا خبيثاً. لم يكن والده لطيفاً مع أمه، لكن ذلك أمر شائع في زمنهم، ولا علاقة لأسلوب حياتهما بأسلوب حياة الرسام، المسافر دوماً، ومحطّ الأنظار دوماً. كان كل شيء على ما يُرام، فثمة حبّ بين أبويه، وإن لم يكن صريحاً ولا جلياً، لكن هناك شيء ما يربطهما، ربما العادة أو التقاليد، أو ببساطة المودة والحياء ونوع من الاحترام المتبادل. ولم تصل شجاراتهما قط إلى هذه الدرجة من العنف الذي يسود بين الرسام وزوجته.

ولكي يستعيد صفاءه، اتصل هاتفياً بصديقه الموثوق عادل، وهو رجل مسن حكيم مارس لزمن طويل رياضة اليوغا والتيتشي، وحكى له المشهد رقم ألف الذي جاءت زوجته لتقوم به. قال له عادل: «صحتك الجسدية والعقلية فوق كل اعتبار. لا تكن قصير النظر، ولا تمكث تترقب الغرق، عليك أن تحسم أمرك. كن هادئاً، ابذل جهدك للحفاظ على هدوئك. أعرف، الانفصال هو تمزّق. عليك أنت نفسك أن تقتنع أن هذا هو القرار الصائب. سيشكرك أطفالك فيما بعد. الموت يخلق أيضاً تمزقات، لكنه يدفعنا إلى نسبية الأشياء. الحياة هي طرفة عين، شرارة صغيرة، تضيء ثم تنطفئ. الزمن وهمٌ. يحيا ويتصالح مع هذا الوهم. وحين يرحل، تغدو جميع الآلام الصغيرة لا تساوي شيئاً. تشجع».


Telegram: SOMRLIBRARY

في صباح اليوم التالي، وصلت إيمان متأخرة. كان مزاجها سيئاً، فاعتذرت أثناء ممارسة عملها. ولم يعُد القبطان سوى بحار. أدهشه هذا التغير المفاجئ ثم تركها وشأنها. وفيما هي تدلّكه، راح يفكّر بما سيرسمه بعد هذه الجلسة. توقفت يدا إيمان عند مستوى ربلة الساق اليسرى، ورفعت رأسها نحوه؛ كانت عيناها مغرورقتين بالدموع.

- إذا أنا تكلمت، ستذرفين أنتِ الدموع، أليس كذلك؟

- أجل، فأنا تعيسة.

- هل تودين أن تحكي لي عمّا يجعلك حزينة إلى هذا الحدّ؟

- لا، أيها القبطان.

وفور أن أنهت ما يجب عليها عمله، وضَّبَتْ حقيبتها.

- هذه آخر مرة آتي فيها؛ سيترتب عليك أن تجد شخصاً آخر؛ يمكنني مساعدتك، سأعطيك عناوين...

وطفقت تبكي من جديد.

- لا، لا تذهبي؛ لِنُعِد الشاي ونتحدث بهدوء.

خَمَّن أن زوجته لا بد أن تكون وراء كل هذا.

- جاءت لرؤيتكِ...

- نعم، وأعطتني مالاً لأتخلى عن هذا العمل معك. كانت لطيفة، ولم تكن متوعدة وعنيفة، لكنها كانت حاسمة. قالت لي: «إنه زوجي، وأنا مصرة على استعادته، وعلى الحفاظ عليه، ولن يمنعني أحد عن ذلك» رفضْتُ مالها، لكنني وعدتها أن أذهب.

- سأكلِّمها. أنا المريض وليست هي، لذلك أرجوكِ، استمري في عملك وتجاهلي هذا النوع من التدخل.

- نعم، لكنني أعطيتها كلمتي.



Telegram: SOMRLIBRARY

- كلمتك، أحبّها، وأحتاج إليها، لن تَكُفّي عن الاهتمام بي، أنا حريص على علاجاتك وحضورك.

بعد برهة صمت، استطردت:

- حسن، لكن يجب أن أتحدث معك. أُفَضِّلُ أن أبتعد لأنني لست متأكدة من أنني أُحْسِنُ صنعاً بمجيئي لعلاجك وأيضاً بقضاء لحظات ممتعة بصحبتك.

- أعرف، أعرف، ثمة شيء آخر أكثر من العلاج... لكن ماذا تريدين؟ نحن بشر؛ وعلى أية حال، اعلمي أنني بفضلك حققتُ تقدماً أدهش الطبيب؛ أنا أرسم وأمشي واستعدتُ القدرة على الكلام، وهذا كله بفضلك. مع أنني اضطررت بالتأكيد لبذل جهود والتدرب في غيابك. لذلك يستحيل أن أستغني عنك. أما بالنسبة إلى العواطف، فأنا أدرك تماماً أنّ مستقبلك ليس معي، ومن حقّك أن تعيشي قصة رائعة مع رجل أفضل، من عمرك ومن اختيارك؛ أما أنا، فمجرد حليف عجوز، هذا كل شيء، لكن لا بد أن أخبرك بما أنا مدينٌ لك به، فافعلي الآن ما بدا لك.

طأطأت إيمان رأسها، واحتضنت يد القبطان وقبلتها كأنها تشكره. ودون أن تنظر في عينيه، اعترفت له:

- أفكر فيك طوال الوقت، ولا أعرف ماذا أفعل. وصل خطيبي منذ خمسة عشر يوماً من بروكسل لأجل عقد زواجنا، وكلما اقترب هذا اليوم، خَفَّتْ رغبتي في الالتزام بهذا الرجل، وهو مهاجر يقود الحافلات هناك. إنه ضخم وشاب وقوي وحتى لطيف، لكن ليس لدي رغبة في أن أصبح زوجة سائق حافلة، عندي أحلام أخرى. ليس لدي أي مأخذ عليه، ولكن ليس لدي شيء أقوله له. أحتاج إلى القراءة وإلى ارتياد المتحف والتردّد على الفنانين... لا يمكن لسائق



Telegram: SOMRLIBRARY

حافلة أن يهبني كل هذه الأشياء غير الضرورية. ثم إنه أخبرني أنه سيترتب عليّ أن أعيش مع أمه، وهذا يسبِّب لي الغثيان. هل تتفهم ذلك؟ يعني سأكون تحت الملاحظة والمراقبة ومحكومة، آه، هذا لا! لديّ رفيقة أرغمها زوجها على السكن المشترك مع والدته، فانتهى الأمر نهاية سيئة، شجار وشرطة وطلاق... أنا واثقة أنه زوج جيد، فهو مفتول العضلات، وتداعبنا مرتين أو ثلاثة، لم يكن لدينا مكان نذهب إليه، لذلك ذهبنا إلى السينما. تبادلنا القبل، إنه جامح، وفي النهاية ليس لهذا أهمية؛ فأنت من أرغب به.

نظر إليها بحنان.

- لكن يا عزيزتي المسكينة إيمان، لستُ شاباً ولا مفتول العضلات، وما زلتُ أكره الرياضة والعضلات المفتولة؛ فماذا تريدين أن تفعلي برجل في مثل سني؟ لا يمكنني أن أمنحكِ شيئاً، علاوة على أنني كرهتُ كل ما يشبه الزواج؛ هل تعرفين ما قاله تشيخوف بشأن الزواج؟ «إذا كنتَ تخشى الوحدة، فلا تتزوج» سأشكل بالنسبة إليكِ عبئاً أكثر من كوني رفيق. وسرعان ما ستضجرين مني ومن عاداتي المستهجنة، لأنني أعترفُ لكِ بأنني رجل مهووس ومزعج، أحب أن تكون الأشياء في مكانها، ولا أحتمل الفوضى وانعدام النظام، أكره سوء النية والمحتالين والغاصبين، وفوق كل ذلك أحب وحدتي، قد يبدو هذا لا يُصدق، لكنه الحقيقة، أحب أن ألفي نفسي وحيداً وألا يزعجني أحد. أنام وحيداً، وذلك مراعاة لزوجتي، فلا ينبغي لقلقي أن يزعج المرأة التي تشاطرني سريري. ظلّت زوجتي تعتقد دوماً أنني أهرب منها، في حين أنني كنت أهتم بالحقيقة لهدوئها ورقادها. كانت حياتنا كلها سلسلة من سوء الفهم. عندما نضعها بجانب بعضها، نصنع منها


Telegram: SOMRLIBRARY

قطاراً من الإزعاجات. أنا تائه، أقترح أن نعاود النقاش في زيارتك القادمة. لكنني متشبثٌ بك، ولا أريد تغيير الممرضة والمدلكة. هذا مفهوم. لا تقلقي. أعرف ما سأقول لزوجتي.

كانت إيمان باسمة، أجمل ممّا كانت عليه لحظة وصولها. ظلت صامتة ثم قالت: «إلى الغد».


Telegram: SOMRLIBRARY

# الفصل الواحد والعشرون

## الدار البيضاء، 20 تشرين الثاني/ نوفمبر عام 2002

**«نحن شرطة الله؛ ولو أن الموت ينظم كل شيء، لكان الأجدر به أن يكون إنساناً بهذا المعنى»، قال الملاكان الأسودان لـ ليليوم عندما جاءا لاقتيادها إلى السماء.**

**ليليوم**، فريتز لانغ

في ذلك الصباح، وضعه التوأمان في حوض حمام مملوء بالماء الساخن وتركاه يتأمل. قال لهما بالعربية: «امنحاني نصف ساعة، سأستفيد من الصمت والحرارة لأستمع إلى عظامي». عندما كان يعود من المدرسة ويجد أمه راقدة في الصالون، كانت تقول: «استفدتُ من غيابك لأرتاح وأستمع إلى عظامي» كان هذا التعبير يُضحكه. كيف ينبغي تخيل ذلك؟ أين توضع الأذن للإصغاء إليها؟ وماذا كانت تقول؟ هل كانت العظام تبدأ بالتحرك، وبلعب لعبة التخفي، وبالمجاملة؟ ببساطة، كانت تعود إلى مكانها. فالماء الساخن يساعدها على الاسترخاء حتى لو كانت العضلات هي التي تستفيد منه.

كان يحبّ تلك اللحظات من السلام التي لا يعكِّره فيها شيء.

في ذلك اليوم، فكر من جديد بآفا، الجميلة آفا التي وسمت العقد



Telegram: SOMRLIBRARY

الرابع من عمره إلى الأبد. كانا قد اختلسا بضعة أيام ولجآ إلى فندق ساحر في رافيلو. سَبِحَا وتحدثا في الأدب والسينما وتناولا وجبات خفيفة وشربا نبيذاً فاخراً، وتضاجعا عدة مرات في اليوم وتأوها كطفلين متحررين من كل قيد. وفي المساء استحمّا سوية بالماء الساخن ودلّكته بزيت له مزايا خاصة، وأشعلت شموعاً وقالت له: «أحبك، ولم أحب قط رجلاً بهذا القدر...» فأجابها بأنه لا يجد الكلمات المناسبة ليعبِّر لها عمّا يختلج فيه. وبالمقابل، ذَكَّرَها بألوان ونجوم يعرف أسماءها وتاريخها، وحكى لها عن أفلام لم تشاهدها، وعن أوبرات فوتتها. ووصل بهما الحال إلى الإجهاش بالبكاء من السعادة، كانا يعرفان أن ذلك لا يمكن أن يستمر، وأن الواقع سيضبطهما متلبسين، خاصة هو من كان يخون دون أن يشعر بالإثم. حين كان يقيم علاقات ساحرة، دون تبعات، لم يكن يفكر أنه يخدع زوجته. وللمرة الأولى، كان يعيش حباً عظيماً ولم يعد ينتمي إلا إلى المرأة التي يحب؛ لقد وهب نفسه بكاملها لآفا وكان سعيداً بذلك.

قَلَبَ هذا الحب طريقته في الرسم. كان غارقاً في أفكاره ويريد تجسيدها بأسرع ما يمكن. أنجز تخطيطات، ودَوَّن بقلم رصاص أسماء الألوان، وشعر على نحو خاص أن السعادة، تلك الحالة التي يبحث عنها منذ زمن طويل، وهذا الحب، وهذا الشغف سيغذون فنه ويذيعون صيته.

عندما عاد إلى باريس، انزوى لأسابيع في محترفه وعمل بنشاط محموم. كانت آفا تأتي لرؤيته، تنظر إليه، تستحسنه وتقبِّله وتجلب له الفاكهة والنبيذ. كانا يختبئان، ويعيشان في خوف من افتضاح أمرهما ويخشيان على الأخص أن يتحطم حبهما. كانت ترغب بطفل، وكان يستبعد هذا الاحتمال دون أن يرفضه. إنها في الثلاثين من عمرها


Telegram: SOMRLIBRARY

وترغب أن تصبح أماً، معه أو بدونه. كان هذا أول خلاف بينهما. فهمت أنه غير قادر على ترك زوجته وأنه يخاف من الانتقام الذي تهدده به، كان يريد أن يعيش من طريق التوفيق بين الأضداد. كانت آفا أكثر وضوحاً وشجاعة منه. وزوجته أيضاً. هو أراد أن يبقى على مسافة متساوية من القصتين. تلك كانت أبرز سمات طبعه المقيتة. أن يسعد جميع الناس، وأن يرضي هؤلاء وأولئك، وأن يحظى بالأصدقاء فقط، ويكون رسول سلام، ويكبت الصراعات، ويقسر نفسه حتى لا يترتب عليها أن تختار، ولا يحسم؛ ولا بد أنه كان يفضِّل الآلام المنتشرة والمديدة على ألم قوي حاد ومختصر، لكنه قاطع. لم يكن يحب العراك. ولم يكن يفهم شيئاً في السلطة ولا في أولئك الذين يقاتلون حتى الموت للاستحواذ عليها. لم يكن يهمه ذلك. لم يهجر امرأة قط، وكن هنّ دوماً من يغضبن ويتعبن ويرحلن. كان يحرص على الحفاظ معهن على علاقات جيدة؛ الأسوأ أنه كان ينجح في ذلك. كان يعود لرؤيتهن بمتعة وأحياناً يستأنف بعض العلاقات. كان سعيداً بهذه القسمة وهذه المرونه مع أنه يعرف في أعماقه أنه لن يستمر طوال حياته في هذا التوازن الاصطناعي والمضلل.

حافظ الرسام على رسائل آفا الغرامية مخبأة في خزانة وحده يعرف فتحها. ومن حين إلى آخر، كأنه مراهق، كان يُخرجها ويُعيد قراءتها. وهو ما كان يمنحه القوة ليرسم، يقول في سره.

توجد وعود ومرايا منتصبة على طريق الندم. ثمة حب ابتلعه عناق الليل، حب مبلل بأمطار محتبسة في الغيوم، حب يهيجه الألم،



Telegram: SOMRLIBRARY

إنه نجمة حائرة تحفر قبرها بجانب عاشقين هدَّهما الانتظار.

مررتُ هذا الصباح إلى متحف بومبيدو، تأملت مطولاً اللوحة الوحيدة لك المعروضة بين اللوحات المعاصرة. شعرت بالفخر. إنها اللوحة التي كنتَ ترسمها حين التقينا. قلت لي: «إنها عمل غريب، تعبِّر عن السعادة مع أن ألوانها ليست فرحة!» تنبعث من هذه الصورة قوة تلامس القلق. هل تذكر، قلت لي إن قلقك راسخ في فكرك وجسدك. أجبتك بهذه العبارة لكونغولي: «كانت مثلي، غير قادرة على الانتحار، وكانت تتذوق موتها من حياتها».

ربما سيبدو هذا لك غريباً، لكن هذه العبارة تشبهني أو شابهتني كثيراً، قبل أن أعرفك. وها أنذا أذهب اليوم وأتذوق حياتي. أنت في حياتي، وحياتي في الحب. الحب وورده: رغبة، ضحك، لطف، لذة، هجر، مشاركة؛ يوجد أيضاً البنفسج ونبته الزر الذهبي.

أنت حبي وكل شيء في حياتي وفرحي.

كان قد احتفظ بكل شيء، حتى الرسالة الأخيرة المكتوبة بعد انفصالهما :

يسعدني أن أعرف أنك ترسم. أؤمن بتطلبك الذي تعرف ولا بد أنه ضروري وسامٍ، أنا مشتاقة إليك. أعرف كم أحببتني، ولم أشك بذلك قط، كما لم أستطع أن أنسى أنك فشلت في اختيار علاقتنا. إنني لك، حناناً وذكرى، عذوبة وابتسامة. أواصل اقتسام الشعور العظيم الذي يربطنا ما وراء الزمن.

يسحقني أحياناً فراغ الليالي. أتقدم في السن محاولة ألا أشيخ كثيراً. أتكور في الكلمات. أنتظر أن تتفتح الزهرة، أعتاد


Telegram: SOMRLIBRARY

عذابي. يترسب الحزن في أعماقي؛ أخذت أغوص، ولم أعُد أتجرأ على التقدم في الضياء، خشية أن يأتي الظل ويغلفه. أتذكرُ جفنيكَ المسبلين. أداعبُ وجهك ببطء ومطولاً.

هو أيضاً كتب إلى آفا رسائل وقصائد، وكان يرسل لها رسوماً فرحة وكاريكاتيراً أو أحياناً رسماً دقيقاً ومفصلاً لوردة. كانت تحتفظ بها بعناية فائقة. وعندما يتأخر في الكتابة إليها، تؤنبه: «إذاً، هل تكاسلت هذا الصباح؟».

كانت رومانتيكية ولم تكن حياتها دوماً سهلة ولا هادئة. كانت فتاة مجروحة من كل مكان، تركل المياه العميقة كلما وصلت إلى القاع. وتطفو على السطح من جديد وتصارع مع هذه الحاجة إلى الحب وهذا الظمأ للحياة والسعادة.

منع الرسام نفسه عن الشعور بأي ندم لأن ذلك لا يفيد شيئاً. كان يقول: «الندم والحنين هما بُهْرُج ضعفنا وعجزنا. إنها أكاذيب نرتديها مع كلمات تُهَدِّئنا وتُسَهِّل رقادنا. وهذا يجعل إخفاقنا أقل قسوة».

لم يعرف الرسام أو لم يستطِع أن يختار. كانت لديه أسبابه، لكن بماذا تفيد العودة إلى هذا الجزء السعيد من حياته؟ حدث له أن تخيل كيف كان يمكن لحياته أن تمضي مع آفا لو أنه افترق عن زوجته. اختلق سيناريوهات جديرة بفيلم رعب. رأى آفا بهيئة امرأة مفترسة، خائنة وخبيثة... لا، أَوْقَفَ الفيلم. مستحيل. لا يمكن أن يكون لآفا صنوٌ بهذا السوء.

كان يعرف أنه حاذى حياته الحقيقية، وأنه فَوَّت سيرته الأجمل. ولزمن طويل، أدارت آفا، شبحُ آفا، أيامه ولياليه، وقادته ونصحته.


Telegram: SOMRLIBRARY

احتاج إلى فطنتها وذكائها ورومانسيتها ولو أنها كانت تضحكه أحياناً. كانت آفا امرأة حياته، وقد مرَّت لتوّها، بينما ظلّ هو على الرصيف، مثقلاً بإثمه، مقيداً برباط العلاقة الزوجية، متسمراً من الخوف. بقي له فنّه حتى لا يفوت كل شيء. حين قال لطبيبه النفسي أنه إذا كانت حياته الزوجية نكبة فإن حياته المهنية نجاح، ردّ عليه: «لسنا في نظام الأواني المستطرقة، لكل مرحلة من حياتك طاقاتها، إخفاقاتها ونجاحاتها. ولا يُعَوِّضُ أحدهما الآخر. وإلا لكان الأمر في غاية السهولة».


Telegram: SOMRLIBRARY

# الفصل الثاني والعشرون

## الدار البيضاء، الأول من كانون الأول/ ديسمبر عام 2002

«أنت تثير اشمئزازي جسدياً. سأدفع لأي شخص حتى يغسل فرجي منك» قالت كاتارينا لزوجها بيتر.

**مشاهد من الحياة الزوجية**، إنغمار بيرغمان

هو مَن حاصرته المتاهات، وهو مَن حام حول هذا الموضوع بعد أن قرأ قصص بورخس الخيالية، ألفى نفسه الآن في واحدة من تلك المتاهات التي تشدِّد جدرانها الحصار عليه حتى تخنقه، عوضاً عن أن تنفتح لتدعه يمرّ. يزعجه المرض، لكنه منذ بعض الوقت لم يعُد يشغله كما من قبل. أصبح صفاؤه كاملاً وحتى تَقَدَّمَ بوضوح. صار يرى الآن الوضع بطريقة جلية، بلا أية زخارف. أمرٌ واحدٌ كان مؤكداً، يجب أن يتخلص من سطوة زوجته ومن برنامجها الهدام. وحتى ينجح في ذلك، كان عليه أن يحصِّن نفسه. تذكر جملة الفيلسوف: «إما أن يتحطم القلب أو يتفولذ»، لكن كيف السبيل لجعل قلب فولاذياً؟ وكيف لحجر أن يحلّ مكانه؟ بعض الناس يولدون بقطعة معدنية مكان القلب، وآخرون طبيعيون. وهؤلاء الأخيرون هم الأكثر عدداً وهم غالباً الضحايا.

كان لزوجته قلب، وكانت تهرع لنجدة أولئك الذين يتألمون لا



Telegram: SOMRLIBRARY

سيما إذا كانوا من قبيلتها. كانت كريمة، وتستقبل أصدقاءها بفرح، ولم تذهب قط إلى عشاء فارغة اليدين، وتتصل في اليوم التالي للتعبير عن شكرها. كان لديها قلب، لكنها عندما تُهان، تُجند كل كيانها للثأر. كانت تُبْعَثُ المرأة الأخرى في داخلها. تغدو بدائية، وغير عقلانية تماماً، ومستعدة لفعل أي شيء حتى تشبع ثأرها. لم تكن تتملق، كانت تقول بصوتٍ عالٍ وجهوري ما تنوي فعله وتفعله. تَذَكَّر خياطة خربت قفطانها ولم تشأ إعادة العربون ولا الاعتراف بخطئها؛ لوثت زوجته سمعتها خلال أسبوع. ونجحت في إفقارها.

بات يدرك الآن أنه لن يفلت منها أبداً. كانت قد غفرت له تسكعاته وغياباته. فسواء كان مريضاً أم غير مريض، سيستمتع حتى النهاية.

لماذا سيدفع ثمن عدم الحب باهظاً؟ أرادت نائبة إسبانية أن تسن قانوناً يعاقب على عدم الحب. وهكذا، عندما لا يعود رجل أو امرأة يحب قرينه، سيستحق هو أو هي غرامة، وحتى بضع سنوات من السجن. كم عاماً في السجن وما هو مقدار الغرامة؟ هذا ما تتمناه زوجته التي تشعر بنفسها مغدورة ومُهانة، أن ينطق قاضٍ بحكمٍ نموذجي على هذا الرجل الذي تجرّأ على عدم حب زوجته وعلى تبديد مال أبنائه على نساء أخريات. وعندما كشفت الأدلة على خياناته، لم يعتذر. وحتى حاول تقريباً أن يرميها على قارعة الطريق. ولماذا يعتذر إذا كان ذلك سيساعده على التحرُّر من وضع لم يعد بمقدوره أن يعيشه، وضع مجبول بالكذب والنفاق والنوبات العصبية والصراخ وموجات الغضب غير المنضبطة؟

سمع صوت كارولين يردد على مسامعه: «عليكَ ألا تتحمل.



Telegram: SOMRLIBRARY

أي قانون هذا الذي يقول إنه على المرء أن يتحمل الآخر؟ ولا تنس، رأسمالك هو أنت ولا أحد سواك» كان هذا تقريباً ما نصحه به طبيبه النفسي. لا شيء يُسوغ أن يستخف بك أحد. أما والدته، فكانت تقول له: «لا يحق لأحد أن يغسل قدميه فوقك».

من جانبه، أسهب صديقه السويسري العدمي كالعادة في الموضوع: «لكنك في نهاية المطاف فنان، علينا أن نحترمك حتى لو ارتكبتَ أخطاء، ومن لا يرتكبها؟ اهرب، واعلم أن المرء يعيش وحيداً ويموت وحيداً. ومن حين إلى آخر، يخون هذه الوحدة بلحظات من المتعة، لكن على الأخص بلا أوهام، لنكن خفيفين ورشيقين يا صديقي! افعل مثلي، اذهب إلى الفنادق الضخمة، وأنفق نقودك، اسبح في أفضل مسابح العالم، فأبناؤك سيعيشون حياتهم وسيعملون، ثم لا تصدق أنهم سيأتون إلى وسادتك عندما ستجد نفسك في مأوى مثل المسكين فرنسيس، العلامة الفارقة في الثقافة الفرنسية، الذي جعله المرض مجهولاً، جالساً على أريكة، لعابه يسيل ولا يعرف من هو ولا من يأتي لرؤيته. يجب زيارة الأصدقاء المقعدين بسبب المرض. هذه تربية ممتازة. وبعد ذلك، نحن شبه مجبرين على المراهنة على الخفة».

راح يشعر كل يوم بالتحسن ويجد نفسه على ما يرام. وكان تفاؤله برؤية إيمان يمتعه. وصلت مع باقة ورد.

- اليوم سنمشي طوال ساعة؛ فالطقس جميل. ساقك اليسرى تستعيد ردود فعلها، وذراعك أيضاً. يمكنك الوقوف، متكئاً على عكاز.

جعلته النزهة يشعر بتحسن كبير. صادفتْ إيمان أمها على



Telegram: SOMRLIBRARY

الكورنيش. عَرَّفَتْها عليه. امرأة ما زالت شابة. شكرته على المعروف الذي يسديه لإيمان.

وحين غادرت، توقف وسأل إيمان:

- أي معروف؟ أنت من تسدين لي معروفاً، تصبرين وبيديك اللتين تشفيان...

- أمي تتخيل أمراً لم أحدثك عنه بعد. كذبتُ عليها وقلتُ لها إنك وافقت. أنت تتساءل ماذا أقصد؟ حسن، هوذا، أقصد أخي، حلمه هو أن يسافر، ويذهب إلى أوروبا للبحث عن عمل. تظن أمي أنك تستطيع مساعدته بعلاقاتك وشهرتك. لم أتجرأ على محادثتك في الأمر، فأنت تعرف كيف هي حال الأسر المغربية.

- أوه، أعرف. ليس ثمة سوء في أن يرغب الناس بتبادل المساعدة. سنتكلم في هذا الأمر مرة أخرى.

وبعد صمت:

- فكرة السفر وترك المغرب بأي ثمن هي فكرة جديدة. لم يفِ البلد بكل وعوده. وها هم شبابه يسعون لمغادرته! سأحاول أن أجد عملاً لأخيك، لكن الأفضل هنا بقربك، وهذا أسهل بالنسبة إلي، ثم إن أوروبا ليست الفردوس الذي يظنه.

وفيما هما يمشيان، راح يفكر بطريقة للإبقاء على إيمان قريبة منه.

كان يتساءل إن كان بوسعها أن تعمل كمساعدة جيدة له، وفي الوقت نفسه، خشي من الخلط بين المشاعر والعمل.

بعد عودتهما، دلكت ساقيه ثم استقرت عند قدميه كما يحلو لها أن تفعل ذلك غالباً وأخذت تحكي:



Telegram: SOMRLIBRARY

كان يا ما كان، كان هناك فتاة صغيرة تريد أن تكبر أسرع من الزمن وكانت تحسب نفسها ريحاً جنوبية، قوية وعنيفة. تصلُ مثل زوبعة وتكتسح كل شيء في طريقها. أطلق عليها الناس اسم «فتنة»، ويعني «الفوضى الداخلية» وبمعنى أوسع «هلع» باللغة العربية.

لكنها وهي تكبر، هدأت الفتاة الصغيرة وأصبحت «نسمة المساء». عندئذٍ سماها الناس «همسة القمر». على الطرقات، في المساء أثناء السهرات، راحت تقطف الحكايات التي يرويها الناس من جيل إلى جيل، ثم تسكبها في أقداح نبيذ يشربها الشعراء، ولا سيما الأكثر سوقية بينهم.

وعندما أصبحت كبيرة، ذهبت الفتاة إلى الجبل ولم يرها الناس ثانية. خرافة ولدت بين الأحجار والنباتات البرية. أصبحت الفتاة الشابة آلهة الوحدة. وهي متربعة على عرش الصخور الأكثر صلابة، كانت تسدّ بفضل قدراتها طريق الأوبئة القادمة من بلدان موبوءة ومغضوب عليها.

يحكى أيضاً أنّ هذه المرأة أنجبت ثلاثة صبيان ولدوا من مضاجعاتها مع شيطان. وحين بلغوا سن الرشد، ارتكبوا شروراً كثيرة، فسرقوا وقتلوا ونكلوا، دون أن تطالهم أبداً يد العدالة. وإنما على العكس تماماً، ازدهرت أعمالهم واشتهروا كأعيان للمدينة. وذات ليلة، نزلت أمهم من الجبل والتهمتهم. وفي الصباح الباكر، وجد الناس أمام البوابة الرئيسة للمدينة جثة فرس منتفخة، وحين فتحوها، وجدوا داخلها ثلاثة رجال اخْضَرَّ لونهم ودون عيون...

توقفت إيمان وحين رأت الهيئة المذهولة للقبطان، قالت له:



Telegram: SOMRLIBRARY

- لا تقلق، أنا أختلق. وعلى الأخص، لا ترتعب!

- هل أنت واثقة أنه ليس لديك حكاية ألطف بقليل لترويها لي قبل أن تهجريني؟

- أجل، أحبك.

- وتسمّين هذه حكاية لطيفة!



Telegram: SOMRLIBRARY

# الفصل الثالث والعشرون

## الدار البيضاء، 19 كانون الأول/ ديسمبر 2002

«لماذا يعيشون في الجحيم؟ لا يتحدثون اللغة ذاتها. تلزمهم لغة وسيطة. إنهما آلتا تسجيل مبرمجتان في الصمت بين الكواكب».

**مشاهد من الحياة الزوجية**، إنغمار بيرغمان

بناء على طلب من طبيبه النفسي، سَجَّل الرسام على آلة تسجيل الأسباب التي أدّت إلى عدم حبه. أملاها على عدة مراحل. كان يريد أن يتوخى الدّقة ويقول كل الحقيقة، كما يراها. قد يخطئ، لكن هذه القائمة كانت متنفساً وليست قرار اتهام ضد زوجته.

ضغط على زر «التسجيل»، وبدأ بمقدمة وجيزة:

هذه قائمة الأسباب التي فرضت نفسها عليّ لأصل إلى نتيجة بأننا لم نعُد نحب بعضنا منذ زمن طويل. قد أخطئ، فهذه الأسباب ذاتية ببداهة وعلى الأخص غير شاملة. حسن، هيا:

زوجتي لا تفعل إلا ما يحلو لها.

زوجتي فجة عنيفة، موجة كلمات، عاصفة هوجاء.



Telegram: SOMRLIBRARY

زوجتي ألماسة لم يصقلها أحد.

زوجتي تؤمن بما لا تراه: تؤمن بالأشباح، بالمنازل المسكونة، بالعين الشريرة، بالطاقات السلبية، بالموجات المدمرة.

زوجتي مغرمة بالحب وبالأمير الساحر.

زوجتي تحب السيارات الجميلة والفخمة. لا تحتمل أن تكون راكبة. تقود سياراتها (دوماً) على يسار الطريق والحق معها ضد جميع السائقين الآخرين.

زوجتي لا تتسامح، ولا تعرف التسويات.

ليس لدى زوجتي مفهوم الزمن. بالمقابل إحساسها حاد عن التوجه. الزمن، الأرقام...

زوجتي تظن أنها صادقة. تقول الحقيقة حين تكذب.

زوجتي متوحشة لا تزال متأثرة بالأرض القاحلة ونقص الخبز.

زوجتي شريرة حين تُهان، حيوان أصبح جرحه سلاحاً فتاكاً.

زوجتي لديها منطق لم يتوصل إليه أي عالم رياضيات. هي وحدها المؤتمنة عليه وتستخدمه.

زوجتي قادرة على تدمير ذاتها لتبرهن أن الآخر مذنب.

زوجتي مقتنعة أنها مطيعة، وأنها تتحمل الانتقادات اللاذعة والماكرة لعائلتي.

زوجتي تتناول النبيذ المُسْكِر والمسبب للهذيان. وتقول إنها لم تفرط قط في شرب الكحول ولم تثمل.

زوجتي تعتقد أن العلاقة الزوجية تلغي الأسرار بين الزوجين. تظن أنها انسجام بطيء ولطيف، انصهار كلي وبلا عائق، مشاركة عمياء.



Telegram: SOMRLIBRARY

لزوجتي ذاكرة انتقائية جداً، مغرية، نموذج أصيل من الذكاء، صرامةٌ مخيفة وجنونٌ محسوب لا يصل حدّ الهذيان بحيث تخون هذا الجنون.

زوجتي تكره التحليل وطرح الأسئلة والشك واحتمال الخطأ.

زوجتي ليست مشعوذة، لكنها تثق بكل مشعوذات العالم، تؤمن بسهولة بمشعوذ أكثر من عالم متخصص.

زوجتي مثل منزل بُني بلا دعائم.

زوجتي رائعة مع كل الناس إلا مع زوجها.

زوجتي هي أبو أبيها وأم أمها.

زوجتي تدعو الدراما تراجيديا.

زوجتي تحلم أن تراني مستضعفاً لأكون تحت رحمتها.

زوجتي ليس لديها حسّ الإنصاف، لكنها تتخيل نفسها منصفة.

زوجتي تغار بشدة.

زوجتي لم تقل لي قط شكراً.

زوجتي لم تقل لي قط أحبك.

زوجتي لا تتحنن إلا على أطفالها وإخوتها وأخواتها ووالديها.

زوجتي تظن أن الأزواج الآخرين ليس لديهم مشاكل.

زوجتي تغيظني مرة على الأقل في اليوم.

زوجتي تستخدم سوء النية بثقة واعتداد.

زوجتي تخلط بين «الصحيح» و«الجيد» وبين «الخاطئ» و«الرديء».

زوجتي لم تشاورني قط قبل اتخاذ قرار.

زوجتي تدّعي بأنه لم يكن لها عشيق قط. وهذا ما أشكّ به. أمامها، أتظاهر بتصديقها: يجب عدم إهانة النساء الخائنات.


Telegram: SOMRLIBRARY

زوجتي تظنّ أنها تحبني - وأنا أيضاً.
لم أعد أحبها وهي تبادلني الشعور ذاته...

عندما أنهى قائمته بعد بضعة أيام، قبيل موعده مع الطبيب النفسي، استمع إلى التسجيل. أحسّ الرسام أنه نسي الأساسي. لذلك شغَّل آلة التسجيل من جديد وقال: «أنا الوحيد المسؤول عن هذا التردي. واختلافنا لم يكن اختلافاً بسيطاً في السن أو في الطبقة الاجتماعية. اختلافنا كان أعمق وأخطر: طوال حياتنا المشتركة، لم نعش القصة ذاتها ولم نعترف بذلك قط».


Telegram: SOMRLIBRARY

# الفصل الرابع والعشرين

## الدار البيضاء، 4 كانون الثاني/ يناير 2003

«الموت، أمرٌ سهل، أما الحياة فلا يمكن التخلص منها» قالت السيدة موني لجولي.

ليليوم، فريتز لانغ

لم يبادر قط إلى هجر امرأة. ستكون زوجته هي الأولى. اتخذ قراراً قاطعاً. واحتاج إلى الوقت للتوصل إليه، لكن الإصابة الدماغية ساعدته في النهاية أكثر من أي صديق من أصدقائه أو من طبيبه النفسي. انتظر حتى يمضي عيد الميلاد، وهيأ نقاشه، وأنهى عمله قيد الإنجاز، وارتاح، ثم في يوم بدت فيه أكثر هدوءً، دعاها في نهاية العصر إلى محترفه.

عندما أخبرها عن قراره بالانفصال عنها، وحدَّثها عن انعدام الحب بينهما، تظاهرت أنها لم تسمعه وسألته أين يريد أن يتعشى في المساء. لم يُجب. وساد الصمت لفترة مديدة. فجأة انتقلت إلى الهجوم: «لكن ماذا سيصير حالك من دوني؟ أنت مدين لي بكل شيء، مهنتك ونجاحك وثروتك. من دوني، لن تعود شيئاً، مجرد خرقة متهالكة على أريكة. حضوري وحيوية شبابي وذكائي هم الذين جعلوك معروفاً ومشهوراً وجعلوا لوحاتك تساوي مئات الآلاف من



Telegram: SOMRLIBRARY

الدولارات. من دوني، سينهار كل هذا. عدا عن أنني سأجعلك تدفع ثمن ذلك باهظاً! ليس لديك فكرة عما يسعني فعله. أنت أردت أطفالاً معي وبناء أسرة، فعليك أن تتحمل ذلك. لن أرفع إصبعي الصغير لمساعدتك، وذات صباح ستجد نفسك في مواجهة القسوة مجسدة بامرأة. أنا من صنعتك، وأعرف كيف أهزمك!» وعلى هذا، خرجت من المحترف صافقة الباب. لم يحرك الرسام ساكناً. وظل متماسكاً.

عندما أدركت بعد بضعة أيام أنه لم يكن يمزح، وأن ذلك لم يكن كلاماً طائشاً وأنه يريد جدياً تركها، سبقته ودست له مساءً رسالةً من محامٍ يطلب إلى الرسام أن يشير إليه برأيه. كان يقترح إجراءات طلاق وديّ. فوجئ بذلك بحكم معرفته بزوجته وسماعه لها تهدده. قرأ وأعاد قراءة الرسالة ثم قال في سره: «رغم كل شيء، الأمر على هذا النحو أفضل، هذا سيسهل الأمور ويجعلها تسير أسرع».

غَيَّر لهجته في الأسابيع التالية. فزوجته لا تنوي حتماً القبول بتسوية. لم يكن لديها أي رأفة، وسواء كان مريضاً أم لا، مقعداً أم لا، فقد حسمت أمرها: على هذا الرجل أن يدفع ثمن وقاحته لأنه رغب بتركها. لم يعد الرسام يستطيع النوم. فقد أعلنت الحرب بينه وبينها ولن يوقفها شيء. «طلاق ودي»! الأحمق الذي كتب هاتين الكلمتين- وهي إحدى العبارات المبتذلة التي يوجد الكثير منها - لم يستطع أن يتخيل أن كلمة «ودي» لا تعني شيئاً بالنسبة إلى هذه المرأة.

اقترح بعض الأصدقاء أن يتحدثوا إليها، وأرادوا إعادتها إلى جادة الصواب، لأنها كانت تتفجر غضباً. كانوا يريدون مساعدتهما



Telegram: SOMRLIBRARY

على إيجاد حلٍّ مُرْضٍ لكليهما، ودون تخريب كل شيء، ودون حشر الأطفال. أصدقاء مساكين! راحوا يمضون ساعات في الحديث معها بلا طائل. كانت تصغي إليهم وتبتسم وتشكرهم على صداقتهم ومبادرتهم، لكن كان لديها شيء ما، ربما من الولادة، نوعٌ من طاحونة صغيرة بين أذنيها تسحق الكلمات وتحيلها عدماً. كانت تَعِدُ أحياناً بالاتّصال بمحاميها وإلغاء إجراءات الطلاق، ثم عند عودتها إلى المنزل، تجعل الأطفال شهوداً: «والدكم يريد الطلاق، يريد أن يهجرنا، التقى فتاة تسلطت عليه وتسرق مالنا. وَكَّلَ محامياً ولا يريد أن يدفع قرشاً للتسوق. سيترتب عليّ أيضاً أن أطلب من البنات إقراضي المال».

وعندما كان أحد الأطفال يلفت نظرها إلى أن السائق هو من يتسوّق دوماً وأن والدهم كان يعطيه المال لأجل ذلك، كانت تراوغ: «أعرف، لكنه الآن، لم يعد يريد... على أية حال، في الحالة التي هو عليها، أي امرأة سترغب به، أتساءل؟ إنه خرقة، رث، لا يصلح لشيء، لم يعد يرسم وحتى مساعده قال لي إنه قلق جداً، حصته انخفضت مؤخراً!».

كان كل شيء يتقدم للوصول إلى نهاياته.

ذات صباح، وبعد ليلة طويلة من الأرق، نجح الرسام في نهاية المطاف في النوم ورأى حلماً إيروتيكياً جميلاً، وهو ما لم يعُد يحدث له منذ زمن طويل. كان في سهرة يحاول التعرف على امرأة شابة، لطيفة، ذات عينين ضاحكتين وجسد أهيف، متسق، متزوجة ولديها طفلان. كانت موجودة دون زوجها، وهو موظف شاب في وزارة الرياضة، سافر في بعثة إلى الخارج. وعند مغادرته السهرة،



Telegram: SOMRLIBRARY

لحقت به وقالت له: «هل ستذهب في سيارة، أقصد في سيارة أجرة أم مشياً. أنا، لدي سيارة، أقترح عليك أن أرافقك...» وحتى يشكرها، وضع على رأسها قبعته اللبادية. ناسبتها كثيراً. «احتفظي بها». في المصعد، فتحت قميصها والتصقت به. وفي الأسفل، سحبته إلى ركن مظلم قرب القبو وخلعت تنورتها. لم تكن ترتدي سروالاً داخلياً. كانت الإثارة في أوجها، فتجامعا واقفين، ووقعت القبعة وتدحرجت على الأرض، ومرّ فأر فوقها. وهو يرى ذلك، صرخ واستيقظ مذعوراً. هتف متعجباً «الفأر اللعين!».

مَن كانت هذه المرأة الشابة، وأين رآها؟ من أين تخرج الوجوه التي تسكن أحلامنا؟ كانت تشبه ممثلة كوميدية فرنسية نسي اسمها. ربما شاهدها في فيلم على التلفاز، أو ربما في مكان آخر. ابتسم، لكنه حين لمح الرسالة المدعوكة التي تحتوي طلب الطلاق الودي، مرمية على طاولة السرير بين كومة من علب الأدوية، كَشَّرَ. وعلى الفور، اتصل بمحاميه لتدارس الوضع معه وطلب منه تسريع الإجراءات.

عندما أصبح الرسام جاهزاً، بعد أن اغتسل وارتدى ملابسه، نادى على التوأمين للبدء بجلسة إعادة التأهيل. صارت الجلسة تتضمن الآن تناوباً منتظماً بين التمارين الرياضية والمشي. قاده المساعدان إلى الصالة الرياضية وتابعا كل تمرين من تمارينه. وبما أنه كانت لديه رغبة في الثرثرة، سأل أحدهما:

- هل أنت متزوج؟
- أجل، سيدي.
- وسعيد؟



Telegram: SOMRLIBRARY

- لنقل لا بأس.

ثم توجه إلى الآخر

- وأنت، هل تزوجت؟

- لا يا سيدي

- لماذا؟

- ألا ترى كيف تتطور النساء المغربيات؟ تحرّر، مساواة، هن من يتحكّمن؛ أرى ذلك مع أخوتي، المساكين، يعانون...

- لكنهن لسن جميعهن متحررات، ثم إن المرأة المتحررة أفضل، تعمل وتساهم في ميزانية الأسرة...

- ذات يوم، طلبت أمي من والدي أن يبادلها الحديث، هي التي صارت تعاني من أنه لم يعد يتحدث إليها؛ وأصبحت تضجر. قال لها أبي دون أن يرفع عينيه عن التلفاز: «غداً، سأتكلم معك غداً». في اليوم التالي راحت أمي تنتظر وهي في غاية السرور، لكن أبي بقي صامتاً. سألته: «بماذا تفكر؟» وبعد برهة صمت قال لها: «أفكر في هذا: لو أنه كانت لدي الشجاعة للتخلصِ منكِ منذ ثمانية عشر عاماً، لما بقي لي أكثر من عامين للخروج من السجن!».

- لكن هذه قصة مرعبة!

ظلت الجرائم الشخصية ترعب الرسام دوماً. لم يكن يفهم كيف يمكن لموت آخر أن ينظم الأمور. ذلك ما لم يتخيله قط. كان يخاف على زوجته، عندما تتأخر وعندما تكون على الطرقات، ولم يكن يتحمل رؤيتها مريضة، فيهتم بها ويسدي لها النصائح. لو بقيتْ مريضة طوال الوقت، لربما أصبحت علاقتهما الزوجية سعيدة. وفي الحقيقة، حتى لو لم يعد يحبها، لا يزال يُكِنُّ لها شيئاً من الحنان والتعلق لا يجد له تفسيراً. ذات يوم، كُسِرَتْ ذراعها وهي تتزلج



Telegram: SOMRLIBRARY

على الثلج؛ كانا في سويسرا. فهرع كالمجنون ليطلب النجدة، ورافقها طبعاً إلى العيادة ونام في الحجرة ذاتها على سرير ميدان بقربها. مع ذلك، تشاجرا في الصباح نفسه حيث كادت أن ترمي على وجهه القهوة الساخنة. لا، لم يرغب قط أن يؤلمها ويؤذيها ويمنعها من تحقيق ذاتها وإنجاز أمورها. كان قد ساعدها في الإعداد لعرضٍ عن موسيقى قريتها، مع أنه كان يكره هذا الفلكلور. وجد لها منتجاً وصالة. وطيلة عام، مثلت العديد من المجموعات البربرية وأعلت من شأنهم في فرنسا وبلجيكا وسويسرا. وضع تحت تصرفها مفكرة عناوينه، واتصل بأصدقائه ليساعدوها ويضمنوا نجاح هذه المبادرة. عندما كانت تعمل، كان يدعها وشأنها. عندئذٍ كان يقول في سره: «يجب أن تبقى مشغولة طوال الوقت» وبعد الموسيقى، اقترح عليها تنظيم معرض عن الصناعات الحرفية في منطقتها، لكنه كان أقل نجاحاً. ومن جديد، وبّخته. لذلك قرر أن ينظم سوقاً خيرية، وطلب من أصدقائه الرسامين أن يقدم كل واحد منهم لوحة. كان هذا صعباً لأنه يجب تأسيس جمعية. أحدهم تبنى هذه التظاهرة باسم مؤسسته. جمعت ما يكفي لتجميل قريتها، وما يكفي لبناء مدرسة وعلى الأخص ما يكفي لتحسين شروط حياة سكانها.

ميزتها الأساسية أنها كانت عنيدة ومخلصة؛ وعيبها أنها لم تكن تذهب إلى نهاية ما تعهدت به. تعب وانصرف عن الاهتمام بها. لعلّ ذلك كان خطأً. ذات يوم قال لها: «أترين يا عزيزتي، لو تزوجتِ فتىً من قريتك، شخصاً جيداً، شخصاً يتحدث لغتك ويفهم صمتك، لكنتِ بالتأكيد أكثر سعادة».

هذا ما راح يفكر فيه بعمق. انطلاقاً من تجربته، توقف عن مديح التهجين، ولم يعُد يؤمن بالثراء من طريق معاشرة المختلفين


Telegram: SOMRLIBRARY

وصار يعتقد أن الخروج عن القبيلة، عوضاً عن الزواج الغبي داخلها، ليس مضمون النجاح.

غالباً ما كان يقول، ليس هناك صراع حضارات، هناك فقط صدام جهالات. بالتأكيد، كان يجهل كل شيء عن تلك الثقافة البربرية التي تنتمي زوجته إليها. ولم يهتم بها قط. لم تكن تعرفُ من المغرب إلا مسقط رأسها. لم يكن بإمكان الصدمة إلا أن تكون عنيفة وتُحْدثُ أضراراً في العلاقة الزوجية وبين الأسرتين. لم يفكر في ذلك أو استصغر نتائج فعلته، لكنه كان عاشقاً. والحب، سواء كان أعمى أم مبصراً، لا ذنب له فيما تفعله الكائنات بعد ذلك.

طفق الرسام يفكر بإيمان ويبحث عن وسيلة لإبقائها نهائياً قربه رغم الميل الذي قالت إنها تشعر به نحوه. كان حضورها يحرره من الضباب الذي يسيطر أحياناً على روحه. كان يراها مثل لوحة، أو عند اللزوم مثل نموذج لم يعُد يرغب بمغادرة المحترف. فضلاً عن أن ذلك حدث له مرة واحدة، في الفترة التي كان يمارس فيها الرسم التصويري مع طالبة شابة جاءت لتلعب دور النموذج مقابل دفع نفقات دراستها. كانت لطيفة ومحترمة وتعرف كيف تبقى ساكنة ولم تكُن تتكلم. ذات مساء، بعد أن أنهت وضعية جلوسها، طلبت منه كأس نبيذ. عرض عليها الاختيار بين النبيذ الأبيض والأحمر. بعد أن شربت كأساً، اقتربت منه وقبلته من عنقه. أبعدها برفق. اتخذ لنفسه مبدأً ألا يلمس نماذجه، لكن الشابة راحت تعرض نفسها عليه. أبعدها ثانية وشرح لها أن اللوحة لم تنته وأنه سَيُقَوض كل شيء إن مسّها، وهذا مبدأ بالنسبة إليه. غادرت صافقة الباب



Telegram: SOMRLIBRARY

وراءها. ولم تعُد مرة أخرى. بعد عام، صادفها في سوق داغير، كانت برفقة رجل أكبر منها، وقدمته له: زوجها. قال لها:

- تعالي إلى المحترف، تعرفين أنك لم تأخذي شيكك، وسأستفيد من ذلك في إكمال اللوحة.

- سآتي بكل سرور، لكن سأتصل بك قبل ذلك.

في اليوم التالي حضرت.

- لم أعد نموذجك.

- بلى، ما زلتِ كذلك لأنني أهملتُ اللوحة، وحين ننهيها، سنحتفل بذلك.

أكمل لوحته وأصبحت عشيقته. استمر ذلك فصلاً. قلما كانت تتكلم ولم يكن يطرح عليها أسئلة. وبطريقة شبه طبيعية، ثمة طقس أُشيْدَ بينهما. كانت تأتي عصر يوم في الأسبوع، تقبِّله وتتعرى. أحياناً يكون منهمكاً في العمل، فتنتظره في السرير، وحين يتأخر، تقول له: «سأبدأ لوحدي» وعندما ينهي عمله يلحق بها ويمضيان ساعة كاملة من المتعة، دون عاطفة ودون تعليق، فقط متعة من أجل الرغبة والفرح. لم تستحمّ قط عنده، كانت ترتدي ملابسها بسرعة، وتقبِّله وراء أذنه وتذهب. بينما يمكث هو في مكانه، متعباً، لكن راضياً. عندئذٍ تكون الشمس قد غربت. فيأخذ دوشاً ويعود إلى منزله. لم يكن بوسع أحد أن يشك به. وما دام يضاجع زوجته، فإنها لم تشتبه بشيء، أو على الأقل، لم تُظْهِر شيئاً.

ذات يوم، زاره الشخص الذي عَرَّفَتْه عليه باعتباره زوجها. كان رجلاً متعباً، هَرِمَ قبل الأوان. اعتذر لأنه مرّ دون سابق إنذار، أطرق عينيه الحزينتين وقال:

- لقد هَجَرَتْنَا. كنتُ أعرف أنها تأتي لتراك، وكانت تحكي لي



Telegram: SOMRLIBRARY

عن خلواتكما. كنت أغار، لكنني أكبح نفسي كي لا أظهر شيئاً. ثلاثون عاماً من فرق السن. هذا كثير. في مثل عمري، لا يسعني أن أضع شروطاً. هَجَرَتْنَا من أجل ممثلة إيطالية، قبيحة جداً، ناحلة مثل مسمار، بلا سحر ولا حس دعابة. هو ذاك، كنت أريد أن أخبرك، آملاً أن أقتسم معك شيئاً من حزني.

قدَّم له الرسام شراباً وأفهمه أن عليه ألّا يغتم:

- إنها فتاة حرة، لا تفعل إلا ما يحلو لها، لنتمنَّ لها أن تكون سعيدة مع تلك المرأة!



Telegram: SOMRLIBRARY

# الفصل الخامس والعشرون

## الدار البيضاء، 25 كانون الأول/ ديسمبر 2003

«في الزواج، إذا كان أحد الزوجين حكيماً،
فكلاهما سعيدان»

فكرة باكيتا، خادمة سيليا، في فيلم
**السر خلف الباب** لفريتز لانغ

ظل دوماً يخاف مما كان يدعوه «الجحيم». كان يسمع الناس يقولون أن حياتهم الزوجية هي جحيم، وأن الطلاق كارثة، وأن عدم الحب هو عنفٌ شديد مطبق على الآخر...

علم بالصدفة أثناء عشاء أن أحد أصدقائه، الذي يعيش جنوب فرنسا وقلما رآه لأنه لم يكن يحب التحرك من مزرعته - كان موسيقياً - قد طلق زوجته. اتصل به ليعرف أكثر.

- أجل، طلقتُ، وخسرتُ كل شيء وأعطيت كل شيء، وليس معي الآن قرش واحد، لكنني ربحتُ شيئاً لا يقدَّر بثمن: الحرية. إنني مفلس، لكنني أتنفس. فضلاً عن ذلك، أقوم بجولة على أصدقائي حتى أجد شقة صغيرة في باريس. سيأتي المال. عندي حفلات في العام القادم، لكن لم يعد لدي منزل ولا قارب ولا سيارة. طَالَبَتْ بشيء من قبيل التعويض، لم أكن حتى أعرف



Telegram: SOMRLIBRARY

بوجوده، تدفعه زيادة على النفقة. هو مبلغ كبير من المال يعوضها عما تفقده من شهرة ومكانة بانفصالها عنك. وأنا، من يهتمّ بمكانتي؟

«أخيراً، انتهى الأمر، أرى ابني في عطلة نهاية الأسبوع مرتين في الشهر، وأعود إلى حياتي. أستطيع أن أحدثك عن الجحيم لساعات، الأفضل أن يخسر المرء كل شيء ويخرج من الجحيم على أن يحاول التشبث والاستمرار في المقاومة؛ أنا رجلٌ مدحور، لكن لا أحد يأخذني على محمل الجدّ. تلقيتُ ضربات جسدية ونفسية ولا يحقّ لي أن أتذمّر. هو ذاك يا صديقي، أنت رسام، فاصنع لنا لوحة جدارية عن الرجال المدحورين؛ سيكون حسناً إظهار هذه الحقيقة التي لا أحد يتحدّث عنها. وأنت، كيف تجري أمورك مع متمردتك الجميلة؟».

قال الرسام إنه قرر تركها نهائياً. وسيتطلقان، هما أيضاً، لكن المحاميان لم يتوصلا إلى اتفاق بعد. وهو يروي ذلك، اجتاحته فورة قلق مفاجئة، وشعر كأن كرة على صدره. بعد أن أغلق السماعة، ابتلع ربع حبة ليكزوميل، ثم طلب رقم محاميه. أظهر هذا الأخير اطمئنانه، وطلب منه أن يصبر قليلاً. كان يعتقد أنه يسيطر على الوضع جيداً.

لكن بعد بضعة أيام، ودون سابق إنذار، اجتاح عدد من المحضرين محترف الرسام.

– نحن جئنا لتقدير ذمتك المالية الفنية. ونحن مضطرون لإحصاء وفهرسة جميع اللوحات التي لديك هنا وفي أي مكان آخر.



Telegram: SOMRLIBRARY

نحن منتدبون من زوجتك. مع ذلك اعلم أننا نُكِنُّ لك الكثير من التقدير؛ فأنت موضع فخرنا! اعذرنا، فنحن لا نقوم إلا بعملنا.

تركهم يباشرون عملهم. معظم اللوحات لم تكن منجزة أو مهملة. رافقهم إلى القبو حيث توجد رسومات أهداها له أصدقاء. سجلوا كل شيء ووعدوه بالعودة فيما إذا...

في المساء، حاول أن يتحدّث مع زوجته عن هذه الزيارة. وبما أنه كان يُحَضِّر على عجل معرضاً لصالة في موناكو، اكتفى بلعب دور المُهان وطلبَ من زوجته أن تهدأ. فهو لا يستطيع أن يتحمّل الخصام معها مرة أخرى.

- أنا لا أثق بك، ويجب أن أتخذ احتياطاتي. غداً، إن أنت ذهبتَ مع إحداهن، سأجد نفسي في الشارع بلا شيء. وليس هناك سبيل آخر. رأيتُكَ مؤخراً كيف سال لعابك أمام شقراء متبرجة تزوجها واحد من أعزّ أصدقائك رغم أن الفارق بينهما نصف قرن! كل شيء ممكن، لذلك أنا أبادر...

- لا تقلقي. دعيني أرسم، أنا بحاجة فقط إلى السلام حتى أنهي مهمتي الشاقة. أنا أعمل كثيراً الآن.

- السلام! لن تنعم به أبداً!

كان الرسام وزوجته يعيشان كعدوين يترصّد أحدهما للآخر. حين يغيب، كانت تنبش أمتعته وتصور جميع الأوراق التي تقع تحت يدها. وترسلها بعد ذلك إلى محاميها. وخلال تلك الأسابيع، اتّخذ عمل الرسام منعطفاً جديداً، أصبح أكثر قسوة وأكثر عمقاً. كأنه يعيش الأيام الأخيرة لمحكوم بالموت. أخذ فنّه يكبر في المحنة.


Telegram: SOMRLIBRARY

كان يعرف ذلك ويفكر أنه بعد هذه المرحلة سيترتب عليه أن يأخذ عطلة، وسيذهب مع إيمان إلى أي مكان، ربما إلى جزيرة. لم يكن يهلوس بجزيرة خالية، لكنه كان يفكر أنه بمجرد ابتعاده سيتمكّن من التقاط أنفاسه، والتفكير في عمله، لكن هل يحتاج من أجل هذا للذهاب إلى أقصى العالم؟


Telegram: SOMRLIBRARY

# الفصل السادس والعشرون

## الدار البيضاء، 3 شباط/ فبراير 2003

«ثمة أشياء يجب أن تبقى في الظل... إننا نتألم بلا طائل مع تلك الحقائق».

**مشاهد من الحياة الزوجية**، إنغمار بيرغمان

وصلت إيمان عصراً متدثرة بجلباب أزرق. كانت خارجة من الحمام. وضعت أدواتها، وزرقته حقنة، ودلّكته مطولاً. كانت تفوح برائحة زكية، لم تكن عطراً، إنما الرائحة الطبيعية لجسدها الذي قضى بضع ساعات في ذلك الحمام الذي تنطلق الألسن فيه.

- قالت له وهي ترتّب أدواتها، سأروي لك قصة حب، هذه القصة لم أختلقها، سمعتها اليوم في حمام الحي. وحتى لو أن النساء غالباً ما يروين أي شيء في هذه الأمكنة حيث تُحَرِّرُ الحرارة والبخار والعري المخيلة والروح، لكنني أعتقد أن ما سأحكيه لك فيه شيء من الحقيقة. أعرني أذنك واحكم على ذلك بنفسك.

هذه قصة حبيبة، المرأة التي ابتلعت زوجها.

في اليوم التالي لزواجها، قرّرت حبيبة أن تلتهم زوجها لتحافظ عليه بقربها إلى الأبد. في البداية تشمّمته، كما تتشمّم قطة



Telegram: SOMRLIBRARY

فريستها، ثم عضّته قليلاً، وبعد ذلك شرعت تلتهمه وهي تحرص على عدم إثارة أي شبهة.

في اليوم الأول عاينَت الأعضاء السهلة البلع. وفي الثاني، نَوَّمَتْهُ وهي تداعب جسده لفترة مديدة، لحستْ إبطيه وأعضاؤه الجنسية. ورغم المنومات التي جَرَّعَتْه إياها في عصير الحليب باللون، كان زوجها يتحرك من فترة لأخرى. استسلم وعيناه نصف مغمضتين وابتسم، ولم يعُد قضيبه يرتخي. استثيرت حبيبة إلى درجة أنها راحت تترنم وحيدة بالرغبة. استمتعت لأنها تستطيع أن تفعل ما تشاء بزوجها، مندهشة من انتصارها.

كانت صديقاتها قد حكين لها الكثير من الأمور المرعبة عن ليلة زفافهن وكانت تخشى عنف الممارسة الجنسية التي ترعبها أحداثها ولا سيما قصة الدم على الأغطية. وأيضاً كانت تداعب نفسها منذ طفولتها واكتشفوا أثناء زيارة طبية أن غشاء بكارتها تمزق. رفضت ترقيعه، فهي لم تضاجع قط رجلاً.

في ليلة زفافها، قدّمت نفسها لزوجها على أنها امرأة تقليدية، مطيعة، وسعيدة لأنها كذلك، خجولة وعيناها مطرقتان، تاركة إياه سيد الموقف. وفي الحقيقة، كانت قد خطّطت لذلك: ستجعله يثق ثقة عمياء تحضيراً لليوم التالي. مزّق زوجها سروالها المصنوع من الساتان، وباعد ساقيها وولجها دون مداعبة. تألمت، جذبته إليها وأبقته فيها لحظة مديدة، مانعة إياه من الحركة. قذف بسرعة وانسحب منها فخوراً. لم يتبادلا أية كلمة. هذا لا يحدث في مثل هذه الظروف. حين نهضت لتذهب إلى الحمام، رآها في بهائها، انتصب من جديد، فألقى بنفسه عليها، أمسكها من ذراعها ورماها على السرير. ومرة أخرى، دون أن يداعبها، ودون أن يقبّلها، دخل فيها واستمتع مصدراً حشرجة فهمت منها أنه يشكر الله وأمها



Telegram: SOMRLIBRARY

لأنهم أنجبوا له هذه المرأة. عندئذٍ وضعت المسحوق الأبيض في كأس الحليب واللوز الذي شربه سحبة واحدة. حين عادت، كان يغطّ في نوم عميق.

هذا اليوم الثاني، إذاً، تراقب حبيبة مطولاً زوجها النائم. تثيرها فكرة التهامه بالتدريج. رغبتها نحوه تكبر. تتعرق وترتعش. تقترب من زوجها وتداعب ذراعه، ثم تبدأ باليدين. تمصّ أصابعه واحداً واحداً، وتقضمهم مبتهجة. وفي اليوم الثالث، تهاجم ذراعيه. وفي الرابع، تأكل قدميه وجزءاً من ساقيه. في اليوم الخامس، تفصل رأسه وتضعه في مزهرية من الكريستال أهداها لها عمها الذي جمع ثروة من عمله في دول الخليج. في اليوم السادس، تأكل ما تبقى محاذرة أن تفسد الأعضاء التناسلية التي وضعتها في علبة سحرية. وفي اليوم السابع لم يبقَ شيء من الرجل الذي تزوجته. أو الأصح، بقي لها بكامله، فقط لها. لكن حبيبة لم تسمن، كانت سعيدة وفخورة بنفسها.

وفي النهاية نجح الزواج. لم يعُد هو وهي يشكلان إلا واحداً. لم يلاحظ أحد شيئاً. كان الاحتفال في أوج نشاطه عندما كانت تأكله، وتقطعه بمنهجية وقسوة، متبعة حرفياً النصائح التي أسدتها إليها أمها يوماً، منذ زمن بعيد: «الرجل يا بنيتي يُحْتَفَظُ به ولا يُتَقَاسم مع امرأة أخرى. ولكي تتملكه المرأة لنفسها، ليس هناك ما هو أفضل من التهامه! لا فائدة من الحديث معه أو تحذيره أو تهديده: إن خنتني سأقطع خصيتيك، أو إن رأيتك مع امرأة أخرى، سأذبحكما معاً... يجب التحرك مسبقاً، فبعد فوات الأوان، يعتاد الرجال على خضوعنا».

ظلت حبيبة تقول في سرها: سيكون زوجي لي، وسأكون له. لن يكون بيني وبينه أي فرق. ولن يتمكن خيط حرير أن يمرّ بيني



Telegram: SOMRLIBRARY

وبينه. سنغدو واحداً وإلى الأبد. اتحادٌ كلي وتام وفوق الشبهات؛ ولن يستطيع أحد أن يفصم عراه أو يبلغه. هذا هو الحب، الحب المجنون. وهذا ما تعلمه الأمهات لبناتهن. الرجال نادرون. لذلك يجب فعل أي شيء لإبقائهم بجانب زوجاتهم وألا تغويهم نساء أخريات.

اختفت حبيبة عن سطح الأرض ليس لأنها ابتلعت زوجها. تبصقه كل يوم ليتفرغ لاهتماماته، وعمله، وكسب أسباب عيشه، ثم يعود إلى المنزل دون أن يلتفت يمنة أو يسرة. إنه تحت السيطرة ويخضع لإرادة زوجته التي تمنحه مظهره الإنساني عندما تقرِّر ذلك. عندما يعود، يلثم يدها، ويقدم لها باقة ورد، ومن حين إلى آخر قطعة حلي أو قطعة نسيج جميلة، لا يعود أبداً بيدين فارغتين. عندما يتكلم، يسبل عينيه بخفة ولا يرفع صوته أبداً. لا يطالب بعشائه. يؤدي صلاته وينتظر إشارة من زوجته المغمورة بالسعادة لرؤيته من جديد. يأكلان دون أن يتكلما، ويختار لها ألذّ القطع ويقدمها لها. ويقوم بذلك بلطف ولباقة. تقدر هذه التصرفات وهذا الصمت. وقبيل نهاية الوجبة، تشعر بتصاعد الرغبة، وتكفي نظرة لينهض الرجل ويسبقها إلى غرفة النوم. المرأة لا تمنح نفسها في الحال؛ تحبّ أن تجعله ينتظر، تحوم حوله وتلامس بأصابعها قضيبه، وتقيس نوعية انتصابه وتتسلى به جاعلة منه لعبتها. يطيعها الرجل ويلثم يدها وفمها وفرجها. إنه هناك لأجلها وفقط لأجلها. كل طاقته الجنسية مرصودة لزوجته الشرعية.

لكنه ذات مساء، شرد قليلاً، وقذف قبل أن يمتعها. فوجهت له حبيبة صفعة قوية. ومنذ ذلك الحين، يضاجع حبيبة بمنتهى الانتباه، مكرساً لها نفسه كلياً. روحه، التي تشارك في الفعل الجنسي، تثيره وتهيئه للجنس. يجعلها تشم رائحة عطره وشهوته


Telegram: SOMRLIBRARY

وحميميته والرائحة الطبيعية لإبطيه وبشرته وتجاعيده. ذات مرة تخيل أنه عثر عليها تحت خيمة، ليلاً في الصحراء، وكانت محجبة. زحفت على البساط نازعة حجابها وجاءت لتمصّ خصيتيه بلسانها وأحياناً تبتلعهما لدرجة الاختناق. وفي مرة أخرى، وجدها مقعية وهي تتغوط. فاجأها من الخلف، وامتطاها. تركته يفعل وهي تتأوه كامرأة محرومة. حدث لهما أن امتزجا وهما يلعبان بأعضائهما إلى حدّ أنهما وصلا إلى انسجام تام. وأثناء الجنس، لم يكونا يتكلمان، كانا يتحركان، يتحابان ويحتضن أحدهما الآخر. إنهما واحد وحتى شخص واحد، لكنه لم يتخذ في أية لحظة وضعية المسيطر عليها. فهو يعرف أنها لن تسامحه. وفي كل مرة تبصقه فيها تخبره برغباتها واستيهاماتها. وعندما تشتهي حبيبة زوجها، يستيقظ هذا الأخير ويلبي رغباتها. أحياناً، بعد المضاجعة، تطلب حبيبة من زوجها أن يذهب وينام في غرفة أخرى. لا يعترض، وهو يعرف أن حسناءه محقّة. زوجها لها، وهذا ما لا يمكن لأحد أن ينتزعه منها.

العلاقة الزوجية المتشكلة بين حبيبة وزوجها هي علاقة مثالية. صديقاتها يحسدنها إلى درجة أنهن سألنها ذات يوم عن سرّ وفاقهما التام. فأجابتهن حبيبة: «إنه يحبني، هذا هو السر. نحن نحب بعضنا وهذا كل ما في الأمر»، لكن صديقاتها لم يصدقن، فهن يتشاجرن طوال الوقت مع أزواجهن. هن واثقات أنهم يخونونهن، وأنهم يقامرون بمال الأسرة في الملاهي أو يبذرونه في الحانات أو مع العاهرات. يعدن لرؤية حبيبة ويطلبن منها أن توضح الأمر أكثر. عندئذٍ تجيبهن: «لتحتفظ المرأة بزوجها، عليها ألا تنتظر فراره منها، يجب الاهتمام به منذ الليلة الأولى. الرجل في الخارج هو رجل مفقود بالنسبة إلى زوجته. يجب ألا تفلته أبداً، لأنه حتى حين يخرج، يبقى لها، وفقط لها».


Telegram: SOMRLIBRARY

لميا، إحدى صديقات حبيبة، اشتبهت بها أنها رأت ساحراً.

«احتجت حبيبة، أبداً. السحرة هم مشعوذون. لا، لستُ بحاجة إلى الذهاب من أجل القيام بأشياء سخيفة ومثيرة للسخرية. وصفتي مضمونة. أثبتت صحتها. أمي علمتني إياها. كان والدي الرجل الأكثر حباً والأكثر خضوعاً. كان يحبُ أمي ولم يكن مسموحاً له أن يبدي رأيه. لقد قمتُ تماماً بما نصحتني به أن أفعله. بلا تشكك ولا تردد، إما أنا أو هو، إذن الأفضل أن أكون أنا، أليس كذلك يا أعزائي؟ أنا فخورة جداً بضنيعي».

«الليلة الأولى هي الحاسمة، أؤكد لكم ذلك. ينبغي عدم الانتظار لليوم التالي. منذ أن دخل إلى الداخوشة، غرفة الدخلة، ورغم قامته الطويلة وجسامته، شاهدتُ الحمل الوديع الذي سيكون بين يدي. هذا الرجل سيكون لي، لكنه كان من النوع المقاوم. حدقتُ فيه بإمعان ونجحتُ في جعله يخفض عينيه. والباقي كان سهلاً. فالرجل الذي يخفض عينيه لا يعود أمامكِ إلا التقاطه. إنه لكِ، وإلى الأبد. لا حاجة إلى جرعات الأدوية ولا البخور ولا الرقيات. الأمر يتعلق بالإرادة. ذلك ما علمتني إياه أمي. وحده شراب الحليب باللوز مع قليل من المسحوق الأبيض يمكن أن يساعد...

– ما هي هذه الوصفة؟ صرخت فاطمة. يجب أن تتضامني مع شقائنا. لن تكوني وحدك الناجية من الورطة بينما نحن نشبه المماسح، ننتظر أن يعود ونحن نأمل ألا يفوح برائحة الكحول وألا تكون امرأة أخرى قد أفرغت خصيتيه وجيوبه.

– قلت لكم ذلك وأكرره، لا يسعني شيئاً لأجلكن، فات الأوان كثيراً على فعل أي شيء. كان يجب قطع رأس الأفعى منذ اليوم الأول.

– لكن أي أفعى؟ نحن متزوجات برجال وليس بأفاعي!



Telegram: SOMRLIBRARY

– أنتن تائهات ولا يمكنني فعل شيء...»

لكن صديقات حبيبة يُظهرن إصرارهن ويُحِطْنَ بها. «لن تخرجي من هنا قبل أن تخبرينا بسرك.

– حسن، ما دمتن مصرات سأقول لكنّ ما ينبغي عليكن فعله. يجب على كل واحدة منكن أن تلتهم زوجها، أجل، تبتلعه، وتدخله في جسدها وتحافظ عليه إلى الأبد. هذا ما فعلته وهذا هو نجاحي. لكن بالنسبة إليكم، الأوان فات. أصبح أزواجكم متيبسين، لا يمكن أكلهم، ولا طهوهم. من المستحيل العودة إلى الوراء.

– هل التهمته، التهمته فعلاً؟

– ابتلعته. أجل، ابتلعته تماماً. إنه موجود، في داخلي، ولا يخرج إلا بأمر. لم يكن لدي خيار. إما أن أبتلعه أو أقبل أن أصبح كلبته، وخاضعة لسخرته بلا رحمة، ومتأهبة دوماً ليحرثني عندما يقرر ذلك. وبعدها لا أعود أصل إلى نشوة الجماع أبداً.

– وتنوين أن تنجبي أطفالاً معه؟

– ليس الآن. حالياً أستغله إلى أقصى حدّ، وبعدها سأرى. بولادة أطفال، أخشى أن يفلت مني. لذلك سيترتب أن أجد حيلة أخرى للاحتفاظ به في هذه الحالة من الخضوع الكلي. سأسأل أمي، وهي ستسأل أمها، لا بد أن أهتم بذلك سريعاً، فهي توشك على الموت».

وبعد بضعة أيام، ذهبت حبيبة لرؤية جدتها. كان عمرها قد تجاوز التسعين عاماً، صغيرة وهزيلة ويابسة، لكن نظرتها لا تزال حيوية وتعبِّر عن رأيها بقسوة. قالت لها: «الرجال جميعهم قذرون وأنذال. إذا لم تضبطيهم، فسيسببون لك أسوأ بؤس. ليس الزواج شيئاً آخر سوى إعلان حرب نحتفل به بالموسيقى، مع وجبة طعام فاخرة وعطور وبخور وملابس أنيقة ووعود وأغانٍ... إلخ. للحفاظ



Telegram: SOMRLIBRARY

على رجل، لا توجد سوى وسيلة واحدة: ابتلاعه». وأرفقتها بحركة من أصابعها نحو فمها المفتوح. «أحياناً هذا مستحيل. في هذه الحالة، ينبغي على الأخص عدم الاستسلام، فثمة طرق أخرى. كان جدكِ مثلاً لا يُؤكل. كان قاسياً مثل جميع الرجال، ويستحيل ابتلاع أي شيء من جسده. لذلك تظاهرتُ أنني جاريته لأشهر مديدة. كنت أفعل كل ما يحبه، كنت أمشي على أربعة قوائم أمامه، ولم أكن أرفض أي طلب له أو ما أفترض أنه يعجبه. وبعد بضع سنوات، اعتاد على رعايتي، ولم يعُد يستطيع الاستمتاع إلا معي. هذا ما أسميه الحفاظ على الرجل. لم يخنّي قط، أعرف ذلك لأنه كان لدي جواسيسي الذين أدفع لهم بسخاء. من المتجر إلى المنزل ومن المنزل إلى المتجر. لم يقم بأية زيارة إلى منزل واحدة من النساء اللاتي يخن أزواجهن. لا، هو، كان محصناً. وعند موته، بكى طوال الليل وهو يقول لي إنه سيكون في غاية التعاسة في الجنة من دوني. لا أعرف إن كان الله أرسله إلى الجنة، لكن هناك حيث يوجد الآن، أعرف أنه ينتظرني. لستُ مستعجلة للحاق به، ما زال أمامي بضع سنوات أعيشها وبضعة أسفار أقوم بها. بالتأكيد سيلهمه الله الصبر.

«اعلمي يا ابنتي أنه بهذه الطريقة ينجح الزواج، وليس بطريقة أخرى. ولا تنسي، ما إن تضعف يقظتك حتى يستغلّ ذلك زوجك. إنها حرب صغيرة، ننتصر فيها بالصمت، لأنه بمجرد أن نبدأ بالصراخ، فهذا يعني أننا فقدنا المحاكمة، وهذا بداية الفشل. لا أجد حولي إلا الفشل. النساء يبكين والرجال ينتصرون. هذا ليس عدلاً. لو أنّ كل العالم حذا حذوي، لانتهى كل هذا إلى الأبد».

أصغت حبيبة بانتباه إلى جدتها وحفظت الدرس. ومع ذلك، شعرت بعد عام بنوع من التعب والضجر. فزوجها المطيع فقد



Telegram: SOMRLIBRARY

جاذبيته. ويكفي أن تومئ حبيبة له حتى يتأهب لإرضائها. وحتى بدأت تشعر بالغثيان، مع أنها ليست حاملاً، إنه التعب. رجلٌ متأهب دوماً، رجلٌ تحت رحمتها، رجل لها وحدها، رجل كهذا يشبه طبق طعام بلا توابل، وبلا دهشة.

اختارت حبيبة أن تنتفض، وأن تغير شيئاً في العالم العجيب للمرأة التي ابتعلت زوجها. اقترحت عليها أمها أن تتقيأه قليلاً. فكرت أنه ينبغي الانتقال إلى مرحلة أخرى: منحه القليل من الحرية، تركه يذهب إلى مكان آخر، وربما تنظيم مغامراته ووضعه بين ساقي أية فتاة تعيد له شيئاً من حماسه ومخيلته.

أصغت حبيبة لنصائح أمها وتقيأت طوال النهار. في المساء شعرت بنفسها أكثر خفة. وبعد بضعة أيام، أصبح زوجها حراً تماماً أمامها، لكنها لم تنظر إليه ولم يعُد يهمها. شعرت بالتحسن، وأنها تخلصت منه. قالت له أن بإمكانه الرحيل، وأنها لم تعُد متمسكة به.

قررت حبيبة أن تبتلع رجلاً آخر. وقع اخيارها على زوج ابنة عمها المريضة، ضامنة بذلك أن تنوب عنها في علاقة زوجية محرّمة. قبل أن تموت، قالت ابنة العم لحبيبة: «أحذرك، إنه عسير على الطبخ. إنه شرس. لا تحاولي ابتلاعه في الليلة الأولى، ستجازفين بالإصابة بعسر هضم خطير. هذا هو سبب المرض الذي يعذبني. أعهد به إليك، لكن انتبهي لنفسك!»

لكن جمال حبيبة الأسطوري انتصر على جميع مقاومات الرجل الشاب ومآثره. ابتلعته وحَوَّلَته إلى شيء لها، بقدر ما رغبت بذلك. حذت نساء أخريات حذوها، وهكذا تشكلت قبيلة النساء الملتهمات للرجال. وحتى هذا اليوم، ساد السلام في تلك البقعة التي لم يعُد فيها الرجال المُبْتَلَعون يبدون رأيهم.


Telegram: SOMRLIBRARY

بعد برهة صمت، انفجرت إيمان ضاحكة. والقبطان أيضاً.

- سألها، هل سمعتِ حقاً هذه القصة في الحمام؟ أعتقد أنها من بنات أفكارك. عليك أن تكتبيها وتطوريها وتجعلي منها رواية. أنا واثق أنها ستلقى نجاحاً.

كانت إيمان تحلم منذ صغرها بكتابة القصص. لم تكن تتجرأ على الكلام في ذلك، لكن حين كانت تسنح لها الفرصة، تحكيها. في الليل، عندما لم تكن تنام، كانت تطلق العنان لخيالها. كانت تنظر إلى السماء من نافذتها، تعدّ النجوم، وتسمي الغيوم وترى فيها شخصيات تعطيها أدواراً.

وهي تغادر، انحنت على القبطان وقالت له:

- صدقتَ، لم أسمع هذه الحكاية في الحمام، لكنني لم أختلقها كلها. أليس هذا ما يفعله الفنانون والكتاب؟ إلى الغد أيها القبطان.

تركتْ خلفها رائحة عطرها، وهو الحالم، أصبح حزيناً.

المشاعر التي يُكِنُّها لهذه المرأة الشابة لم تكن تشبه في شيء ما عرفه سابقاً. كان يشتهي النساء الأخريات ويفعل ما بوسعه ليعيش قصة معهن، فيقع في الغرام لبضعة أيام، وأحياناً لأسابيع، لكن مع إيمان لم يوجد شيء من كل هذا. كان بحاجة إليها، ليس فقط على المستوى الطبي. بحاجة إلى رؤيتها والاستماع لها تروي الحكايات وتسارره. ولم يكن له مطلب آخر.



Telegram: SOMRLIBRARY

# الفصل السابع والعشرون

## الدار البيضاء، 12 شباط/ فبراير 2003

«قد نستطيع إصلاح زواجنا وإيجاد نموذج آخر من الحياة المشتركة. أعطني فرصة. ألا يمكننا أن نقتسم هذه الكارثة؟».

**مشاهد من الحياة الزوجية**، إنغمار بيرغمان

حين تلقى الرسام زيارة من محاميه لتحديدِ مقدّم الطلاق، كان منهمكاً في العمل. كان يصور غطاءً كتانياً أبيض مدعوكاً وموضوعاً على مائدة وينسخه بدقة وإحكام استثنائيين. كان مدهشاً.

- قال له المحامي: يمكنك ألا تنسخ الثنيات بدقة، لن ينتبه أحد لذلك ما دمت أنت من دعكتَ النموذج.

- طبعاً، لكن أنا أنتبه لذلك؛ وهذا غير مسموح عندي؛ سيكون غشاً، وما كنتُ حتى لأحتاج إلى نموذج. كان يمكنني أن أرسم أي غطاء، في حين أن ما أرسمه هو هذا الغطاء وليس آخر، وهو لا يشبه أي غطاء آخر في العالم. وبمجرد الانتهاء من رسمه، فإن ما سيراه الناس في اللوحة، لن يكون غطاءً، سيكون شيئاً آخر.

- فهمتُ. يمكنك أن تدعوه: **ما ليس غطاءً!**

- ما ليس أصيلاً.



Telegram: SOMRLIBRARY

- سامحني على وقاحتي.

- لا، هذا طبيعي، لستَ أول من يوجِّه لي هذه الملاحظة. في الواقع، هذا كما لو أنك تستخدم في دعوى مرافعة حَصَلْتَ بها على البراءة في قضية أخرى تشبهها إلى هذا الحدّ أو ذاك؛ لن يكون هذا مناسباً، أليس كذلك؟

- في الواقع لا.

- ما الأخبار؟ أنا مستعد لسماع كل شيء، الأخبار السيئة والجيدة.

- حسن، أعتقد أن زوجتك لا تريد الطلاق في الحقيقة.

- لم يكن ينقصني إلا هذا!

- نظراً إلى ما يطلبه محاميها، لا بد أنها تفكِّر أنّ ذلك سيُحدث صدمة ما فتعدل عن الطلاق. إذا صَدَقَت الرسائل الأخيرة التي تلقيتها، فإن ادِّعاءاتها مبالغٌ فيها. طالَبَتْ بكل شيء، باسم أبنائكم، بكل ما تملك، وفوقه دفع تعويض يبلغ عدة ملايين من الدراهم. إذا قَبِلْتَ، فلن يعود أمامك إلا الحصول على خيمة صغيرة والبحث عن مكان يأويك من الريح تنهي فيه حياتك.

- هل تعتقد أنه سيكون لدي ما يكفل شراء هذه الخيمة الصغيرة وبعض الأشياء البسيطة بحيث لا أموت من برد الشتاء؟

- سأتكفل بذلك إن أردت! لكن دعْ المزاح، يجب أن تتصرف. لا أرى إلا حلاً واحداً. إن وثقتَ بي، سنقدِّم طلب الطلاق هنا في المغرب، حيث ستكون الغلبة لك. يجب أن نسرع لأن مَن يسجِّل الطلب أولاً سيطبّق قانون البلد الذي قدّمه فيه. له الأولوية. ومنذ صدور المدونة الجديدة، صار القضاء المغربي معروفاً على المستوى الدولي، أنت لن تجازف بشيء على مستوى



Telegram: SOMRLIBRARY

الحق. لا تقلق كثيراً. بحسب معرفتي بك، أعلم أنك ستقترح على زوجتك، على أمّ أطفالك، نفقة مريحة ومنزلاً وحتى أداء تعويض مناسب. سترى المحكمة أن اقتراحاتك ملائمة أكثر.

- اترك لي بعض الوقت قبل أن أجيبك. عليَّ أولاً أن أنجز هذه اللوحة. إذا كانت لدي القوة للعمل فيها طوال نهار الغد، أعتقد أنها ستنتهي، وعندئذٍ سيكون على إيمان، ممرضتي ومدلِّكتي، أن تحكم إن كانت ناجحة أم لا. في الحقيقة، قراري متعلق بهذه اللوحة التي ستحمل للمرة الأولى اسم: **قطيعة**.

لم يفهم المحامي جيداً لماذا الرسام الكبير يعتمد على رأي ممرّضة بسيطة، لكنه لم يُظهر شيئاً من ذلك. خفض صوته وهمس:

- طمئني، أتمنى ألا يكون بينك وبين هذه الفتاة شيء؟

- لا شيء. إنها تقوم بعملها على أكمل وجه وأثق بذوقها لأنها ليست مؤرّخة ولا ناقدة فنية. إنها فتاة من عامة الناس، ساحرة ومؤثرة. منذ أن اهتمت بإعادة تأهيلي، وأنا أستردّ عافيتي.

- هل زوجتك على اطّلاع؟

طبعاً، وسبق أن حاولت طردها مرتين.

عندما عاد إلى لوحته، شعر بنفسه مقاتلاً أكثر من أي وقت مضى، خاصة منذ أن وجد لها عنواناً. خطر بباله هذا العنوان دون تفكير. وهذا ما أمتعه. كل ثنية كانت ضيقاً عاشه. وكل ظلٍّ كان لحظة حزن وكآبة. وضع على اللوحة أشياء وحده يعرفها.

وكالعادة، أمضى فترة قيلولة قصيرة بعد الظهر. كان يحب أن يغفو بعد أن يقرأ كتاباً أو مجلة. فجأة، سمع بوضوح شخصاً يهمس في أذنه: «أخفقتَ في زواجك... انجح على الأقل في طلاقك!»



Telegram: SOMRLIBRARY

استيقظَ على الفور، ونظر حوله، فلم يجد أحداً. رنّ الجرس مستدعياً مساعديه. كانت ساقه اليسرى تؤلمه. طلب من التوأمين أن يُجلساه على الكرسي الموضوع أمام مسند اللوحات ليستأنف لوحته.

عندما انتهى أخيراً من رسم الغطاء المدعوك، في وقت متأخر من عصر اليوم التالي، اتصل بإيمان لتبدي رأيها فيها. التمعت عيناها الجميلتان عندما استقرّتا على اللوحة فعرف مباشرة أنه أبدع تحفة فنية. تذكَّر أن عليه تقديم جواب لمحاميه. اتصل به نحو الساعة السابعة مساء:

- هيا، أنا أثق بك. على أي حال، مهما كان قراري، سأظلّ مذنباً دوماً ولن يخلِّصني شيء من هذه القصة.

بعد الاتصال الهاتفي بالمحامي، وبعد عودة إيمان إلى منزلها، شعر فجأة برغبة في كتابة رسالة إلى زوجته، رسالة لن يرسلها إليها. لم يكن يعرف كيف يبدؤها. هل عليه أن يقول «عزيزتي...» أم فقط يكتب اسمها، أو ببساطة «صباح الخير»...؟ لم يضع شيئاً ودخل مباشرة في صلب الموضوع:

أود لو تعلمين كم أنا آسف لما وصلنا إليه. أودّ أن أعتذر على تركك اليوم وأن أقول لك إنّ هذا ليس خطئي ولا خطأك. هكذا نحن ألعوبة بيد القدر. آمنت بالحب، آمنت به إلى درجة أنني اعتمدت عليه في حلّ مشاكل لا حلّ لها. لكن لزمن طويل كانت تنقصني الشجاعة والحزم وها نحن نمزّق بعضنا تحت النظرات المذهولة لأطفالنا. لطالما وددت أن نجد تسوية دون أن نتسبَّب بكل هذه


Telegram: SOMRLIBRARY

الأضرار، دون أن ننشر غسيلنا القذر على الملأ تقريباً، ثم عبر محامين وسطاء.

آمل أن نحافظ على الأقل على علاقات ودية وحضارية، لأنه سيترتب علينا أن نرى بعضنا لأجل الأطفال، وكما تعلمين هذا كل ما يهمني في حياتي وأنا أثق أن هذا ما يهمك في حياتك أيضاً.

أرجوك، كوني عاقلة، واقبلي بالواقع، واعترفي أننا لم نعُد نحب بعضنا. الحب ليس قراراً أو إرادة. ومثلما يستوطن، يغادر. ولا يسعنا شيئاً حياله...


Telegram: SOMRLIBRARY

# الفصل الثامن والعشرون

## الدار البيضاء، 18 شباط/ فبراير 2003

«- ضاجعني باسم صداقتنا
- لن أستطيع؛ الأفضل أن أوضب حقيبتي».

**مشاهد من الحياة الزوجية**، إنغمار بيرغمان

في ذلك الصباح، استيقظ الرسام باكراً. كانت إيمان تصل عموماً نحو الساعة الثامنة، لكنها تأخرت اليوم. حاول أن يهدّئ تلهُّفه مقنِعاً نفسه أنّ ثمة عائقاً منعها. عندما وصلت أخيراً، بعد ساعتين، لاحظ على الفور أنها بكت. بدأت في العمل دون أن تتفوه بكلمة. وبعد برهة، سألها برفق إن كانت تريد أن تبوح له:

- نحن أصدقاء، ويمكن لأحدنا التحدث مع الآخر وأن يقول له ما يعتمل في قلبه. ماذا حدث لك يا إيمان؟

- علي أن أغادر المغرب وألحق بخطيبي.

- كنت أظنّ أن هذه المسألة سوِّيت.

- أجل، لكنه أعاد الكرّة، واقترح علاوة على ذلك أن يهتمّ بأوراق أخي الصغير ليجد له عملاً في بلجيكا. هذا مهم بالنسبة إلى أسرتي. لم يجد أخي رغم دراساته عملاً، ولا بد من القول إنه لا يبحث جدياً عن عمل، إنه يائس من الطريقة التي يتصرّف بها الناس



Telegram: SOMRLIBRARY

هنا، الفساد منتشر في كل مكان، ودون فساد لا شيء ممكن.

- هل تحبين هذا الرجل؟

- لا أدري، لا أكاد أعرفه. جاء في سيارة جديدة، نوع مرسيدس، وكما تعرف، سيارات المرسيدس هنا مثل افتح يا سمسم، هي رمز ثراء. لا أريد أن أسبب ألماً لوالديّ وعلى الأخص لأخي الذي يأمل كثيراً أن يخرج من المأزق.

- لكنك تضحين!

خفضت بصرها لتتجنب البكاء من جديد.

كان الرسام يعرف أنّ هذا الرحيل سيُحزنه، لقد تعلق بهذه المرأة الشابة ذات الخيال الجامح، ذات السحر الهادئ واليدين الموهوبتين لفعل الخير. كان يعرف أنها ستكون تعيسة في بلجيكا. فهذا الخطيب القادم في سيارة فارهة يضمر بالتأكيد سوءًا. كان قد صادف الكثير من الفتيات اللاتي تبعن أزواجاً، واكتشفن، بمجرد وصولهن، أنّ لديهم أسراً أخرى. كنّ يعدن إلى أهلهن باكيات وينتظرن أن يرغب بهن رجال آخرون. بعضهن وقعن بين أيدي مهربي الحشيش الذين يستخدمون زوجاتهم لتهريب البضاعة.

طلب الرسام من إيمان أن تَعِدَه بألا تنساه، وأن تأتي لزيارته وعلى الأخص أن تبقيه مطلعاً على أحوالها. وهي متأثرة، ارتمت بين ذراعيه، ووضعت رأسها على ترقوة كتفه وضمَّته إليها بقوة. لم يكن يرغب بالتحرُّر من هذا العناق، ومع ذلك فَضَّلَ أن يبقيا على مسافة، لأن حالته لم تكن تسمح له أن يقترح عليها أي شيء، لكن ما دار في ذهنه يتناقض مع انتصاب قضيبه المفاجئ والحازم. كان مذهولاً وفي الوقت ذاته خائباً. لن يمارس الحب، لا سيما مع إيمان، لا،



Telegram: SOMRLIBRARY

يتماسك ويحاول أن يدفعها برفق، لكنها تضمّه أكثر فأكثر إليها، يشعر بجسدها دافئاً، وبنهديها الصغيرين على صدره، ويشمّ عطر شعرها. أوشك أن يكلمها، ثم تراجع. أصبحت الآن فوقه، مستعدة لامتطائه. نهضا، ساعدته للجلوس على السرير، أقفلت بالمفتاح باب المحترف، وأسدلت الستائر وأطفأت النور واندسَّت بقربه وهي تخلع ثوبها. كانت عارية ودافئة وترتعش من الرغبة. أما هو، فاستسلم. دلَّكت بطنه، ثم أسفل بطنه، واستولت على قضيبه وقبلته مطولاً، جلست عليه وببطء تركته يدخل، وأعادت الحركات ذاتها بحنان، انحنت فوقه وغطت وجهه بشعرها الطويل. بقي الانتصاب على حاله. حين شعرت أنه يوشك على الارتخاء، منحته شفتاها القوة والصلابة. وعندما قذف، تأوّهت من المتعة، لأنها كانت تنتظر هذه اللحظة منذ زمن طويل، واستمتعت في الوقت ذاته.

ظلا فترة مديدة متحاضنين، وهي تداعب وجهه، وهو يفكر بالسعادة التي اكتشفها للتو. كان يعرف مع ذلك أنّ هذا الفعل لن يتكرّر، وأن ما حدث هو هدية وداع. ودون أن تتفوه بكلمة، ارتدت ملابسها، وجمعت أشياءها، وانحنت عليه وقبلته مطولاً. شعر بدموعها تنذرف وتختلط بدموعه التي يحاول إخفاءها.

- غداً ستأتي امرأة أخرى للاهتمام بك؛ إنها سيدة جيدة، وخبيرة، ولطيفة ومهنية. أنا من اخترتها. وداعاً. سأكتب لك أو إذا كنت تفضِّل ذلك، سأتصل بك من حين إلى آخر.

غادرت دون أن تلتفت. أما هو، فتناول منوماً ونام دون عشاء. كان يحتفظ في داخله بكل عطور هذه الجنة التي استراح فيها للتو وهو على درب النقاهة الطويل.


Telegram: SOMRLIBRARY

## الفصل التاسع والعشرون

### طنجة، 23 أيلول/ سبتمبر 2003

م. لزوجته،
«- منحتك سقفاً جميلاً...
- لكنه يفوح برائحة الدهان! لوحاتك تجتاح المدخل؛ تخلص منها أو سأرميها في القمامة؛ أنا قادرة على ذلك. تباً لك وللوحاتك! ضع هذه الجريدة واغسل الآنية».

الدرب الأحمر، فريتز لانغ

بناء على نصيحة أحد أطبائه، ذهب برفقة التوأمين ليرتاح بضعة أيام في منزل صديقه عبد السلام، الكائن خارج طنجة. كان ذلك نهاية شهر أيلول، أي بعد مضي عشرة أشهر على إخباره زوجته بأنه تركها.

عندما تمطر في طنجة، تهبّ رياح الشرق. تعصف وتجعل هضاب فندق الجبل القديم ترتعش. وحتى حين يتوقف المطر، تستمر الريح، مزعزعة الأشجار الأكثر علواً ومقاومة. كأنها تهزّها لتبعد الأمراض وتطرد البعوض. ويزعم آخرون أنها تسبب الجنون وأن المجانين يحتاجون إلى الريح ليهتاجوا ويغنوا ويرقصوا



Telegram: SOMRLIBRARY

ويضحكوا. كان بيت صديقه يقاوم جيداً، مع أن النوافذ والأبواب تصدر صريراً، تاركة عصفات باردة من هذا الزائر المتطفل تمر. كان كل شيء مرهقاً ويستيقظ من الخدر الذي يتلذَّذ به سكان المدينة. عشاق المشروبات الساخنة يتدثرون بجلابيبهم ويشربون الشاي بالنعناع؛ الصيادون لا يخرجون، وسوق السمك مغلق، الحانات تزدحم بأولئك الذين ينتظرون الريح أن تتعب. وعندما تهدأ، كل شي يصبح ساكناً ويسود الصمت ويستحسنه الناس. يستريح الجميع وينامون بعد العاصفة. كان الرسام يحب هذا الهدوء العائد الذي كان يسميه صمت موزارت.

راح الرسام يقارن بين زوجته وعناصر الطبيعة هذه. كانت عنيفة وفظَّة ومتوعّدة، ثم مثل معجزة، تصبح فجأة عذبة وهادئة ولطيفة. أغرقه رحيل إيمان النهائي في شهر شباط/ فبراير تدريجياً في كآبة غريبة. قال في سره «إنها امرأتي الأخيرة» مقتنعاً أنه لن يخوض علاقات جديدة بعد أن تدهورت حالته. ومنذ ذلك الحين لم يعُد يشعر أبداً أنه على ما يرام. جسدياً، راوده انطباع أنه أصبح أثقل وزناً، كما في فترة نقاهته الأولى. إيقاعه القلبي يتباطأ. إنه إلى زوال.

راح يتساءل للمرة الألف أمام البحر كيف السبيل للفرار من سطوة زوجته التي لا ترغب بالطلاق ونجحت في إحباط كلّ خطط محاميه. حاول عبثاً أن يرسم خططاً حتى تقبل بهذا الانفصال وأدرك أنها لن تتنازل أبداً. لم تكن تتعب أو تكلّ. وترتَّب عليه أن يغيِّر جذرياً تكتيكاته، لكن لم تخطر بباله أية فكرة، سوى أن يلوذ بالصمت. عندما كان يأتي أصدقاؤه لزيارته في الدار البيضاء، كان


Telegram: SOMRLIBRARY

يطالب أن يبقى وحيداً معهم. وبينما في حضورها لم يكن يتفوّه بأي كلمة، كان يستأنف كلامه أمام أصدقائه ويشرح لهم أنه كان محبوساً. لم يكن أحد يأخذ ذلك على محمل الجد. كان أصدقاءه يحاولون طمأنته: «لكن ما هو تصورك عن الحالة. بالأحرى أنت محظوظ لأنها إلى جانبك، وأخلصت لك تماماً. انظر، لقد أصابها الهزال وتعبت. لو كنت وحيداً، كيف كنت ستتصرف؟ أنت لا تدرك حالتك» بلى، كان يدركها ويحلم بالضبط أن يعيش وحيداً محاطاً بأشخاص تعجبه رفقتهم ويساعدونه حقاً، لكن لم تكن لديه القوة ولا الرغبة ليحكي خصاماته مع زوجته لأصدقائه، لذلك كان ينتهي به الحال إلى هزّ رأسه والابتسام بخفّة، كما لو أنه متّفق معهم.

كانت زوجته تصغي من وراء الباب. وعندما كان الحديث يلائمها، كانت تدخل بمشروبات منعشة، مُطرِقة رأسها وبصرها، مظهرة بعنادٍ كم كان هذا الوضع يرهقها. وكان يحدث لها أحياناً أن تمسح بعض الدموع. بعضهم كان يشفق عليها، وبعضهم الآخر هنأها على وجودها هناك، مضحِّية بشبابها ووقتها لتهتم بزوج عاجز ومعوق ذي طبع سيئ، وفنان يصعب العيش معه، وزوج يظنّ أنّ ظله يكفي لإشباع زوجته.

منذ أن طلب الطلاق، أصبحت قوية وهشة في آنٍ معاً. لأنها صارت تبكي حقاً عندما تلفي نفسها وحيدة في غرفتهم، بعيداً عنه. اكتشفت أن حياتها كانت إخفاقاً ونوعاً من الحطام. أخذت تفقد وزنها وتهمل نفسها ولم تعُد تخرج تقريباً. وحدها لالا، شيخها الروحي، كانت تأتي لزيارتها وتشجِّعها على مقاومة زوجها بأي ثمن، وتحرِّضها على الثأر منه عن كلّ ما جعلها تقاسيه كل تلك


Telegram: SOMRLIBRARY

السنوات ولأنه أراد أن يتركها. كان ثمة شيء مؤذٍ في نظرة لالا، كما لو أنها هي من كانت الضحية. حدّثتها عن ساحر جديد جاء من السنغال، رجل شاب يستعمل أعشاباً غير معروفة في المغرب. كان قد أحرز نجاحاً كبيراً إلى حدّ أنه كان ينبغي الانتظار أياماً قبل مقابلته.

للأسف، لم يكن الحديث يجري عن ترك الرسام لوحده، ولو لساعة واحدة، كانت لالا مستعدة للسفر معها حتى سالي حيث الساحر يحتفل بالقداس، لكنها رفضت. وعلى كلّ حال، لم تعُد بحاجة إلى ذلك. زوجها موجود ولم يعُد يستطيع الفرار منها وكانت هذه أفضل طريقة لمعاقبته. أصبحت تحصل منه الآن على كلّ ما تريد. وحتى لم تعُد تحتاج إلى توقيعه من أجل سحب المال من المصرف. كانت قد زورت سراً توكيلاً يعطيها عملياً صلاحيات مطلقة.

كانت قد تغلبت عليه، لكن هذا الوضع لم يكن مريحاً مثلما ظنّت. بالتأكيد أصبح لها كله، لكنه خانها رغم مرضه. كان أخرساً وجليدياً ولا يكاد ينظر إليها. هنا تكمن مأساتها: مهما فعلت، لن ينتمي إليها أبداً كما حلمت تماماً. كان ينذر نفسه لفنه وأصدقائه وعائلته ومرضه، وليس لها البتة. كان إحباطها يؤلمها. لم يعُد يوجد شيء الآن لإنقاذه وترميمه. إنها النهاية، نهاية مثيرة للرثاء بالنسبة إليهما معاً.

وهو راقد على جنبه، ورأسه متّجه نحو حديقة منزل صديقه، راح يراقب لساعات شجرة تين بائسة لم تعُد تثمر منذ زمن طويل. كان يحدِّق بهذه الشجرة القصيرة ذات الأغصان العارية، شجرة



Telegram: SOMRLIBRARY

رمادية لا بد من قطعها، وكان يعتريه حزن عميق وهو يفكِّر بأنّ قدره يشبه قدر هذه الشجرة العجوز التي لم تعُد تفيد بشيء. طفق يقول لنفسه: «لو أنني ما زلت أتمتع بالقوة، لرسمتها وسمّيتها «رسماً ذاتياً»». كانت الدموع تسيل على وجنتيه، مبلِّلة الوسادة. لم يفلح في إيقافها. كانت تخفِّف عنه وتعلن بداية الخلاص، في حين كان يكره ملامسة خده للنسيج المبلّل بالدموع؛ كان ذلك يذكِّره بوالده الذي أخذ يبكي بصمت في المشفى عندما تأكَّد أنه سيموت في غضون يوم. كان قد فهم من برطمة الطبيب أنه هالك ولم يعُد بالإمكان فعل شيء. أحزن هذا المشهد الرسام كثيراً. رؤيته لوالده الذي طالما أُعْجِبَ به مختزلاً إلى حالة عجوز ينتظر نعيه جعلت غضباً أصماً يزمجر فيه. انحنى ومسح خدي الرجل الذي يرحل باكياً مثل طفل.

عادت إلى ذاكرته شخصية ميشيل سيمون في دور عجوز مسلوبٍ وملقى على الطريق في فيلم **الكلبة** لجان رينوار بينما كان يتأمّل البحر من شرفة منزل عبد السلام. كان قد شاهد هذا الفيلم إبان شبابه. ووجد في تلك المرحلة هذه القصة مؤثرة. وفيما بعد، شاهد أيضاً النسخة الأميركية التي أنجزها فريتز لانغ عام 1945 وعنوانها الطريق الأحمر، مع الممثل إدوارد.ج. روبنسون الذي يقدّره كثيراً، لكنه لم يعِر اهتماماً كبيراً لمصير هذا الفنان الذي كان ضحية غرامه وسذاجته. مع ذلك كان الشَّبه واضحاً. طبعاً وعلى النقيض من شخصية الفيلم، ما كان هو ليقبل أبداً أن يرسم أصابع قدمي كيتي، الصبية التي سرقت موهبته. لم يُسلب منه عمله الفني، وإنما مُنع من إكماله. لم يُصبح أيضاً مشرداً يفتح باب السيارة التي اقتنى للتو مالكها إحدى لوحاته، لكنه مع زوجته وفي كرسيه المتحرك، صار


Telegram: SOMRLIBRARY

يعيش مربوطاً مثل علبة تنتظر من يستلمها. يستحيل عليه بعد الآن أن ينفك ويقطع الحبل ويحرر أعضاءه وينهض ليهرب من هذا السجن ويعدو كحصان جامح.

لم يعُد منذ أشهر يوجِّه كلامه إلى غريمته. من الآن فصاعداً، لن يعود ينظر إليها. سيتجاهلها، وسيشرد ويُغمض عينيه حين تقترب منه. وإذا سألته عن حالته، لن يحرك ساكناً، ولن يقوم بأية إيماءة، ولا حتى تكشيرة. سيعيش في عالمه، متقوقعاً كلياً على ذاته، كابحاً رغبته بالردّ على حربها بحرب أخرى. سيكون انتصاره، إن لم يستطِع هجرها، شاملاً يوم لا يعود يشعر بالحقد أو الاحتقار تجاه هذه المرأة. وببساطة يوم لا تعود موجودة.

كانت ذبابة تحوم حوله، رفع ذراعه اليمنى ولوّح يده، وقام بحركة صغيرة. ابتعدت الذبابة. أمسك جريدة وانتظر أن تعود حتى يحاول اصطيادها بشكل نهائي.



Telegram: SOMRLIBRARY

# الجزء الثاني

# روايتي للأحداث

## رداً على «الرجل الذي أحب النساء حباً جماً»

Telegram: SOMRLIBRARY

Telegram: SOMRLIBRARY

# تمهيد

فكرة ثابتة، مثيرة، مسلية، شيطانية. أنا ذبابة. عصبية وحازمة. شرهة وعنيدة. ذبابة لا تساوي شيئاً. يطردها المرء دون مجاملة، يسحقها حين يمسكها. يحتقرها، لكنه يخشاها. ليست الذبابة جميلة، وليس لديها ما تفخر به. ليست ملكة كالنحلة. إنها سوداء، رمادية، بلا حياء ولا أخلاق. إنها حرة وتستخفّ بأولئك الذين يجرون خلفها. تسخر من الجميع. ليس لها منزلٌ ولا بلد. تأتي مع الريح النتنة وتستقر دون إذن أحد. وحده المطر والبرد يوهنان عزيمتها. تتجرأ على الجميع. تدخل إلى الصالونات الفاخرة والمساجد النظيفة وإلى المخادع والأماكن الحميمية والسرية، إلى المراحيض، إلى المطابخ ومغاسل الثياب، إلى كلّ مكان تقودها إليه غريزتها. تُخرّب كفن الموتى، وتلسع لحماً ميتاً ثم تنطلق لتتسكع في مكان آخر. تعضّ البشرة الرقيقة للأطفال الرضَّع وتأكل بنهم وقذارة. تذهب إلى كل مكان ولا شيء يوقفها. حرة وعنيدة. أحسب نفسي ذبابة هذا الصباح. هذا يسليني. أحب حباً جماً هذا الجانب بلا خوف ولا وجل. ألعب دور ذبابة لأزعج زوجي. أؤديه بإتقان. عندما أحطّ على أرنبة أنفه ولا يستطيع أن يتحرك ليطردني، أكون مسرورة. أضحك بهدوء وأتشبث. أدغدغه، وأداعبه، أهينه وهذا يروقني.



Telegram: SOMRLIBRARY

إنه ثأري الصغير. وأخيراً لنقل: إنه جزء صغير من برنامجي.

من الغباء أن يخاف الرجال من الوحدة. أيّ إثم! أما أنا، الوحدة لا تخيفني. إنني أنا من تخلقها، من تُبدعها وتجعلها تسود. لا تزعجني. إنني مثل ذبابة، لي روح مستقلة لا تحتمل التسويات. زوجي يجدني متصلبة. بلا شك، لكنني لا أحب هذه الكلمة. إنها تذكّرني بالموت. أما الوحدة، فأنا أتدبر أمري معها. لا تحيجكم إلى النواح والعويل بالقرب من آخرين يسرّهم في أعماقهم أن يحتقرونكم. الوحدة هي أنا. إنها على هذا النحو. لم يحب قط كلمة رَجُلِي، لكنه رجل بالنسبة إلى كل الأخريات ابتداءً من أمه وأختيه المشعوذتين.

اليوم أنا ذبابة. الوحدة موجودة منذ زمن طويل، منذ إصابته بالسكتة الدماغية. لنقل إنني أبالغ قليلاً بها، وأُهَوِّل الأمر بقدر ما أستطيع. ليس لدي خيار آخر. أمتصّ الدم على أرنبة هذا الأنف الضخم. أزعجه وأوبِّخه وأشتمه وأبصق على جسده، دون أن يستطيع فعل أي شيء، لم يعُد يستطيع تحريك ذراعه ويده وأصابعه. إنه رهين المرض بينما أنهمك أنا حتى لا أهمل أي تفصيل.

لست سوى ذبابة، ذبابة عادية، حمقاء وعنيدة. إنني لجوجة. هذا موجود في موروثاتي. وفي طريقة وجودي. هي الأمور هكذا، وليست على نحو آخر. هذه حماقة، لكن الأمر على هذا النحو. ولا يمكن فعل شيء. كان زوجي يُصاب بنوبات عصبية بسبب عنادي. المسكين! حاول اجتثاث هذا المظهر الأساسي من طبعي ولم يفلح. وكنت دوماً أقوى منه. لي عيون مثل الذبابة في كل مكان، وأرتاب بكل الناس، ولا أثق إلا بما يناسبني. الأمر على هذا النحو ولن يجعلني شيء أبدل رأيي. ذبابة، أنا ذبابة مخيفة.


Telegram: SOMRLIBRARY

# روايتي

قبل أن أقدِّم لكم روايتي للأحداث، لا بد أن أخبركم بأنني سيئة. لم أولد سيئة، لكن عندما يهاجمني أحد، أدافع عن نفسي وأردّ بكل الوسائل الضربة بمثلها. وفي الواقع، لا أكتفي بردّ الضربات، إنما أردّ الصاع صاعين. هكذا، أنا لست لطيفة، وأكره اللطفاء، إنهم هشّون وضبابيون ويمكن استبدالهم. أحب العلاقات المباشرة والصريحة والخالية من النفاق والتسويات. أجل، أنا متصلبة. الليونة تركتها للأفاعي والدبلوماسيين. لا أخجل من قول ما أفعله، لأنني امرأة نزيهة. لا أكذب. وأذهب مباشرة إلى هدفي. لا أخاتل. خرجت من بين الحجارة والأشواك. ولدت على أرض مجدبة، بلا ماء ولا ظل. لا شجر عندنا ولا نبات، لكن يوجد حيوانات وبشر. حيوانات ملعونة ونساء خاضعات. وضدّ هذا تمرّدت. على الجفاف ردَدْت بالقسوة. والحيوانات لا تتصرف بأدب، على حدّ علمي. أنا قاسية لأنّ اللطفاء يموتون وهم يتساءلون لماذا يتعامل معهم الناس بمنتهى السوء.

لا أعرف الخوف. ولم أعرف الخوف قط. ولا أعرف الخجل. ومن يريد أن يجعلني خجلة لم يولد بعد. الأمر هكذا. لا خوف ولا خجل. لا أخشى أحداً. لديّ استعداد للموت في أي



Telegram: SOMRLIBRARY

مكان وفي أي زمان. أهاجم ولا ألتفت إلى الخلف.

جعتُ، جعتُ كثيراً. عانيتُ من الظمأ وكابدت البرد. ولم يُنجدني أحد. وأدركتُ منذ وقت مبكر أن الحياة ليست إلا سلسلة حفلات ساهرة فيها جميع الناس يحبون جميع الناس.

إنني مستقيمة. وأحافظ على استقامتي. لا أقبل أن يحاول أحد إخضاعي أو خيانتي. الخيانة بالنسبة إليّ هي أسوأ شيء. أنا قادرة على قتل أي شخص يخونني، ذكراً كان أم أنثى. الأمر هكذا. لا أكتم شيئاً في نفسي. فضلاً عن أنه ليس لديّ ما أكتمه. أصمِّم على قراري حتى النهاية. إنني من الليل، من عالم قاسٍ لا يُغفر فيه شيء لأحد.

أتساءل لماذا شعرتُ بالحاجة إلى إخباركم. فهذا ليس من شيمي. أنا لا أتكلم. وإنما أفعل. وهنا، تكلمت، خشية ألا أفعل.

اسمي أمينة وأنا الزوجة التي تتحدث عنها هذه القصة. أنا طويلة، أبلغ 176 سم من الطول؛ وشعري كستنائي اللون، هذا لونه الطبيعي. أحب الحياة، ومعجبة بطباعي وأحب تقديم العون. لم أكمل دراستي، لكنني أحب الاطّلاع وأثقِّف نفسي طوال الوقت، أقرأ وأتقصى. أحدِّد كل هذا بدقة لأنني أريدكم أن تعرفوا أنني موجودة بالفعل. فزوجي بَالَغَ في تزييف الحقيقة.

جئتُ من بلدة جافة، أرضٌ يبابٌ لا تنبت شيئاً إلا الصخور والأعشاب البرية الشوكية. إنها ليست قرية، ولا حتى محلة، إنما مقبرة يقطنها أحياء. لون الغبار تارة رمادي وتارة أخرى أمغر. ذلك يتعلق بالأيام. يلتصق هذا الغبار بالأعشاب البرية ووجوه الصبية، وبالقطط والكلاب الجائعة. لا يكترث كل العالم بمكان قريتي. إنها



Telegram: SOMRLIBRARY

بلدة منسية لا اسم لها. بعضهم يسمّيها بلدة الفنا، أي قرية العدم. لم يتوقف فيها أي وليّ أو نبي. ما الفائدة؟ ولأجل مَن سيتوقف؟ لأجل فلاحين بائسين وحيوانات لا تجد ما تقتات به؟ العدم، أجل، قرية العدم.

كان أبي يريد أن يجعل مني راعية؛ فأطعته حتى جاء يوم اكتشفتُ فيه المدرسة. وبدل أن أجمع الحطب وأراقب الأبقار، تبعتُ ابن عمي إلى المدرسة التي تبعد ساعة كاملة مشياً عن القرية. غطيتُ رأسي بوشاح رمادي وانخرطتُ بين بقية الأطفال. ومع أنّ المعلم كان يتفقد الحضور كل يوم، إلا أنه لم ينتبه لي إلا عندما تشاجرتُ مع زميلتي التي رفضت إعارتي قلم رصاص وورقة. إنني عنيفة، لذلك أستولي على ما لا يُمْنَحُ لي. انتزعتُ منها حقيبة كتبها واستخدمتها؛ صَرَخَتْ؛ فتَدَخَّلَ المعلم وها أنذا مُعَاقبة بالوقوف على قدمي طيلة فترة الصباح. عَلِمَ والدي بتصرفي الطائش. لم يرغب بأيّ حال أن تختلط ابنته بالصبيان في المدرسة. «قال لي، بماذا يفيد تعلّم القراءة والكتابة؟ الأفضل أن تتعلمي كيف تلد بقرة أو نعجة» لم توافقه أمي الرأي، وكانت تريد أن أتابع دراستي لأخرج من الظلمات التي تجعلني أحياناً حزينة. لم يكن مسموحاً لها أن تبدي رأيها. كان أبي لطيفاً معها، لكنه كان يقول لها إنه من الأفضل أن يبقى كلّ واحد في نطاق وظيفته. منعني من العودة إلى المدرسة وعهد بي إلى عمّه بوعليم، وهو صاحب بقالة في مراكش، فاستخدمني كخادمة. كان بوعليم بخيلاً، بخيلاً جداً. كان يمضي أيامه في بقالته؛ يعدّ علب السردين، ويغيِّر مكانها، ويعيد عدّها. غالباً لم يكن يغتسل، مكتفياً بالوضوء قبل الصلاة - طريقته في التدين! نظافة في منتهى السطحية. كانت ملابسه تفوح برائحة العرق. كان ضامراً، ليس فيه


Telegram: SOMRLIBRARY

غرام من الدهن. يُقال إن الرجال الضامرين يعيشون طويلاً. كانت زوجته تصرخ في وجهه. وذات مرة ضربها بعنف. بكتْ. وبكيتُ. في ذلك المساء، حُرمنا من العشاء. كنتُ أجوعُ طوال الوقت. وفي مرة أخرى، تسللتُ إلى البقالة المتصلة بالمنزل، وسرقتُ علبة مربى. لم أكن قد أكلتُ المربى من قبل. في اليوم التالي، وحتى دون أن يسألني، صفعني صفعة فتلت رأسي. قلت لنفسي: «إنها ثمن علبة المربى المسروقة».

يوم أخبرني أنه سيعهَد بي إلى أسرة أجنبية، خِفْتُ وشعرْتُ في الوقت ذاته بالراحة. وضعني أمام بوابة فيلا تفتح من تلقاء ذاتها. وعلى لوحة إعلانية كُتب: «كلبٌ شرس». تقدمتُ بهدوء حاملةً أمتعتي المدعوكة في كيس بلاستيكي. ورأيتُ سيدة تمشي بصعوبة تتقدمُ نحوي. قالت لي: «تعالي يا صغيرتي، تعالي، سأدلك على غرفتك». في البداية لم أفهم ماذا يجب أن أفعل عندهم؛ كانوا في غاية اللطف معي، واشتروا لي ملابس جديدة (أجل، كانت المرة الأولى التي أرتدي فيها ملابس جديدة؛ عادةً كنتُ أرتدي أشياء قديمة حَصَلَتْ أمي عليها من العائلة)، وأعطوني طعامي ودعوني للجلوس معهم على المائدة؛ لم أكُن أعرف كيف أتصرف، وكنت أجد صعوبة في استخدام السكين والشوكة، فآكل بأصابعي، وهذا ما أزعجهم. كان عليّ أن أُقَطِّعَ اللحم وأتناوله بخفّة بالشوكة. راحا يُحَدِّثانني عن بلدان بعيدة وأسفار؛ وقالا لي إنهما سعيدان لأنهما أصبحا أبويَّ الجديدين؛ لم أكن أفهم كل شيء، لكن الخادمة زنوبة ترجمت لي كلامهما، بكيتُ، ومزقتُ فستاني الأزرق؛ اشتريا لي فساتين أخرى وسجّلاني في مدرسة خاصة لم يكن عددنا فيها كبيراً. كانا يصطحبانني بالسيارة، ويعطياني طعاماً مغلّفاً بورق أبيض لامع. في المدرسة، لم أكن أتفوه بكلمة،


Telegram: SOMRLIBRARY

كنتُ أكشّر، وأبدي حركات استياء وأستمع جيداً وأتعلم الفرنسية.
كنتُ أحفظ كل شيء؛ كانت ذاكرتي تعمل جيداً؛ وفي المساء، أَسْتَظْهِرُ ما تعلمته في النهار. وأخلط الكلمات والأشياء. وعندما تعتريني الرغبة لرؤية والديّ، أذهبُ لأتكور في حضن زنوبة التي تواسيني وتقول لي كلمات لطيفة. وتردِّد على مسامعي بأنني محظوظة. أجل محظوظة لأنني افترقتُ عن والدي وأخوتي وأخواتي. وأنا، لم أكن أتأسف على البلد، لكنني لم أفلح في نسيان جدتي. كان تأخري الدراسي يُعَقِّدُ الأمور. صار الزوجان الفرنسيان يدفعان مالاً لشاب حتى يراجع معي ما تعلمته في المدرسة. كان وسيماً. أعتقد أنني أُغْرِمْتُ به. كان طالباً في المرحلة الثانوية. لم أكن أتجرأ على النظر إليه وجهاً لوجه. ولا بد من الاعتراف أنه ساعدني كثيراً. تعلمتُ معه القراءة والكتابة. ومنذ ذلك الحين تغيَّر كل شيء في حياتي. وذات يوم سال الدم على سروالي الداخلي. شعرتُ بالخجل. ولحسن الحظ، شرحتْ لي زنوبة كل شيء واهتمّت بنظافتي. كنتُ مغرمة وانتبهت فجأة إلى طريقتي في ارتداء ملابسي. كنت أريد أن أجذب انتباه الشاب، لكن مع اقتراب الصيف، رحل ولم أره ثانية.

وخلال ثلاث سنوات، رأيت والديَّ مرتين. جاءا يحملان إليّ حصتي من الزيت والعسل الذي يوزعه أبناء عمي في القرية.

ذات يوم، شرح لي والديّ الجديدين أن عليهما أن يغادرا إلى فرنسا. ذهبنا إلى البلد؛ شعرتُ أنني غريبة وأجنبية في هذه القرية التي لا يوجد فيها ماء. كان الأطفال يلعبون بقطّ ميت والذباب يغطيهم. كانت أنوفهم تسيل ولم يكن أحد يهتم بهم. جاء أبي للقائي، واعتقدتُ أنه سيقبِّلني كما يفعل أبواي الأجنبيان، لكنني أنا مَن اضطررتُ إلى تقبيل ظهر يده التي تفوح برائحة التراب الجاف.


Telegram: SOMRLIBRARY

قال لي دون أن ينظر إليّ مباشرةً: «سنلتقي قريباً يا ابنتي» ثم حدَّثني عن سفر وأوراق عليه أن يوقّعها. شاهدتُ حزمة أوراق نقدية تنتقل من يد الفرنسي إلى يديّ والدي. أدركتُ فجأة ما يحدث. لقد باعني والدي! يا للهول! بدأتُ أبكي. واستني السيدة. قالت لي إن والدي سيبقى والدي. لم يستطيعا أن يتبنياني، لهذا السبب كانا بحاجة إلى موافقة أبي حتى أستطيع السفر معهم. هكذا حصلت على جواز سفري الأول؛ كان أخضراً؛ قال لي موظف الولاية بنبرة متوعدة: «انتبهي، هذا شيء ثمين، إن أضعته، فلن نمنحك واحداً آخر، وستبقين دون جواز سفر طوال حياتك ولن تستطيعي الذهاب إلى أي مكان» وبينما كنت أخرج من المكتب، أمسك بي وهمس في أذني: «أنت محظوظة لأن هذين الفرنسيين مهتمان بك، إذن لا تجلبي لنا العار. لا تنسي أنك بهذا الدفتر الأخضر تمثلين المغرب!» كان مخطئاً، فأنا لا أمثل أحداً، ولا حتى أمي التي راحت تنظر إليّ وأنا أبتعد دون أن تحرك ساكناً، ربما كانت هي أيضاً تبكي. أغمضتُ عيني وقررتُ ألا أعود للتفكير ببلد البؤس هذا.

بعد بضعة أسابيع، غادرتُ على متن سفينة إلى مرسيليا مع الفرنسيين. وخلال الرحلة، لم يتكلما؛ كان يسود مزاج سيئ؛ وكانت المرأة تبكي في الخفاء. قالت لي إنها لم ترغب بمغادرة هذا البلد الساحر، لكن يترتب على زوجها أن يعود ليهتم بوالديه المريضين والمسنين. قلتُ في سري إنه ابن بار، لكن ثمة شيء ليس على ما يرام في هذا الزواج الذي لم يفلح في إنجاب أطفال. كنت أشعر بالأشياء ولا أفلح في تسميتها. كانا يتشاجران لأتفه سبب. المرأة تريد أن تتحكّم والزوج يحتجّ بينما أنا أراقب هذه المشاهد وأفكر بوالديَّ اللذين لم يرفعا صوتهما قط.


Telegram: SOMRLIBRARY

أقمنا في شقة ليست كبيرة. جاء الجيران، وهم من الأرمن، ليهنئونا بالسلامة وقدّموا لنا كاتو من عجين اللوز. كانت لديهم ابنة جميلة جداً، سمراء في السابعة عشر من عمرها، لكنها تبدو أنها تجاوزت العشرين. أصبحتْ صديقتي بسرعة. غالباً ما كانت تدعوني إلى منزلها لتريني صوراً التُقِطَتْ لها. كانت تريد أن تصبح ممثلة «سألتها، والدراسة؟ - فأجابتني فرحة: لا أحتاجها لأجل التمثيل!» كانت تشارك في عروض الموضة ولاقت نجاحاً لا بأس به. وبما أنه لدينا القامة ذاتها، قالت لي: «أتعرفين، إذا وافق والداك، فعليك أن تجربي حظّك. يبحثون الآن عن فتيات نموذجيات مثلنا، إنه دورنا لنصبح مشهورات. لا تقصي على الأخص شعرك، على العكس دعيه ينمو وانفخيه مثل لبوة» وجدتُ هذا ممتعاً كنت أحب شعري وأعتني به، وكانت الحناء تعطيه لوناً أحمر جميلاً مع لمعات كستنائية. خلعت صديقتي ملابسها وطلبت أن أفعل مثلها وراحت تقارن مقاساتنا، القامة والصدر والوركين... وجَزَمَتْ بأنني لو أردتُ بذل جهد لتسبَّبتُ بكارثة في عالم الموضة.

كنت أرتاد الثانوية وأواظب على الدراسة. ولم يعُد يصلني أي خبر عن والدي المغربيان. أما الفرنسيان فغالباً ما كانا يشعران بالحنين إلى المغرب. ثم انغمسا في قصة ميراث معقّدة بعد وفاة والدَي أبي الفرنسي. كانا يتركاني معظم الوقت حرة ويمنحانني ثقة مطلقة. استفدتُ من ذلك لأرافق صديقتي الأرمنية إلى عروضها. وهكذا طلب مني شخص شعره مصبوغ بالأحمر أن أمشي أمامه كما لو أنني أحمل جرة مليئة بالماء على رأسي. استجمعتُ مخيلتي ومشيتُ بحذر. صَرخ: «انتبهي، ستسقط الجرة وتتحطم إلى ألف قطعة!» استعدتُ أنفاسي ومشيتُ بشكل طبيعي. أمسكتني امرأة من


Telegram: SOMRLIBRARY

يدي، وخلعت عني ملابسي وقالت لي أن أرتدي فستاناً غريباً فيه الكثير من الثقوب؛ وفي الحقيقة كان شفافاً. لم أشأ أن أرتدي هذا الشيء الذي يعرّيني. عندئذٍ، أعطتني فستاناً لائقاً أكثر وطلبت مني أن أقوم بجولة في الصالة.

في سن السابعة عشر ونصف، وخلال لحظات فقط، أصبحتُ عارضة أزياء! وهو عمل أكثر من ممتع كنت أعود منه كلّ مرة بذراعين محملتين بالهدايا. كان والداي يغضّان الطرف عن ذلك. شريطة ألا أرسب في امتحان الشهادة الثانوية. لم أصغِ لتحذيراتهما وفي حزيران/ يونيو أُوفِدْتُ إلى الامتحان الاستدراكي. وكان صفعة. لم أتصور نفسي أبداً كطالبة في وضعٍ عسير. ولم أدرك الفجوات الواسعة أحياناً التي كنت أراكمها. كنت مغرورة إلى درجة اقتنعت معها أنه سيكون بمقدوري خلال زمن بسيط أن أعوض عن تأخري. على أية حال، ليس خطئي إذا تلقيت تعليماً مشوشاً ومضطرباً. لم أعد أعلم من أنا: ابنة الحبيب واكرين أم ابنة السيد والسيدة لوفرانك؟ عربية أم بربرية؟ فرنسية أم بلجيكية؟ كانت للسيدة لوفرانك أصول فلمندية...

تقدمتُ إلى امتحان الاستدراك، وحصلتُ على الشهادة الثانوية بدرجات منخفضة. لم يقل والديّ الفرنسيان شيئاً. سجلتُ في كلية، وقلّما وطئتها قدميّ. وآثرتُ أن أستغرق في أشياء أكثر تفاهة وألتزم بالعروض والمخدرات. كنت راشدة ولا أشعر بمرور الزمن.

وبعد ذلك، الْتَقَتْ رفيقتي الأرمنية، لا أدري بالضبط كيف، منتجاً خدعها وصوّر لها مشاهد جريئة في أفلام لا تعرضها الصالات الكبرى في مرسيليا. تشاجرَتْ مع والديها واختفَتْ. هذه النهاية


Telegram: SOMRLIBRARY

المأسوية أخرجتني من حلم يقظتي. تَرَكْتُ فجأة هذا الوسط القذر لأبدأ في دراسة تاريخ الفن بجدية.

لكنني فجأة، وبين ليلة وضحاها، ألفيتُ نفسي وحيدة تماماً. انفصل والداي الفرنسيان، دون أن أحتاط لذلك، لأنني، ولا بد من الاعتراف بذلك، قلما وُجِدْتُ في البيت. اقتسما كل الأشياء؛ وكنتُ بينها. سألتني السيدة لوفرانك إن كنتُ أريد الذهاب معها أو البقاء مع زوجها السابق. تردّدت، لكن الصدفة جاءت في وقتها. صدر قانون يسمح بلمّ شمل العائلة. قرّر والدي الذي استقر في كليرمون - فيران أن يضمّ إليه زوجته وطفليه الآخرين. اعترتني فجأة رغبة بالانضمام إليهم بعد أن نسيتُ أحزان العام الماضي والألم الذي عانيته بسبب شعوري بأنني مهملة. لم يكن التبني المُجْهَض سوى استطراد أتاح لي متابعة دراسة طبيعية إلى حدٍّ ما. وبقيتُ ابنة والدي دوماً. كنت أدعى أمينة واكرين حتى حين سمَّتني عائلة لوفرانك ناتالي. مع أنني لم أعرف لماذا اختارا هذا الاسم قط. ناداني الجميع في المدرسة ناتا. أما الشخص ذو الشعر الأحمر، فأراد من جانبه أن يسميني كيكا. لم لا؟ رحتُ أُغيِّر طوال الوقت اسمي الأول، لكنني بقيت أنا نفسي، ابنة أبوي.

عندما وصلتُ إلى كليرمون، انتابتني نوبة ذعر. بدتْ لي هذه المدينة أشبه بسجن. قبيحة وكئيبة وخانقة. رغبتُ بالهرب ومغادرتها وعدم العودة إليها. وإزاء اضطرابي، حافظ والدي على هدوئه ولم يقُل شيئاً ووافق أن أذهب إلى باريس لمتابعة دراستي التي بدأتها في مرسيليا. فتح لي حساباً مصرفياً وأودع فيه جزءاً من المبلغ الذي أعطاه له الفرنسيان. كان مبلغاً محترماً، وكان يزداد بالحوالات التي ترسلها السيدة لوفرانك منذ طلاقها. شَكَّلَ هذا الرحيل إلى باريس


Telegram: SOMRLIBRARY

منعطفاً بالنسبة إليّ. أصبحتُ أخيراً مستقلة ومتحررة من تبكيت الضمير إزاء والدي. وقد صممتُ أن أستفيد من ذلك إلى أقصى حدّ ممكن. كانت فكرة الإخفاق الكبير مع الرسام تنتظرني بعيداً، بعد ذلك بسنوات.

أعترف أنني سرعان ما حظيت في باريس بعشاق ومغازلين، لكنني بقيتُ محصّنة وراغبة في الوصول إلى الزواج وأنا عذراء. هيا، احزروا لماذا تتمسك فتاة متمردة مثلي، عاشت أوقاتاً عصيبة في الحياة، بالحفاظ إلى هذا الحدّ على غشاء بكارتها سليماً. كانت العادات والتقاليد أقوى مني.

لم يعرف زوجي شيئاً عن كلّ هذا قط. ولم أرغب أن أحكيه له وهو قلّما طرح أسئلة عن تلك المرحلة من حياتي. لعله كان يعتبر أنّ كل ما مضى قبل لقائنا ينتمي إلى ما قبل التاريخ، إلى الجاهلية، كما يقال عن القرون التي سبقت مجيء الإسلام؟

رأيتُ ثانية السيدة لوفرانك مرة واحدة. أقامتْ في مأوى للمسنين. وفي الواقع، لم تكن عجوزاً، لكن لم يكن يوجد أحد ليهتم بها أو يلازمها. احتضنتني بين ذراعيها وشعرتُ أنها تبكي. عندما غادرتُ، عهدت إليّ بحقيبة صغيرة. قالت لي: «افتحيها يوم زواجك». لم أستطِع المقاومة. ولم أكَد أدخل إلى منزلي حتى فتحتها. كنتُ متأثرة: كانت تحتوي حلياً وصوراً ومفكرة عناوين بعضها مشطوب، وثوب مغربي لا بد أنها اشترته من قيسارية في الرباط، وأخيراً رسالة مغلفة لتسليمها إلى المعلم أنطوان، كاتب العدل، 2 مكرر شارع لاميرال... إلخ. لم أفضّها وما زلتُ أحتفظ بها في ملف. ذات يوم سأذهب إلى المعلم أنطوان...


Telegram: SOMRLIBRARY

# المخطوط السري

تتساءلون كيف علمت بوجود المخطوط السري الذي قرأتموه للتو والذي سأردّ عليه نقطة نقطة؟ سرقته. أجل، سرقته. كنتُ أعرف أن أعزّ أصدقائه، وهو كاتبٌ وقتها، يُحَضِّرُ لشيء ما، لكنني اشتبهت بأنهما يخفيان ثمرة عملهما. لذلك تجسستُ عليهما بصبر، محاولةً ألّا ينتبها لشيء. وإليكم كيف تصرفا. خلال ما يقارب الستة أشهر، كان صديقه يأتي لزيارته سراً في الصباح الباكر. يتحدثان مطولاً سوية، ثم يفتحُ الآخر حاسوبه ويكتبُ عليه محادثتهما. وعندما تعجبه النتيجة، يطبع على الفور صفحات هذه السيرة الذاتية الغريبة ويضعها في خزنة المحترف التي ليس لدي بالطبع لا رقمها السري ولا مفتاحها. ومنذ شهر، استغليتُ اليوم الذي ترتَّب على زوجي فيه أن يذهب إلى المشفى لإجراء فحوص، واستدعيتُ صانع أقفال فتحَ لي الخزنة. إنه أمر طبيعي، فأنا في منزلي، ولن يرفض أي صانع أقفال فَتْحَ خزنة أضاع صاحبها المفتاح أو نسيَ رمزها. استوليتُ على كلّ ما وجدته فيها، غزوةٌ حقيقية. طلب مني صانع الأقفال قبل مغادرته أن أختار رمزاً. وأنا الآن الوحيدة التي يمكنها استخدامه. كان المخطوط في قميص كُتِبَ عليه بالأحمر «سري»؛ وقد أمتعني. قرأته كله وعلقتُ عليه في ليلة واحدة. كنت أتحرّقُ غيظاً، لكن



Telegram: SOMRLIBRARY

رغبتي بالانتقام اتخذت لأول مرة طابعها الشرعي. لم يعُد صديقه يأتي. أظنّ أنه أصيب بمرض خطير. لقد أتت صلواتي أُكُلَها.

عندما عرفَ زوجي بما فعلته، لم يُبْدِ أية ردّ فعل. ظننتُ أنه ينوي الاحتجاج لوحده. وصلتُ ومعي شمبانيا ورفضَ أن يتناولها بإيماءة من عينيه، ثم أفهمني أنه يجب أن أتركه. وأنا أخرج، أوقعت قصداً آنية الألوان على لوحة غير مكتملة. أعترف أنني ندمتُ على هذا التصرف الحقير. خَرَّبْتُ عملاً فنياً كان يمكن أن يجلب لي يوماً مبلغاً لا بأس به من المال، لكن لنتجاوز الأمر. لا يقوم الناس دوماً بما ينبغي فعله. وعندي، غالباً ما تتقدم الغريزة على العقل.

كان فلان يمتلك مجموعة من المخطوطات العربية النادرة. كان فخوراً بها ويعرضها على زائريه ويتحدث عنها بفصاحة. استغليتُ ذات صباح ذهابَه إلى المشفى لإجراء فحص طبي وسرقتها. وضعتها عند لالا التي لديها خزنة كبيرة. ذات يوم سأستفيد منها مقابل المال. تدبرتُ الأمر ليتأكد من اختفائها. وهو ما جعله يضطرب. احمرَّ وجهه وراحَ كل جسده يرتعش كما لو أنّ نوبة صرعٍ هزّته. وقفتُ أمامه، متلذِّذة بهذا النصر، وقلت له:

- الآن، ستدفع الثمن. لن أتركك أبداً. هذا ليس سوى تَذَوُّق أولي لانتقامي. لن ترى ثانية أبداً كنوزك الثمينة. ويوم سأضعها في النار، سأصحبك لتشهد احتراقها! ستكون مثبتاً على كرسيك ولن يسعك فعل شيء.

سأضع الأمور في نصابها، كما في محضر شرطة. بلا مزاح ولا مشاعر ولا هدية. منحتني قراءة هذا النص طاقة لم أشكّ بأنني أتمتع بها. الحرب تناسبني تماماً. أشعر بنفسي حية. أقتلُ ولا أكفُّ



Telegram: SOMRLIBRARY

عن شحذ دموعي. إنه صراع حتى الموت. وأمرٌ طبيعي بعد قراءتي لكل ما فعله وقاله أن لا يعود لدي أدنى تردّد في التعجيل بموته. لست واسعة الثقافة ولا أحمل شهادات عليا ولستُ سفسطائية، أنا طبيعية ومباشرة وصادقة. أكره النفاق. لا أغلف الأمور بالمخمل أو الحرير. أدعُ هذا لعائلته. لنأتِ على سرد الوقائع.

آملُ أنكم لاحظتم أنه لم يذكر في هذا المخطوط اسمي أو اسم عائلتي في أية لحظة. بالنسبة إليه لستُ شيئاً، نسمة رياح، بخار تكاثف على زجاج، لا شيء، ولا حتى شبح. والده من قبله لم ينادِ أمه باسمها قط، كان يناديها «يا امرأة» فتهرع إليه. حسن، أنا سأفعل الشيء ذاته. من الآن فصاعداً سأدعوه رَجُلِي «فلان»، وهذه الكلمة تشير في العربية إلى «شخص ما». أعرف أنّ فيها شيء من الاحتقار، ولنقُل ازدراء. «فلان» هو أي شخص، أول قادم، رجل بين كثيرين آخرين، ودون صفة خاصة. عندما نتكلم بسرعة نحذف حركة الضم عن الفاء ونقول «فْلان»، وهو شخصٌ لا نعرف اسمه ولا أصله. ومع ذلك، فإن أصله هو الذي أفشل كل شيء. غالباً ما كان يتحدث عن أهمية الجذور، ويقول متخذاً وضعية الفيلسوف: «جذورنا تتبعنا إلى كل مكان، تكشفنا وتعرينا وتغدر بجهودنا لنبدو على غير ما نحن عليه». وذات يوم فهمتُ أنه وراء هذه البربرة يلمِّح بالسوء إلى أصولي الفلاحية: ابنة مهاجرين فقراء وأميين. كان يَتَصَدَّق وغالباً ما يبدو مشمئزاً. كان يعطي النقود لسائقه الذي يذهب إلى المقبرة التي دفن فيها والداه ويوزعها على المتسولين. وفي يوم الجمعة، يطلبُ من الطباخة أن تعدّ طبقاً كبيراً من الكسكس لإرساله إلى المحتاجين. وهكذا يؤدي فروضه كمسلم صالح. وبعد هذا، يرتاح ضميره ليرسم


Telegram: SOMRLIBRARY

لوحات يحاكي فيها صوراً فوتوغرافية يسميها بلا خجل «مدينة الصفيح 1» ثم «مدينة الصفيح 2». . . إلخ.

هذه الرواية - الصفحات التي قرأتها تشكل ظاهرياً رواية، وعلى أية حال هذا ما كتبه هو أو صديقه الكاتب على الصفحة الأولى تحت هذا العنوان المثير للسخرية، **الرجل الذي أحب النساء حباً جماً** - هذه الرواية، أجل، ماذا كان يأمل أن يفعل بها؟ أن ينشرها؟ لكن ما الفائدة؟ من سيقرأ هذه السلسلة من الأكاذيب وهذا الهذر الكبير. كل شيء فيها ملفق ابتداء من العنوان، توليفة غير موفقة لفيلم تريفو، **الرجل الذي أحب النساء**. وفلان رش فوقه فقط قليلاً من الملح مضيفاً «حباً جماً» ليتظاهر بالذكاء. أما صديقهُ، فليس كاتباً كبيراً. إنه ينشرُ كتبه على حساب المؤلف ولا أحد يشتريها، ويكدّسها في المرآب. ومخطوطهما ليس سوى سلسلة طويلة من الأكاذيب والادِّعاءات المرفوضة جملة وتفصيلاً. حين يصل المرء إلى الصفحة الأخيرة ألا يقتنع أنني المسؤولة تماماً عن سكتته الدماغية! أمرٌ مرعبٌ التلميح بمثل هذا العمل الفظيع. ألا يقتنع أنني عديمة المسؤولية ومجرمة؟ أنا ماكرة، وربما ذكية، مع أنه لم يرغب بالاعتراف بذلك قط، لكن مجرمة، لا، بالتأكيد لا!

عندما التقيته، كان يعاني من آلام الشقيقة وارتفاع الضغط الشرياني الحادّ وتسرعٍ في القلب ومشاكل أخرى في الجهاز العصبي. وهذا وراثي لا علاقة لي به. لاحظتم أنه قبل أن يحكي المشهد الذي سبق إصابته بالسكتة الدماغية - وهو المشهد الذي لم يوجد إلا في مخيلة فنان منتشٍ بنجاحه، وأؤكد على ذلك - يخصِّص لي بضع صفحات جميلة، إلى حدّ القول أنه يحبني، لكن لا تصدقوا


Telegram: SOMRLIBRARY

شيئاً من هذا، لم يكن قادراً على أيّ مديح، ولا على التفوّه بكلمة لطيفة في الصباح، ولا على الإتيان بحركة حنونة أثناء النوم، لا شيء، كان يعيش في عالمه وكان عليّ أن أوجد في ظلِّه، وأن يجعلني في غاية الضآلة في ظله. آه، هذا الظلّ الكلي الوجود، الثقيل، الأسود، كان يلاحقني في كلّ مكان، يطاردني ويجمِّدني؛ كان يسمِّرني في ركن. ظلٌّ لا يتكلم. يحوم، يهدِّد ويسحقكم؛ كنتُ أنهض في الصباح منهكة ومرهقة؛ فالظل عذّبني طوال الليل. ولم يكن هناك أحد أثق فيه، ثم مَن سيصدقني؟ ضربني ظلٌّ! سيعتبرني الناس مجنونة، وهو ما سيناسبه تماماً. كان من الصعب عليه أن يقول كلمة رقيقة. لذلك يستنكف وينغلق على ذاته وعندما يريد المضاجعة، يمدّ يده ليحك ركبتي. كانت هذه علامة، طريقته اللطيفة في الطلب، حتى أهيئ نفسي لاستقباله كما لو أنني موجودة تحت تصرّفه، مستعدة دوماً، ومُتاحة في أي وقت، لأنه لا بد لفلان أن يسرع خشية أن يرتخي انتصابه. نعم كان يستعجل إنجاز واجبه الصحي. يلجُني بشيء من القوة، يذهب ويأتي في داخلي مثل آلة ميكانيكية مبرمجة لعدة دقائق، ثم يلهث مثل لعبة نفدت مدّخراتها.

لم يقدم لي يوماً وروداً مثلاً. الورد أمرٌ بسيط، يجلب السعادة ويُعبر عن شيء ما. لم تكن هذه لغته. ولم يعرها أي انتباه. ومن حين إلى آخر، وهو عائد من سفر، كان يقدِّم لي حلية، عقداً أو ساعة، كما لو أنه يرفع العتب عن نفسه، لكنه يتدبّر أمره بطريقة أو أخرى لأعرف ثمنها. وعلى هذا النحو، كان دنيئاً ووضيعاً. كان يعيش في عالمه، في فقاعته كفنان ناجح، باستثناء أنه ينسى القول بأنّ النجاح حدث ابتداءً من لحظة لقائنا. لم يعترف يوماً أن حياته ومهنته ازدهرتا مع زواجنا. جلبتُ له الاستقرار والإلهام وأزعم أنني أسهمت


Telegram: SOMRLIBRARY

كثيراً في التغيّر الجذري الذي طرأ على أسلوبه. قبل لقائنا كانت لوحاته تنتمي إلى الواقعية السخيفة، بلا روح وبلا مخيلة. كان ينسخ ما يراه. صورٌ فوتوغرافية محسَّنة، لكن كما تعرفون يجب ألا أقول له ذلك، وإلا سينفجر غضباً. برفقتي، تجرّأ على الابتعاد عن هذا الأسلوب وتقنياته. أصبحتْ لوحاته نابضة بالحياة، مجنونة، ثرية، إنسانية. لم تكن لديه النزاهة قط ليعترف بما جلبه له حضوري وبما قدّمته له حساسيتي. عندما كنّا نقيم في باريس، كنت أهتمّ بالمنزل والأطفال وكل شيء، أما هو فينزوي في محترفه الموجود في حي آخر. محترف؟ أجل ولا. عرفتُ دوماً أنه كان يستخدم ذلك المكان لاستقبال النساء والعاهرات، أو الفتيات البريئات اللاتي يُغمى عليهن أمام لوحاته. سألته ذات يوم: «لماذا وضعتَ سريراً في محترفك؟ - طبعاً، ليرتاح الرسام» هكذا أجابني. لكنه لم يكن يرتاح لوحده. كان لديه دوماً من بين معارفه امرأة أو امرأتان مستعدّتان للقفز في أول سيارة أجرة واللحاق به ليجتمعا سوية فيما يدعوه القيلولة. كنت أعرف كلّ هذا وأبذل جهداً خارقاً حتى لا أمرّ إلى هناك وأثير فضيحة كانت لتثيرها أية امرأة طبيعية. كنتُ مغفّلة وساذجة. لم أكن أخاف ممّا سأكتشفه، ولم أخف يوماً، فهذا الشعور لا أعرفه. لا، لم أكن أرغب ببساطة أن أزعجه؛ أجل كنت أراعي ذلك، وأعرف أنه يعمل كثيراً ولم أرغب باجتياح محترفه لأنني أعلم أنّ غضبي سيكون مرعباً ويصعب التحكُّم به، لكن ذات يوم، وبينما كان مسافراً، لاحظتُ أنه نسي المفاتيح في محفظة كتبه. لم أستطع أن أقاوم رغبتي بزيارة هذه المغارة التي يخونني فيها طوال العام. فتحتُ الباب، وشعرتُ بالضيق، وأخذتُ أرتعش قليلاً، وتأهبتُ لأتلقى في وسط وجهي رشقات واقع كنتُ أرفض رؤيته. كان السرير مخرباً، وثمة لوحة لم



Telegram: SOMRLIBRARY

يكَد يبدأ بها، وعلى طاولة صغيرة زجاجة نبيذ نصفها فارغ، وكأسان أحدهما يحمل طبعة أحمر شفاه. باختصار، مشهد كلاسيكي وتافه لخيانة زوجية في منتهى الوضوح علاوة على زجاجة عطر خاصة بي لا بد أنه رشّ بها ضحيته حتى يبقى في أرض معروفة. ذهبتُ مباشرة إلى القمامة، تقودني غريزتي، وعثرتُ على واقيين مملوئين بالمني. الأحمق، بدل أن يلقيهما في حوض المرحاض أو ينقلهما في ورقة ليرميهما خارج المحترف، ترك خلفه أدلة دامغة. وددتُ لو أحصل على القليل منها في زجاجة لأعطيها إلى أحد سحَرَتي، لكن كيف أفعل ذلك؟ مَنْيُ السيد! إنه مثالي لجرعة تسبِّب العجز. بعد ذلك فتحتُ الأدراج. رسائل غرامية شبه إباحية، صور من كل الأنواع، هدايا، ورود مجففة بين ورقتين مع طبعات فم مزموم كدبر دجاجة، ومعطرة بعطر شانيل رقم خمسة. جلستُ على أريكته وأشعلتُ سيكارة، وفتحتُ زجاجة نبيذ (أفضل من تلك التي كان يجلبها إلى المنزل) وبدأتُ أفكر. لا يمكنني أن أتصرف كما لو أن هذه الزيارة وهذه الاكتشافات لم تحدث، لن أسامحه وأنسى ما رأيته وأقبل العيش مع رجل يمضي حياته في هذا الجحر النتن. سأتصرف. بهدوء. سأتصرَّف لأضع حداً لهذا الوضع غير الطبيعي. إنه يسخر مني، وهذا منذ اليوم الأول. أعرف ذلك، لكن هذه الأدلة الآن تجعلني أرغب في التقيؤ. ينبغي أن أنتقل إلى الفعل بأقصى سرعة. وقلت لنفسي: «هذه المرة سأتصرف بطريقة منهجية وعقلانية. النبيذ فاخر وأنا هادئة وعليّ أن أقرِّر بمنتهى الدقة ما سأباشر بعمله. أراه عائداً، بابتسامته المواربة وكرشه المتدلي وهيئته الحقيرة، وعجرفته، فأرغب في أن أفقأ عينيه أو الأفضل أن أقطع يديه كما يُعَاقب اللصوص في المملكة العربية السعودية. رسامٌ بلا يدين، لا بأس!



Telegram: SOMRLIBRARY

لا، الأفضل مهاجمة أعضائه التناسلية. ليس المهم قطعها، لكن يجب أن يتألم. حسن، لنتوقف عن الهذيان، لن أجعل الدم يسيل. أفضل شيء أفعله هو أن ألزم الصمت حول ما اكتشفته للتو، لأحطِّمه تماماً عندما أخلقُ الشروط الملائمة لذلك. لا أدري إن كنتُ سأنجح في التزام الصمت. فدمي حار، لكن ثمة أمر مؤكد، لن يلمسني أبداً. في المرحلة الأولى سأغرس الخوف في أحشائه؛ وسيعيش مع هذا الخوف الذي ينخره من الداخل، سيعيش حياة مملوءة بالثقوب التي أحدثها الخوف. أمضيتُ السنوات العشر الأولى من حياتي في شفاء نفسي من الخوف؛ كانت مسألة حياة أو موت؛ لذلك الخوف يعرفني، بل إنه تخصصي. عانيتُ القحط والظمأ والجوع، نجوتُ من القيظ، ونجوت من البرد القارس، ونجوت من صراعي مع الثعابين والعقارب والضباع... لم يكن لدي خيار. روضتُ خوفي وأعرفُ الآن كيف أنقله إلى الحيوانات كما إلى البشر».

جمعتُ كل ما وجدته وتوجهتُ إلى محاميّ لأسأله إنْ كان هذا يكفي لأتمكّن من طلب الطلاق. اتصلتُ أيضاً بأمي التي اقترحت السفر إلى جنوب المغرب للتحدث مع أحد أجدادنا ذوي القدرة الخارقة. «هو سيعرف كيف يُعاقب فلان. في عائلتنا، التكافل هو المسيطر». أخبَرْنا الجميعَ بالأمر. لا بد من غسل الإهانة والعار. لا بد أن يدفع الثمن. اقترح أحد أخوتي تمزيق لوحاته، بينما اقترح الآخر إرسال شخصين سوقيين لتلقينه درساً. رفضتُ. هذا أمر يجب أن أعالجه بنفسي، ولا أحد غيري!

عند عودته من السفر، تظاهر فلان بأنه متعب، آه، مرض الشقيقة الشهير الذي يلازمه. سألته أين كان فأجابني: «تعرفين حق


Telegram: SOMRLIBRARY

المعرفة أين كنتُ، في فرانكفورت، للتباحث مع صالة عرض أمباكت بشأن معرضي القادم. كان ذلك صعباً جداً؛ فالمدينة ليست جميلة، الناس لطفاء، لكنني أسرعت لأنني رغبت بالعودة إلى منزلنا. حسن، ماذا يوجد للعشاء؟».

أجبته دون تردد: «واقيات ذكرية إنجليزية بالصلصة البيضاء الفاسدة، مع شعر ملاكٍ ممزوج بالعرق وبضع قطرات من عطر شانيل رقم خمسة».

لم يضحك. بقي مسمراً في أريكته. التقط مجلة مرمية على الأرض وراح يتصفّحها. هنا، قذفتُ رأسه بكأس ماء، وتمنيتُ لو كان كأس خلّ، لكن هذا ما وقع تحت يدي. أكره عدم القيام بأية ردّة فعل. نهضَ ومسحَ وجهه محافظاً على هدوئه وغادر المنزل. عاد بعد خمس دقائق، وهو لا يزال هادئاً وصامتاً، وأخذ بعض الأمتعة للتبديل، وحشرها في حقيبة لم يكن قد فتحها بعد، وغادر من جديد.

فيما بعد اتصلتُ به في محترفه وشتمته، كنتُ أبكي، وهدَّدته بملاحقته قضائياً. وفي الحقيقة كنتُ أقول أي شيء. كنتُ متألمة، متألمة جداً. الخيانة شيء مخيف، إهانة لا تُحتمل. إنها أمر غير مقبول. سمعني الأطفال وأنا أصرخ وأبكي. جاؤوا إلى سريري وتمددوا بجانبي وهم يرددون: «ماما، نحن نحبك».

عاش ثلاثة أشهر في محترفه، أو لأكن دقيقة في ماخوره. تلقى رسالة من محاميّ هدفها إخافته. وهذه أيضاً تجنَّب التطرق إليها في مخطوطه. ثم ذات يوم، ولأنني كنت لا أزال أحبه، أجل أعترف بذلك، انهرْتُ ودخلتُ إلى ملجئه فجأة واندسستُ في فراشه. أتذكر



Telegram: SOMRLIBRARY

ذلك جيداً، كان يشاهد فيلماً في التلفاز، لم يرفضني، وتضاجعنا دون أن نتفوه بكلمة، وفي اليوم التالي استعدته، وعاد إلى البيت وتجدَّد كل شيء بيننا.

خطأٌ كبير. لامتني أمي عليه. اضطرتْ أن تسافر إلى أعماق المغرب لتأجيل إجراءات جدي الأكبر. قالت لي، من الأفضل استعادة هذا الزوج على أية حال.

كنتُ أظن أن فلان فهم، وأنه سيتصرف من الآن فصاعداً بشكل صائب، لكنه سرعان ما عاد إلى عادات الرجل العازب، دون أن يهتم بما يمكن أن أشعر به. راح يسافر ويخرج كل يوم لتناول عشاءات «عمل»؛ يعود متأخراً، وأشم عليه رائحة نساء أخريات. لم أكن أقول شيئاً، وكنت أتجرّع الإهانات. كنت أنظر إلى أطفالي وأبكي بصمت. عندما كان يضاجع امرأة أخرى، كان يهرع دوماً إلى الحمام ويأخذ دوشاً. بشكل طبيعي، هو يستحم في الصباح مثل كل الناس. وعندما أحاول أن أتقرب منه، لم يكن قضيبه ينتصب. لأنه استنفد كلّ طاقته في امرأة أخرى. خصيتاه مرتخيتان وقضيبه في حالة مثيرة للرثاء. كان فارغاً، فارغاً تماماً. ولم يكن هذا مقبولاً! تحملتُ ذلك لسنوات. ولم أكن قادرة على أن أفعل مثله. لم تكن أخلاقي ومبادئي وتربيتي يسمحون لي بخيانته. عندنا، المرأة التي تخون زوجها لا يعود لها أي حق، ولا تعود مقبولة حتى لو كانت ضحية زوج كاذب وعنيف. كان جميع الناس في القرية يعرفون قصة فطنة، المرأة الوحيدة التي تجرّأت في القبيلة على اتخاذ عشيق. طُرِدَتْ من القرية. وعاشتْ لبضع سنوات وهي تتسول في شوارع مراكش، إلى أن ألقت بنفسها تحت عجلات حافلة قرب ساحة جامع الفنا! مسكينة فطنة! ليرحم الله روحها ويسامحها!


Telegram: SOMRLIBRARY

وددتُ أنا أيضاً أن أخوض مغامرات، وأحظى بعشاق، لكن نفسي وكبريائي وشهامتي لم يسمحوا لي بذلك في أية لحظة. كانت صديقاتي تشجعنني على هذا، وتحرضنني على الأخذ بثأري، وعلى أن أردّ كل خيانة له بخمسة أضعافها، لكنني كنتُ أقاوم. وحتى لم يجذبني أي من الرجال الآخرين. كنتُ أحب زوجي ولم أكن أرغب أن أمنح نفسي لأي رجل آخر. ثمة رجال وسيمون ومهمون وأحرار وكرماء كانوا يغازلونني. كنتُ أرفضهم وأبعدهم وأنا فخورة لأنني على هذا القدر من الجاذبية. كانوا يقولون لي: «أنت مغرية جداً، جميلة، وزوجك يهملك، إنها جريمة يُعاقب عليها بالحب، الحب في مكان آخر».

كنت أحبه ولم أكن أظهر له ذلك؛ مسألة حياء. لم يُقَبِّل والدي بعضهما يوماً أمامنا، ولم يتبادلا كلمات رقيقة. إذاً ما هو هذا الحب؟ كان الرجل الأول في حياتي؛ ولا أحتسب مرحلة مرسيليا التي لم أكن أشعر فيها بنفسي. في السابق، كنتُ أتغازل مع بعض رفاقي، لا أكثر. أما هو، فكان يرهبني ويهيمن عليّ. كان ينبغي قلب العلاقة، لذلك تجرأتُ على تحدّيه وجعلته يسقط من موقعه. ما أحببته فيه، هو نضجه وتجربته وشهرته. أردته لي وحدي، وهذا أمر طبيعي، فأية امرأة لا تقبل المشاركة في زوجها، وبالنسبة إليّ امرأة تقبل مضاجعة رجل متزوج هي امرأة منحرفة وعاهرة ومومس. كنت أعرفهن وأحتقرهن. حدث لي أن رسمت خططاً ضد هذا النوع من النساء بقسوة سلسلة كيلر، وأنا أهيئ بدقّة المراحل المختلفة للجريمة. أجل، كنت سآخذ وقتي وسأجعلهن يقعن في الفخ وسأشوههن الواحدة تلو الأخرى. كنتُ أحب أن أتخيل المشهد في أدق التفاصيل، كيف أتقرّب منهن، كيف أكسبُ ثقتهن وعلى



Telegram: SOMRLIBRARY

الأخص كيف لا أترك أي أثر، الجريمة الكاملة. امرأة سلسلة كيلر! حلمتُ بذلك، لكنني بالتأكيد لم أنتقل قط إلى الفعل.

أنتم لا تصدقونني، لكنني لم أخن يوماً فلان. هو يعرف ذلك، والغريب أنه يترك في «روايته» الشبهة تحوم فوق إخلاصي. أية وقاحة في ارتيابه بي! صحيح أنني كنت أخرج كثيراً مع رفيقاتي، وأنه كان لديّ متسع من الوقت لخيانته بحُكم سفره الدائم، لكنني لم أخترق قط هذا الحدّ. واليوم، أعترف أنني نادمة على ذلك. كنتُ حمقاء مسكينة، مرتبطة بمبادئ عاقبتني. كنتُ أفكر في فطنة، لكننا لم نكن في قرية الفضيلة. في تلك المرحلة، كنا نقيم في باريس ونعيش حياة اجتماعية وغالباً ما نخرج، هو تحت الأنظار، وأنا أتبعه، كنتُ الشيء الجميل الذي يرافقه. وخلال حفل استقبال في الإليزيه، لم يجد شيئاً أفضل من أن يولي لي ظهره بالضبط حين بدأ يتحدث مع الرئيس. وبخلاف كل توقّع، قطع فرانسوا ميتران حديثهما فجأة وتوجّه نحوي، راسماً ابتسامة عريضة. سألني من أين أتيت وماذا أدرس. عندما أخبرته أنني زوجة الفنان الذي كان يتحدث معه للتو، قال لي: «أوه! فهمتُ الآن، أنتِ آلهة فنه!» أجل، هو ذاك. كنتُ آلهة فنه، عَبْدَتُه، شيئاً يخصّه، شيئاً صغيراً جميلاً يتباهى به في حفلات الاستقبال. في البداية، تضايقتُ من هذا الأمر، وبعد ذلك اعتدتُ عليه. لم يكن بوسع أحد أن ينقل لي عدوى العقد النفسية. كنتُ أعرف من أنا ومقدار قيمتي. لستُ بحاجة إلى التظاهر، وممارسة النفاق مثل أخواته، المخدوعات تماماً، المضطربات، البدينات والسمينات، بلا سحر. كنتُ أراهن يتبخترن في حفلات الزواج، وأنا منزوية في ركني، كنتُ الغريبة، الشريرة التي ينبغي الحذر منها. كنتُ البقعة



Telegram: SOMRLIBRARY

القبيحة في الهواء النقي لمجتمع متمرس في النفاق والتظاهر.

قائمة الإهانات التي عانيتها طويلة. أعترفُ لكم بكل شيء، دون أن أختلق أو أؤلف رواية بدوري. إنني أُفْرِغُ ما في جعبتي، فهي مليئة وبدأت تتعفن. أما هو، فيحب تنظيم الأمور، بلا فضيحة على الأخص، وبلا ضجة، وأن نهدأ ونصبح مرنين. وكما يقول فلان «عين ترى وأخرى لا ترى»، لكنني احتفظتُ دوماً بعينين مفتوحتين. ولستُ مرنة ولن أكون أبداً. ماذا يعني أن أكون مرنة: أن أقبل بكل شيء وأطأطئ رأسي؟ لا، لن يكون هذا أبداً!



Telegram: SOMRLIBRARY

# زواجنا

لنعد إلى البداية. زواجنا. أي كارثة! آه، يوم الجمعة ذاك، من شهر نيسان/ أبريل، سأظلّ أتذكّره طوال حياتي. جميع المتزوجات يتذكرن ذلك اليوم بسعادة، إلا أنا. ستبقى تلك الجمعة أبداً يوماً أسود، يوماً حزيناً، يوماً بكيت فيه كثيراً. المتزوجات حديثاً يبكين لأنهن يتركن أسرهن ليدخلن إلى أسرة أخرى، أما أنا فبكيت لأنني أترك أسرتي للنزول إلى جحيم لا ريب فيه.

سأصف لكم المشهد.

استأجر والدي صالة أفراح في ضواحي الدار البيضاء. كلفهم ذلك ثمناً مرتفعاً. كانا يريدان الظهور بمظهر لائق أمام أسرة نسيبهم التي أخجلتهما جذورها المدينية. يعتقد سكان فاس أنهم أرفع منزلة من باقي المغاربة. ينظرون إلى باقي المغرب باستعلاء. كما لو أنه لا وجود إلا لثقافتهم، كما لو أنه يجب على كل الناس أن تتبنى تقاليدهم، كما لو أنه يجب على كل المغرب أن يطبخ مثلهم، ويلبس مثلهم ويتكلم مثلهم. تعصبهم طبيعي واحتقارهم معلن؛ ليسوا أشراراً، هم صلفون فقط. لم يرغب والدي بهذا الزواج لهذه الأسباب كلها. أبي الذي قلّما يتكلم قال لأمي هذه العبارة التي رَدَّدَتها على مسامعي: «ليسوا من ثوبنا ولسنا من ثوبهم» وأضاف:



Telegram: SOMRLIBRARY

«لستُ واثقاً أنّ ابنتنا ستكون سعيدة في هذه الأسرة، وأن يكون الزوج أكبر منها، في حدود، فهذا لا بأس، لكن أسرته تخيفني، لن أعرف البتة كيف أستقبلهم ولا كيف أتصرف، إنهم أناس من عالم آخر ونحن أناس بسطاء ومتواضعون. وهذا يدفعني للتساؤل إن كنا نؤمن بالله ذاته! هو ذاك، قولي لها أن تتصرف حسبما تشعر. قولي لها إنني حزين».

أتذكر هذا النقاش مع أمي، ولم يكن بوسعي ان أخالفها البتة، لأنني كنت أعرف أنها محقة إلى حدٍّ ما، لكن الوقت تأخر: كنتُ مغرمة. ما هو الغرام بالنسبة إلى صبية احتكّت باكراً جداً بكل أشكال البؤس؟ رحتُ أفكر كما لو أنني أعيشُ خرافة معاصرة. وطفقتُ أشطب العيوب التي تظهر لي؛ وآمنتُ أنه سيكون أهلاً لهذا الزواج. في الواقع، الحبُّ هو اختراع رومانسي. كنت قد قرأت العديد من الروايات التي تجري أحداثها في اسكتلندا إبان القرن التاسع عشر. وحلمتُ بتلك المشاهد الماطرة والشخصيات اللطيفة، والبوح المفعم بالشعر والوعود. اعتبرتُ نفسي إحدى تلك البطلات وصدقتُ ذلك. لكن الانتقال إلى الواقع كان قاسياً. قاسياً جداً.

أتذكر ذات يوم قبل خطبتنا أنه كان ينتظرني في شقته بشارع لهوموند في باريس. استقليتُ القطار، وحين وصلت إلى محطة سان لازار، شعرتُ بثقل كبير يضغط على صدري. شعرتُ بالخوف لأول مرة في حياتي. دخلتُ إلى مقهى، طلبتُ شاياً، وبقيتُ لساعات أدخن وحيدة، وأفكِّر وأستعرض فيلم حياتي القادمة. كنت أتمتع إلى حدٍّ ما بالقدرة على التنبؤ بمستقبلي. حتى وأنا مغرمة، لم أكن أبيع نفسي أوهاماً. رأيتُ أسرته وهي لا تفوت مناسبة لتذكيري بأصولي ونشازي في اللوحة العائلية. وعرفتُ أنه لن يدافع عني، وأنه مخلص


Telegram: SOMRLIBRARY

لأفكار أسرته. وأدركتُ جيداً أنني أرتكب خطأ، لكنني قلتُ لنفسي بسذاجة أنه إذا كُتِبَ لي أن أتزوجه، فسأتزوجه. كنتُ شابة، في ريعان الشباب، بلا تجربة مع الرجال، وكنت قد قرأتُ أيضاً روايات فرنسية وتقمصتُ تلك الشخصيات من البرجوازية الصغيرة الريفية وتظاهرتُ مثلها بحياة داخلية صاخبة.

كان فلان ينتظرني، ولم أتصل به لأخبره بتأخري، لم أرغب بالذهاب إلى هذا الموعد، وكنت أعرف أنني سأخسر إن أقدمت على هذه الخطوة. عندما فَرِغَتْ علبة سجائري، نهضتُ ونظرتُ إلى مواعيد العودة، لا يوجد قطار قبل الساعة العاشرة وعشر دقائق مساء، وكانت الساعة الثامنة. بدأت أمشي، واستقليتُ الحافلة رقم 21، ونزلتُ في شارع سان ميشيل وتوجهت إلى شقته.

كان الجو بارداً، وكنت أرتدي معطفاً خفيفاً وأرتعش. ضمّني وقبّلني ودفأني وطهى لي سمكة لذيذة وبعدها تضاجعنا. كانت المرة الأولى التي أمنحه فيها نفسي. وفي منتصف الليل، أردتُ أن أدخن، فخرج بسيارته وذهب ليشتري لي لفائف تبغ. استغلّ ذلك ليجلب فطائر حلوى لأجل الصباح. وفي اليوم التالي، كان لدي محاضرة في الجامعة. وصلتُ متأخرة، فأبقاني أستاذ الفلسفة إلى ما بعد المحاضرة. أخبرني أنه سيقدِّر لي كثيراً إن قبلت العشاء معه في أي يوم من الأسبوع، ما عدا يومي السبت والأحد التي يستقبل فيهما أطفاله، لأنه كان مطلقاً. قبلتُ من باب التحدي والفضول أن أراه يوم الجمعة. كانت خطته واضحة، يريدني أن أصبح عشيقته. إنه رجلٌ وسيمٌ وذكيٌّ ومغرٍ. رفضتُ مبادراته المتكررة، ثم نهضت لأغادر، متذرعة بموعد قطاري. أمسك يدي وقَبَّلَها وقال لي: «لا تقلقي، سأوصلك» حاولتُ أن أشرح له أن المكان بعيد، يبعد



Telegram: SOMRLIBRARY

ثلاثين كيلومتراً عن باريس، فألحّ، ليعتمد على هذه المسافة في محاولة إقناعي بالعدول عن هذا الزواج. كان جميع الناس يعرفون أنني سأتزوج بفنان معروف جداً، بل إن إحدى الصحف أعلنت الخبر.

بعد شهر، جاء فلان إلى منزل والدي في كليرمون - فيران برفقة ستة من أصدقائه المقربين، ليطلبني رسمياً للزواج. كان يوم السبت، ولم يكن والدي يعمل. مرت الأمور على خير ما يرام، ويمكنني القول أفضل من حفلة الزفاف. اكتشف أصدقاءه ما يسمى بسكن المهاجرين. ورأوا أننا أناس متواضعون. وهذا لم يُثِر يوماً مشكلة بيني وبين فلان. كان يعرف من أين أتيت، أمّا أنا فلم أكن أعرف من أين أتى ولا كيف عاش قبل لقائه بي.

بعد أسبوع، قدمني إلى والديه في مطعم باريسي فخم. كان قد أرسل لهما بطاقتي طائرة واتصل بصديق في القنصلية الفرنسية بالدار البيضاء، معجب بلوحاته، واستطاع منحهما فيزا على وجه السرعة. سمعتُ أمه تقول من وراء ظهري: «لا يمكن أن تكون هذه هي، لا، ليس هذه الصبية، مع أن... حتى إنها ليست بيضاء...» تظاهرتُ أنني لم أسمع. بشرتي كامدة لوّحتها الشمس. ابتسمت. كان والده أكثر لطفاً. سألني على الفور عن قريتي وعن ممتلكات أبي وعن تقاليدنا. وحتى قال لي: «هل صحيح ما يقال من أنكم بارعون في الشعوذة؟» ضحكْتُ وأجبتُ: «لا أعرف شيئاً عن ذلك» وفي الواقع، كان هو أيضاً يستهجن هذا الزواج. رأيتُ ذلك في عينيه، وعلى وجهه؛ وهذا النوع من الأشياء لا يمكن إخفاؤها. لا أعلم إن كان يتحدّث عني، لكنني سمعته يقول مراراً: «media mujer» (نصف



Telegram: SOMRLIBRARY

امرأة باللغة الإسبانية، وهو تعبير استخدمه ليصف قامة زوجته القصيرة. وفي مرة أخرى، سمعتُ كلمة «خنفوشة» (خنفسة في اللغة العربية) هل كان يقصدني؟ لقد وقعت بين عائلة مجانين! أناس يتحدثون بالتلميح والمجاز. لم أكن معتادة على هذا النوع من المزاح. لم يكن والديّ يشتمان أحداً أو يغمزان من قناة أحد. النساء اللواتي كن يعملن عند حماتي انفردن بي جانباً ليخبِرْنني أن الأمر سيكون عسيراً، ويكتنفه نوع من التواطؤ الطبقي. إحداهن قالت لي: «كما تعرفين يا صغيرتي، سكان فاس لا يحبوننا؛ ولا حيلة لنا في ذلك، فهم يعتقدون أنهم أرفع منزلة ولا يقيمون أي اعتبار للآخرين! لذلك احذري، زوجك طيب، إنه رجل شهم، لكن زوجات أخوته فظيعات!».

كان يمكنني أن أعود أدراجي، وألغي كل شيء وأذهب إلى منزلي. كل شيء كان ممكناً. لم أتوصل إلى فهم ما جعلني أصمِّم حقاً على خوض هذه المغامرة الخطرة. الحب بالتأكيد، لكنني ما زلت أتساءل حتى اليوم إن أحببته بصدق. أعجبني، ووجدته مغرياً، ذا كاريزما، ثم إنه فنان، وقد رغبتُ دوماً أن أعاشر هذا العالم السحري، عالم الموسيقيين والكتاب والرسامين. لا علاقة له بالبيئة المصطنعة للموضة. كان ذلك أشبه بحلم. ورغم تلك الإشارات المقلقة، أصريت على خياري وأسرعت مطأطئة الرأس إلى الزواج.

في تلك المرحلة، كان فلان في غاية الرقّة والطلاوة، مجاملاً ومرحاً ومغرماً. كان يروم إسعادي، ويجري إلى الطرف الآخر من المدينة ليشتري لي هدية. ووضع حداً لحياته كعازب وكغاوي نساء. كان لا يزال يحتفظ في شقته ببعض آثارها. حمالة نهدين، قميص نوم، أحذية نسائية. انتهزت أول فرصة لأرميها كلها في حاوية قمامة


Telegram: SOMRLIBRARY

الجيران. لم ينتبه فلان إلى أن تلك الأشياء اختفت. وعلى أيه حال، لم يقُل لي شيئاً بصددها قط.

وفي درج، وجدتُ مئات الصور، بعضها لأعماله، وبعضها الآخر له بين أحضان النساء: شقراوات وصهباوات وسمراوات، طويلات وقصيرات، عربيات واسكندنافيات... قلت في سري: «أية ورطة حشرتُ نفسي بها؟ لماذا أنا؟ ماذا لدي أكثر من الأخريات؟ آه، فهمت، الرجل بلغ الأربعين ويجب أن يتعقل ويطيع أمه وينجب أطفالاً، هو ذاك، سأكون أماً منجبة، حتى يطردني من أجل أخرى أكثر شباباً».

كان والدي يتبعان التقاليد. وحدث الزفاف في صالة أفراح. عند وصول عائلته، متأخرة طبعاً، أصيبت بصدمة، لا سيما النساء. كيف يمكن لابنهم المدلل، الفنان المرموق، أن يتزوج في صالة مستأجرة كما يفعل المهاجرون عند عودتهم إلى البلد؟ راحوا يتبادلون النظرات بذلك التواطؤ الذي سأغدو لزمن طويل ضحيته المحددة، عبسوا، ثم مروا للسلام على أمي وعماتي وخالاتي. جلس الرجال في الجهة الأخرى، هناك حيث يجب أن يكتب «العدول» العقد. كان فلان قد ارتدى العباءة البيضاء وانتعل البابوج الذي تخرج منه قدماه، كان منزعجاً ومتضايقاً. كان يشعر أن المايونيز لن يمزج بين هذين العالمين. كان متأسفاً، متأسفاً لأن عائلته عنصرية، لأن عائلتي قليلة اللباقة، متأسفاً لأنني أنتمي إلى هذه القبيلة التي لم أتعلم فيها عادات فاس الرفيعة، لأن عاداتنا الجيدة ليست عادات جيدة بنظرهم.

أعترف أن أثواب نساء أسرته - أمه وأخواته وخالاته وعماته


Telegram: SOMRLIBRARY

وبناتهم وزوجات أخوته وبناتهم - كانت جميلة جداً، باهظة الثمن ونادرة. الفساتين التي كنا نرتديها لا يمكن أن تنافسها. كنا متواضعات وفخورات بذلك. ومما سنخجل؟ من أننا ما نحن عليه؟ أبداً. أعتقد أنه لم يفهم قط هذه السمة من طبع قبيلتنا. نحن مجبولون على الكبرياء. لدينا كرامتنا وأنفتنا. وأبّهتهم لا تلوي عنقنا.

جاءت لحظة كتابة العقد. وكان علي أن أقول «نعم» ثم أوقع. كنا في صالتين مختلفتين، وثمة باب يفصل بيننا. ضغطت على ذراع أمي إلى درجة أنني آلمتها، ورحت أبكي مثل طفلة صغيرة سرق أحدهم دميتها. شاهدت والد فلان يكشِّر كأنه يعبِّر عن عدم موافقته. جذبه أحد أصدقائه من كُمِّ جلبابه حتى لا يثير فضيحة. كم وددت لو أن والده أثار تلك الفضيحة، لكان أنقذني، وأعتقد بصدق أنه لكان أنقذ ابنه أيضاً.

أنَّبْتُ نفسي وكفكفت دموعي وقلت «نعم» صغيرة بصوت خافت؛ اضطررت إلى تكرارها، ثم غطيت رأسي ووقَّعت عقد عبوديتي ومصادرة حريتي وإذلالي.

دعا الرجال الله ورسوله أن يباركا هذا الفتى وهذه الفتاة وأن يسيرا على صراط الإسلام القويم وأن يملأ الإيمان قلبيهما، وأن يطهر روحيهما من كل دنس وأن يكونا خليقين بالسعادة التي خصهما الله بها!

رفع الرجال أيديهم نحو السماء، وتلوا آيات من القرآن، وتبادلوا التحيات قبل أن يتمنوا لأهل العروسين حياة سعيدة ومزدهرة.

عزفت أوركسترا قريتنا قسماً كبيراً من تراثنا الموسيقي. أفراد



Telegram: SOMRLIBRARY

عائلتي غنوا ورقصوا. أما أفراد عائلته فظلوا مسمرين في ملابسهم الجميلة. أومأتْ لي عمته أن آتي وسألتني: «لماذا يعزفون الأغنية ذاتها منذ البداية؟» كيف سأشرح لها أن الموسيقيين عزفوا على الأقل عشرين أغنية مختلفة؟ ثم أمرتني أن أجلس بجانبها وقالت لي: «هل تعرفين من هو الشخص الذي حالفك الحظ بالزواج منه؟ هل تعرفين إلى أية عائلة دخلتِ؟ لماذا لا تتحدثين العربية بطلاقة، وما هذا النطق؟ هل أنت مغربية أم نصف فرنسية؟ حسن، يجب أن تأتين إلى منزلي في فاس، سأعلمك الطبخ وكيف تتصرفين وكيف تجيبين عندما يكلمك أحد».

كنتُ مذهولة، انفجرتُ بالضحك، ضحكٌ عصبي. ضحكتُ حتى اغرورقت عيناي بالدمع ولم أعد أعرف ما إذا كنت أضحك من السعادة أم الندم. انحسر غضبي وضبطتُ غيظي. لم أجب، طأطأتُ رأسي وحدقتُ في الأرض مثل مجنونة، تائهة.

جاء العشاء متأخراً. لم تحب النساء طبخنا. ثمة أطباق أُعيدت إلى المطبخ وهي لم تكَد تمسّ. الرجال أكلوا بشكل طبيعي. والدي الذي لم يجد وقتاً لتغيير ملابسه كان متعباً جداً. أما والدتي المسكينة فحزينة. عماتي وخالاتي نظرن إليّ بإصرار يعني: «أحسنت صنعاً!». ومن بعيد، لمحتُ زوجي ولاحظتُ حزنه. لم يكن يبتسم ولم يأكل. لعله يرغب بالفرار. لو فعلها لقدَّم لنا خدمة جليلة.

نحو الساعة الرابعة صباحاً، حملني، كما هي العادة. وأَقَلَّنَا صديقه إلى الفندق. كانت الغرفة سيئة الترتيب. ليس ثمة أزهار ولا شوكولاتة ولا بطاقة تهنئة صغيرة. هذه المرة لم يكن خطأ فلان إنما خطأ الفندق الذي لا يستحق تصنيفه كفندق خمسة نجوم. بدأت ليلة



Telegram: SOMRLIBRARY

زفافنا بفأل سيئ. توجد أعقاب سجائر في حوض المرحاض. إلى من سنتوجه في مثل هذه الساعة؟ في اليوم التالي، كتب إلى مدير الفندق رسالة مترعة بالاحتجاجات الساخطة. انتهى الاحتفال. وفي الحقيقة لم يوجد احتفال البتة، وإنما فقط حفلة للتخلص من هذا الواجب.

أمضى مصور فوتوغرافي صديق السهرة والليل في التقاط صور لنا. كَبَّرَ زوجي بعضاً منها، وعلقها في صالون منزلنا الأول في باريس. كان الناس الذين يزوروننا يذهلون: «أوه! كأنها **ألف ليلة وليلة!** ما أجملها، الزوجة ! كم هي فتية! أنت مهيبة يا عزيزتي، لا بد أنه كان حفلاً رائعاً، لماذا لم تدعونا إليه؟ يا للخسارة! زواج مغربي عظيم! يا له من احتفال! ويا لهذه السعادة الطافحة في عينيك!».

لا يعرف جميع الناس قراءة صورة فوتوغرافية. كم من مرة رغبتُ أن أقول لهم: «لكنكم مخطئون تماماً! لم يكن احتفالاً، إنما مسخرة، وإزعاجاً معمماً، سهرة لم يُسَر فيها أحد، ولم يستطع أحد تأدية دوره المناسب فيها، سهرة احتفلنا فيها بخطأ كبير، خطأ شنيع، بواسطة طبل ومزمار بربري. ما ترونه في عيوننا هو حزن كبير وأسى عميق، وقدر يسحقنا».

خلقنا دوماً انطباعاً بأننا زوجين سعيدين. أولئك الذين لم يكونوا يعرفوننا حق المعرفة كانوا يعتقدون أننا زوجين مثاليين. آلمتني هذه الصورة التي لا تمتّ إلى الواقع بصلة. اعتاد زوجي على إسكاتي عندما أتحدث إلى المدعوين على المائدة. كان يسمح لنفسه



Telegram: SOMRLIBRARY

بأشياء معي ما كان ليفعلها أبداً مع امرأة أخرى. ذات يوم، وبينما كنت أستقبل بنات أخوته وأزواجهن، تصرّف بفظاظة وراح يترجم كلامي إلى الفرنسية الفصحى، متظاهراً أنه يقدم شروحاً لأقوالي! أخذوا يضحكون، وسرَّهم أن شاهدوا كيف يعاملني، بينما أنا كالحمقاء لم أبدِ أية مقاومة.

مرة أخرى، سمح لنفسه، أمام رسام إنجليزي يعرض لوحاته في الرواق ذاته الذي يعرض فيه، أن يقول بأنه لم يسافر معي يوماً لأنه يحبّ التنقل دون حقائب، بحرية، ودون أن يرتبك بامرأة تثير له ألف مشكلة حتماً. لم يفهم الرسام لماذا كان يتحدّث عني بهذه الطريقة. وبما أنه قال ذلك بنبرة كوميدية، اكتفى الإنجليزي بضحكة مؤدبة. وفي مرة ثالثة، وأمام صديق موسيقي جاء يخبرنا بزواجه، أطلق مزحات حمقاء عن الزواج، مردداً على ذمته أقوالاً مأثورة كئيبة لشوبنهاور.

ليس أنه يقلل من احترامي أمام الناس فقط، لكنه أيضاً لم يدافع عني قط عندما كانت أسرته تهاجمني. ولعله كان يبالغ أيضاً، مغذياً رفضهم، إن لم أقُل كراهيتهم.

هكذا بدأ زواجنا على نحو سيئ، واستمر على نحو سيئ، وانتهى نهاية سيئة.



Telegram: SOMRLIBRARY

# المال

هذا موضوع شائك ومؤلم. ما إن أتحدثُ عن المال حتى يُستثار غضب فلان. وهذا هو ردّ الفعل النموذجي للبخلاء.

بمرور الزمن والتجربة، صار يمكنني أن أؤكِّد لكم أن هذا الفنان الذي يكسب الكثير من المال بخيل. من قبل، كنتُ أقول «مقتصد». اليوم، أقول «بخيل». أمضيتُ حياتي أقتصد، وأبحث عن الأشياء الرخيصة، أنتظرُ فترة التنزيلات لأُلْبِسَ الأطفال. لدينا حساب مصرفي مشترك، لكنه لا يغذيه إلا فيما ندر. كان حسابي دوماً مكشوفاً. كان يطيب له أن يلوح برسالة المصرف التي تخبره أنّ حسابه نفد أو تجاوز الخط الأحمر. «هو ذاك، ستدمرنا مصروفاتك!» أية مصروفات؟ فقط الضروري، لا شيء فائض عن الحاجة، ولا شيء كمالي. صديقاتي يشترين الملابس ذات العلامة، بثمن باهظ، بينما أنا أتدبر أمري بالذهاب إلى محلات التنزيلات والتصفية. لم أرتدِ يوماً ثوباً مميزاً ولا حلياً ذات قيمة.

في كل مرة نسافر فيها، يعطيني مبلغاً صغيراً وهو يقول لي كما لو أنه يتحدث إلى أحد أطفاله: «انتبهي!». هو لم يكن يدفع شيئاً لأنه كان مدعواً طوال الوقت، لكنه يمنعني من استخدام الثلاجة الصغيرة في الفندق خشية أن يترتب عليه دفع مبالغ إضافية. وفوق



Telegram: SOMRLIBRARY

ذلك، هو دنيء. عندما نغادر الفندق، يوجّه لي توبيخه الشهير لأن لديّ الكثير من الحقائب. حاولتُ أن أشرح له أنه حين يوجد أطفال فإنهم يحتاجون إلى الكثير من الملابس، فيجيبني: «توقفي عن ذلك، لو سمحتِ، أعرف حقّ المعرفة أنك ملأتِ حقائبك مرة أخرى بهدايا لأسرتك، لقد ضقت ذرعاً بذلك!».

فلان ليس رجلاً كريماً. أقول هذا وأنتم لن تصدقونني لأن فلان تدبر أمره ليحصل على سمعة معاكسة. يَحْسُبُ كل شيء. ولا ينفق شيئاً بمحض الصدفة. ثمة آلة حاسبة في قلبه. لا يفوته شيء. يتهمني بأنني استهلاكية مهووسة، وهو شخص لا يميز بين الأوراق النقدية. ويعتقد أن بطاقة الدفع المصرفية هي بئر نقود لا قرار له، وأنني لا أعرف قيمة النقود على أية حال، على اعتبار أنني قلما عملت، وأنني على الأخص لم أتعلم قط عدّها.

كان يعتقد أيضاً أنني لو تزوجت رجلاً من بيئتي، رجلاً فقيراً مثلي، لكنتُ أكثر سعادة وأكثر انشراحاً. ما أدراه بذلك؟

كم مرة سافر دون أن يترك مالاً. اضطررتُ للتوجه إلى أحد أصدقائنا كي يقرضني ما يكفي للتسوق وإطعام الأطفال.

لديه حسابات مصرفية في كلّ مكان تقريباً. وسعى إلى أن تُوزَّع حصيلة بيع لوحاته على حسابات مصرفية لا أعرفها. اكتشفت ذات يوم مصادفة أن لديه حساباً في جبل طارق. إهمال من جانبه، ترك وراءه إيصال تحويل. صَوَّرْتُه واحتفظْتُ به، كما وضعتُ جانباً كشوفات حسابه المصرفية، ودفتر شيكاته، وفواتير، ولوائح أخرى تفصيلية بعائداته. صَوَّرْتُ أيضاً كل الوثائق المتعلقة بثروته المقتناة في فرنسا والمغرب وإيطاليا وإسبانيا. وحتى اشتبهتُ أنه اشترى شيئاً ما في نيويورك، لكنني لم أحصل على دليل. طلبَ مني مستشاري أن



Telegram: SOMRLIBRARY

أجمع كل شيء في ملفّ تحسباً فيما لو ساءت الأمور. سيكفيني إرسال رسالة إلى مصلحة الضرائب المغربية وسيختفي فلان لسنوات. اكتشفتُ خزنة أخرى لا أعرف رمزها. جئتُ بصانع أقفال وقلتُ له إن الرقم السري لا يعمل، ففتحها في نصف ساعة. وجدتُ فيها أشياء لا تحصى حاول فلان إخفاءها، نقود وحلي ووثائق شراء وبيع وعلب واقي ذكري وحتى منشطات جنسية. كنتُ مذهولة. أفرغتُ كل شيء وخبأته. كيف أعيش بجانب رجل لديه هذا القدر من الأسرار؟ كيف أتحمل هذه الحياة المزدوجة أو المثلثة الأوجه؟ جانب الخيانة الزوجية خبرته منذ زمن طويل، ولم يعُد ينقصني إلا اكتشاف سرّ أنشطته الاقتصادية. وبما أنني لم أثق به قط، بدأتُ في فترة مبكرة باقتطاع جزء من المال ضمن خطة توفير. كنت أعلم أنه يستطيع أن يهجرني ويتركني دون قرش. رحتُ أختلق بعض الأعمال المنزلية، وبعض الأشياء لشرائها من أجل الأطفال، وبناء عليها أخذتُ أقتطع حصّة أودِعها في حساب التوفير. ذات يوم، رفض أن يشتري لي حلية رغبت بها. وفي المساء ذاته، أعطى لأخته الكبرى مبلغاً كبيراً من المال لتجميل نهديها ووركييها. علمتُ أيضاً أنه تنازل عن حصّته من الميراث لأخيه الصغير، المتزوج من مشعوذة تكرهني وتسعى لإيذائي بكلّ الوسائل، ومن ضمنها إلقاء أذى السحر عليّ. أكَّد لي طالبي ذلك. وبعد سنوات، ساعد فلان ثانية أخوه وأخواته، لكن هذه المرة لشراء شقة فاخرة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط.

وَجَّهَ فلان بخله نحوي ونحو أسرتي فقط. لا بد أن أعترف أنه كان سخياً مع الأطفال؛ لكن ذات يوم قال له ابننا الأصغر: «بابا، نحن أغنياء، ويمكن أن نحصل على الكثير من الأشياء، فلماذا تحرم



Telegram: SOMRLIBRARY

نفسك؟ انظر إلى رفاقنا، آباؤهم أقل ثراء منك ولديهم أحدث الألعاب الإلكترونية!» أعلم أنه من حيث المبدأ، وبناء على اتفاق دائم معه، عارضَ ما يمكن أن يجعل أطفالنا عبيد هذه الآلات الافتراضية، لكن لم تكن المسألة مسألة مبدأ. . .

كان المال هو مصدر خلافاتنا الرئيسة. ذات يوم، راودتني الرغبة أن أسرق إحدى لوحاته وأبيعها. للأسف، لم تكن أياً منها منجزة. خمَّنتُ أنه لم يكن ينهيها عمداً ولم يكن يوقِّعها إلا في الدقيقة الأخيرة. كان يتّخذ احتياطاته. رحتُ أقارن نفسي بنساء أخريات من محيطنا، ولا سيما زوجة الموسيقي الإسباني الذي فوّضها بكلّ ما يتعلق بالمال والعقود والبيع وعائدات حقوق التأليف. كما أنه قال لنا ذات يوم: «أنا أقدم الحفلة، وهي تجمع المال!» وكان لدينا صديق آخر، كاتب مشهور وثري؛ هو أيضاً عهد بكل شيء إلى زوجته؛ ولم يحمل مالاً أبداً؛ كانت زوجته دوماً هي مَن تنظِّم حساباته.

في البداية، لم أشأ أن أتدخل في شؤونه، أردتُ فقط ألا أكون مُبْعدة إلى الصف الأخير، على مقعد احتياطي، كما لو أنني لا شيء، كما لو أنني دون اعتبار عنده، لكنه منح ثقة كبيرة لوكيله (الذي يسرقه) أكثر من زوجته. هكذا كنت أرى إرث أبنائي يذهب هباءً. كان لا بد من التصرّف ووقف النزيف. أسرته ووكيله وأصدقاؤه كانوا يعيشون تقريباً على ظهورنا. ولم يكن هذا مقبولاً بالنسبة إليّ. لأن فلان ضعيف وساذج ودوماً ينقاد لأول قادم. كم مرة حذّرته من أحد أصدقائه المزعومين الذي راح يتملقه ويغريه بكلام وتصرفات لم يرَ النية المبيته وراءها، ولا الهدف الشائن منها. وهكذا سرق أحدهم منه ليس اللوحات فقط وإنما أيضاً المال - وهو


Telegram: SOMRLIBRARY

رجل قصير قال في مخطوطه إنه رآه يهلوس - وتبين بالنتيجة أنه متخصِّص بالاحتيال الدولي، شخص ماكر، خبيث، ذو ضحكة هستيرية وعينين براقتين، تحمران أحياناً من الغيرة والحسد. ولأن هذا الرجل لديه طموحات فنية، يرسم ولا أحد يشتري لوحاته الرديئة، لذلك افتتح رواقاً في الدار البيضاء، وعرض فيه لوحات فلان وباعها كلها. وبعد ذلك مباشرة، أعلن إفلاسه ووجد زوجي نفسه مسروقاً وفق قواعد الفن. هذه القصة سردتها الصحافة بالتفصيل، لكن النَّصاب غَيَّرَ مهنته وافتتح وكالة سفر متخصصة في الحج إلى مكة والعمرة، وهذه الأخيرة هي حجّ صغير يحدث خلال العام. أخذ يبيع الناس الفقراء رحلات منتظمة، ليكتشفوا فجأة أنه خدعهم، وأنه لا شيء ممّا وعدهم به ينتظرهم. وكان يستحيل عليهم الاحتجاج بدورهم، فإما أن يجدوا الوكالة مغلقة أو افتتح مكانها محلّ جزار أو بقالة. كان هذا النصّاب صديقه، ولم يدرك أنه يحضِّر لضربته. ويمكنني القول إن زوجي هو مَن قدّم له المال ليفتتح الرواق. ارتبتُ دوماً بهذا الشخص، لكن فلان لم يصغِ، وكان يقول: «أنت تغارين من أصدقائي وتسعين لتفريقي عنهم»... إلخ.

لهذا السبب كان المال يخلق شجارات بيننا؛ ذات يوم قلت له: «لديك مشكلة جدية مع المال، عليك أن تعالج نفسك».

أجابني بعبارة أبكتني لزمن طويل: «أُفَضلُ أن يذهب هذا المال إلى جيب أصدقائي أكثر من أن يذهب إلى جيب عائلتك!».

كأنّ عائلتي بحاجة إلى نقوده. أيّ عار! أدركتُ عندئذٍ بشكل قاطع أنه مريض وأن أسرته - أقصد: أنا وأطفاله - نأتي بعد أصدقائه وأخوته وأخواته وبعد أبناء أخوته وأخواته وأولاد عمومته وخالاته.



Telegram: SOMRLIBRARY

عندما طلبتُ الطلاق منذ بضعة أشهر، كنتُ قد قرَّرت حقاً أن أثأر، وأن أسترجع أقصى ما يمكن لأبنائي قبل أن تأتي أول امرأة وتسلبنا كل شيء. لم يكن كفؤاً ليدير ثروة الأسرة، لهذا السبب أردت أن أستلم زمام الأمور، مرة وإلى الأبد.

آه، نسيت تفصيلاً: عندما كان يقدِّم لي هدايا، نادراً ما يكون هو من دفع ثمنها. فالحزام الذهبي الذي ترتديه العديد من النساء المغربيات لم يشترِه لي، وإنما أعطتني أمه حزامها. أردتُ حزاماً جديداً، أختاره بنفسي، على مقاس خصري ويناسب أثوابي. لا، هو طلب من والدته أن تقدِّم لي حزامها نظراً إلى أنها لم تعُد ترتديه منذ أن مرضت ولم تعد تحضر حفلات الزفاف والمناسبات الأخرى. لم أرتده قط. ولم نذهب يوماً في رحلة شهر العسل. ودوماً بسبب المال. كان يقول لي بأننا ما دمنا محظوظين لأننا غالباً ما نُدعى إلى الخارج، فيجب اعتبار ذلك بمثابة شهر عسل دائم. وحتى حدث له أن اشترى بطاقة رجال الأعمال ليريح مؤخرته الناعمة، أما أنا والأولاد، فسافرنا في الدرجة الاقتصادية لأنه لا يريد أن يدفع ثمناً ليقدِّم لنا الراحة ذاتها. وقال إننا ما دمنا على متن الطائرة ذاتها، فسنصل بطبيعة الحال إلى المكان ذاته. «أنتم شباب، وأنا لم أعد كذلك» لم يقل قط «أنا عجوز» أو «مسن»، كان مغناجاً ومتطيراً.

عندما أقام عمي وزوجته في أحد منازلنا القديمة المغلقة، أراد أن يجعلهم يدفعون إيجاراً. أي عار! أية قلة احترام! يطلب من عمي الفقير مالاً بينما هو يكسب الملايين. لقد قدم لنا خدمة بإشغاله منزلاً كان سيفقد من قيمته لو بقي شاغراً، ويطالب بقروش من عامل مهاجر لا يكاد راتبه لا يتجاوز الحد الأدنى للأجور.

كان يمنعني في المطعم من شرب النبيذ، ويتذرّع بأن ذلك



Telegram: SOMRLIBRARY

سيشجِّع كحوليتي الوليدة. وفي الحقيقة، كان يقتصد. علاوة على ذلك، لم يكن يحتمل رؤيتي أشرب، باعتباره نموذج المغربي المقتنع بتفوق الرجل على المرأة، معتقداً أن ذلك علامة تمرّد ودلالة تحرّر. لذلك رحتُ أبالغ كما ينبغي حتى أزعجه وأجعله يُظهر وجهه الحقيقي، وجه آية الله الذي يرتدي لباساً أوروبياً.

كان سخياً مع المستخدمين، يدفع لهم أفضل من جميع الناس ويقدِّم لهم الهدايا، وحتى يذهب لشراء خروف العيد الكبير لحارسنا. أما معي، فيحسب. ولا واحدة من صديقاتي تعاني هذه المشاكل المالية مع زوجها. حظي عاثرٌ، لكنه قدري. ترتب عليَّ دوماً أن أطلب؛ وفي الواقع، حاول أن يجعلني تابعة، تابعة له، لكرمه، كما لو أنني غريبة أو أحد أبنائه. كان يُدَوِّنُ كل شيء في مفكرة وفي كل مرة أطالب فيها بالمال يخرجها ويتلو عليّ: «الشهر الماضي أسرفتِ في المصروف... هذا كثير، أكثر مما ينبغي، خاصة أنه لا ينقصك شيء...» ذات يوم، انتزعت هذه المفكرة من يديه ومزّقتها قبل أن ألقيها في سلة المهملات. نظر إليّ مشدوهاً كأنني مزقتُ أوراقاً نقدية.

لم أرغب يوماً بتسهيل الأمور عليه؛ وأصريتُ على إغاظته، واخترتُ أكثر اللحظات هدوءً، مثلاً عندما يعمل، أظهر في محترفه فجأة وأطالبه بالمال؛ وحتى ينعم بالسلام، يوقِّع لي شيكاً. ذات يوم، نسي أن يكتب فيه المبلغ. أصبح لدي شيك على بياض. كدتُ أطير من الفرح. يمكنني أن أسحب كل رصيده. وضعتُ مشاريع وهرعتُ إلى المصرف وسألتُ فتاة الكوة إن كان حسابه مليء. أجابتني أنني يمكن أن أسحب مبلغاً يصل إلى المئة ألف درهم. غادرتُ من هناك بحقيبة مليئة بالأوراق النقدية. كنتُ أشعر أنني


Telegram: SOMRLIBRARY

خفيفة لأن حقيبتي ثقيلة بالمال، بماله. قدّمت لوالدي تكاليف السفر إلى مكة واشتريتُ لنفسي ساعة يد جميلة وبضعة أشياء صغيرة.

حدث لي أيضاً أن استدعيتُ منجِّد الأثاث، وأوصيته على أثمن أقمشة المفروشات وطلبتُ منه أن يرسل الفاتورة إلى زوجي. كان منجِّداً موهوباً، لكنه يعمل بأسعار باهظة. لهذا السبب يكرهه زوجي، لكنه انتهى إلى سداد المبالغ المطلوبة.

رغم حذره من التجارة من جميع الأصناف، نجح أحد أبناء عمّ فلان في ابتزازه. كان قد وجد هاوي مجموعات مكسيكي أراد أن يشتري واحداً من أجمل أعماله الفنية، بل إن المكسيكي دفع سلفة كضمان. أخذ ابن عمه اللوحة، والمكسيكي دفع المال، وفلان لم يرَ ثانية ابن عمه! حيلة ماكرة! كان فلان يحذَر من عائلتي، لكنه كان ينخدع من عائلته... هذه هي الحقيقة.



Telegram: SOMRLIBRARY

# الجنس

ألا تلاحظون أن فلان لم يتحدث إطلاقاً عن علاقتنا الجنسية؟ لو سألتموه عن السبب، لقال لكم إن ذلك بسبب الحياء. لكنه حين يرسم امرأة عارية تماماً، وأحياناً في وضعيات مشبوهة، لا يهمّه الحياء مطلقاً. وحين يتعلق الأمر بحياتنا الجنسية فقط يصبح صامتاً. يضع في مخطوطه لائحة غزواته، واصفاً النساء بأدقّ التفاصيل، ظاناً نفسه كازانوفا أو دونجوان الريفي، وبعد ذلك يشكو فجأة من مداهمة الشيخوخة التي أصابت طاقته الجنسية، بسببي وبسبب السكتة الدماغية.

يفضل ألا يقول شيئاً عمّا كان يحدث أو الأصحّ عمّا لم يكن يحدث في علاقتنا الحميمية. نادراً ما كنا نتضاجع، وكان فظاً، ويستعجل إنهاء المضاجعة، ويقذف حتى دون أن يتساءل إن استمتعت. كان يمكنه قضاء شهر دون أن يلمسني. ولا بد لي أن أقول إنني أنا أيضاً لم أكن أرغب به. كنا نخلد إلى النوم بعد أن يقول أحدنا للآخر تصبح على خير، هو يقرأ في كتاب أو يشاهد فيلماً، وينهض في الليل مراراً، يأكل فاكهة أو يشرب لبناً، ويضيء المصباح، ويبدي استياءه لأن النوم جافاه، فيغيِّر من وضعيته ويبدأ بالاستماع إلى الراديو، وتلك قمة الفظاظة. وأنا أذهب للنوم مع



Telegram: SOMRLIBRARY

الأطفال تاركة إياه وحيداً مع أرقه. وفي الصباح، يستيقظ بمزاج سيئ ويشرب القهوة دون أن يتفوّه بكلمة، ودون أن يرسم ابتسامة، يستقل السيارة ويغادر إلى محترفه حيث ينعم بالسلام كما يقول.

أعرف أن هذا السلام كان مصحوباً بفتاة، وأنه يستفيد من تلك اللحظات التي أكون فيها بعيدة، ومنهمكة بالأطفال، ليمارس المجون مع فتيات الشارع. وفي المساء، يعود متعب الوجه. فأعرف بالحدس أنه مارس الجنس، مع أنه بوسعي إقناع نفسي أنه يعاني من عجز جنسي، لكن لا، كان يحتفظ بطاقته وشهوته للأخريات، ربما لنساء متزوجات، وربما عازبات، وجميعهن يأملن بالتسلط عليه يوماً.

انتهى ذلك نهاية سيئة، على الأقل في إحدى المرات، مع مغربية تدرس في مدرسة الفنون الجميلة بباريس. جاءت لرؤيته من أجل نصائح، وكانت تربطها به قرابة غامضة من جانب أمه، ابنة ابنة خالتها. لم تكد تبلغ الثانية والعشرين من عمرها ولم تزل عذراء. بعد شهرين من موعدهما أصبحت حاملاً. ودرءاً للفضيحة، اضطرت للإجهاض مباشرة، وحتى تخفي الأمر، خاطت غشاء بكارتها في مشفى متخصِّص. روى لي فلان القصة، لكنه تجنّب تماماً أن يقول لي أنه المسؤول. «قال لي بنبرة صادقة، عليَّ مساعدتها، لأن والديها تقليديان جداً، وسيكون ردّ فعلهما سيئاً، وصديقها الذي حملت منه ليس لديه قرش واحد وعلى أية حال لاذ بالفرار...».

دفع فلان جميع التكاليف. خرجتْ من المشفى لا من رأى ولا من سمع. انتظرتُ شهراً، اتصلتُ بها وذهبتُ لرؤيتها، وجلبتُ زجاجة نبيذ، كنتُ أعرف أنها تحبّ النبيذ الأحمر. شربنا، وبمجرد أن استرسلت، مضتْ في اعترافاتها، ورويتْ لي كل شيء بالتفصيل،



Telegram: SOMRLIBRARY

كيف ضاجعها، وكيف عرض عليها وضعيات تثير الشهوة الجنسية، كيف مصَّت قضيبه وكيف لحس قدميها ومؤخرتها على ما أتصور. وحتى قالت لي إنهم مارسوا جنساً جماعياً لثلاثة مع إيطالية عابرة، صحفية جاءت إلى معرض الفن المعاصر.

عندما غادرتُ، شكرتها وسألتها أن تؤدي لي خدمة: «عندما تكونين على موعد معه في المرة القادمة، أخبريني».

للأسف، ليس هناك مرة قادمة. قطع فلان علاقته بها ولم يعُد يرد على اتصالاتها. تمنيتُ لو فاجأته متلبساً وأفحمته، لكن هل أحتاج إلى أدلة أخرى!

أية امرأة كانت ستقبل بمثل هذا الوضع؟ مع زوجته يدّعي أنه يعاني من الشقيقة، ومع الأخريات يُضاعف فتوحاته!

صحيح أنني أرسلتُ له ذات يوم رسالة قلت فيها إنني **محرومة مالياً وجنسياً**. ولم يجب قط.

غالباً ما روت لي صديقاتي عن لياليهن مع أزواجهن بينما أنا أبقى صامتة، لا أتجرأ على قول الحقيقة. كنتُ أكبت حرماني وأشعر بالعار. زوج صديقتي حفصة يزيل لها الشعر؛ يبدو أن ذلك يثيره كثيراً. وزوج صديقتي ماريا يُقَبِّلُ جسدها كله مطولاً. أما خديجة فترتدي ثياباً داخلية ناعمة وشفافة وتلعب دور الغريبة التي يغريها زوجها؛ ومعظمهن يمارسن الجنس مرات عديدة في الأسبوع. بينما اضطررت أنا أن أنتظر دوماً رغبة السيد. هذا فقط إذا سمح له وقته واهتم حقاً بي!

لحسن الحظ أنني قابلتُ لالا، جارتي، تلك التي يكرهها وحاول إبعادها عني. أنقذتني لالا. فتحتْ لي عيني؛ أعطتني


Telegram: SOMRLIBRARY

السلاح لأدافع عن نفسي؛ إنها امرأة استثنائية، سوية ونزيهة وكريمة وجميلة وطيبة، لها روح فنان، ترفض تلويث سمعتها، كانت أبعد ما تكون عن حالة فلان.

حدثتني لالا عن الجنس، وشرحتْ لي أن امرأة في مثل عمري لها الحق المطلق في أن تكتفي، ولو مرة على الأقل في اليوم. لا أمل لي بذلك، لكنها محقة، يجب أن أترك هذا الوحش الأناني، هذا المنحرف الذي كاد يجعلني مجنونة. أُدْرِكُ أن فلان لا يحب لالا. فهي ساعدتني على اكتشاف ألاعيبه، كان يسعى إلى إقلاقي ليتخلّص مني ويستسلم من جديد لملذاته محتفظاً بكل شيء.

أدين لـ لالا ببداية تحرري. أصبح غيوراً، غيوراً جداً. راح يصرخ ويجأر مدعياً أنه يحبني! أي منافق! الأمر الوحيد الذي اهتم له طوال حياته هو أناه، وعندما ساعدني أحد على فتح عيوني، لم يستطِع أن يتحمل ذلك. كان يعتقد أنه تزوج من راعية صغيرة لا تنبس ببنت شفة، وتخفض بصرها وتتجرع الإهانات! بالتأكيد لا! إنه مخطئ، ولا يعرف ما تخبئه له الفلاحة الصغيرة.

أما بالنسبة إلى حياتي الجنسية، فما زلت شابة، ويُقال إنني جميلة ومثيرة، وآمل أن ألتقي أخيراً برجل يثأر لي من كل ذلك الحرمان والخزي وغياب الاحترام الدائم.



Telegram: SOMRLIBRARY

# الغيرة

أجل، أعترف بذلك، أنا غيورة، غيورة جداً. لم أغر يوماً من صديقاتي، فقط من فلان. كانت لديه طريقة وقحة لاستثارة أسوأ ما فيَّ، هذا الشعور الكريه، لكن المبرر الذي يجعل الأزواج مجانين. كانت دعارته تتجلى بطريقة ماكرة طبعاً. يشرع أمام المدعويين بمجاملة نساء سرَّحْن شعرهن على نحو سيئ ويرتدين ملابس غير أنيقة، ليستفزني فقط. يهتم بما يفعلنه، وبأطفالهن، ويسألهن عن مطالعاتهن وعن أوقات فراغهن. يستخدم النبرة المعسولة التي أمقتها. كنت أحافظ على هدوئي ولا أتفوه بشيء. ذات يوم، دُعينا عند أناس لديهم حفل استعراضي. كانت توجد ممثلة مبتدئة ترتدي فستاناً مقوراً فاضحاً يكشف عري الرقبة والكتفين. لم تبرح عيني فلان صدرها وطفق يكلّمها طوال السهرة. وحتى فاجأته وهو يدون رقم هاتفها. تركته يفعل ذلك. وفي المساء، سرقتُ هاتفه النقال ومسحتُ جميع أسماء النساء بدءاً من تلك الممثلة المبتدئة التي تسمي نفسها ماريلين، مع حرف «ي» كما تقول. أنّبني في اليوم التالي، متحدثاً عن الاحترام، وخصوصية أموره، مُلقناً إيايَ درساً في الأخلاق بطعم القيء المقزّز. وفي الحقيقة، لم تكن غيرتي تُعَبِّرُ عن حنان مكبوت أو حبّ يجب الفوز به. لا، إنها ردّة فعل تجاه محاولاته للتقليل من شأني أمام الناس.



Telegram: SOMRLIBRARY

في مرة أخرى، اتصلتْ بالمنزل صديقته الروسية أو البولونية، ولا أدري إن كانت رسامة أو موسيقية، لكنها ادعتْ على أي حال أنها فنانة. قالت لي بنبرتها المرعبة: «أريد أن آتي لأرى أطفال عشيقي السابق، كما تعرفين، تعرفتُ عليه منذ زمن طويل...» يا للوقاحة! أغلقتُ السماعة في وجهها. في المساء، علق فلان باقتضاب: «لا تعيريها انتباهاً، إنها بلهاء!» هكذا كان يعامل النساء اللواتي يطمحن إلى الحظوة بحبه!

طلب مني ذات يوم أن أساعده في اختيار عقد يريد تقديمه لزوجة صاحب صالة عرض. كان تصرفاً لطيفاً لأنهما في كل مرة يأتيان لزيارتنا يجلبان لنا شيئاً ما. اشترينا عقداً بربرياً رائعاً من الفضة والمرجان. غلّفته بورق هدايا. وبعد بضعة أشهر، ها أنذا أجده في عنق مديرة صالة عرض بمدريد، امرأة جميلة كانت عشيقته بالتأكيد. عندما سألته، راح يتلعثم مثل كاذب ضُبِطَ متلبساً. كان يحدث من حين لآخر أن تتصل نساء بالمنزل. كنت أعطيهن رقم المحترف. غالباً، بعد برهة اندهاش، يقلن لي: «لكن ألستِ سكرتيرته؟ مساعدته؟» عندئذٍ أصرخ: «أنا زوجته!!» فيغلقن السماعة أمّا هو فلا يقدِّم لي أي تفسير. يردِّد دوماً الجملة ذاتها: «لستُ مسؤولاً عن الرسائل أو الاتصالات التي أتلقاها» ثم يستطرد: «إذا أردتِ تكريس غيرتك المرضية، فالأجدر أن تغاري من شيء مهم، وليس من أشياء تافهة لا يد لي فيها!» وما هو «هذا الشيء المهم»؟ علاقة جدية ، حبٌّ عاصف، تفاهم تام؟ كان يعترف دون أن يكشف شيئاً. وأنا أسمي ذلك بالنية السيئة وينتابني الرعب من النية السيئة.

تفنن فلان في طعن كبريائي، وبحث عن الجراح المدفونة في أعماق طفولتي ونكأها ليؤلمني ألماً مبرحاً؛ راح يسخر من تجربتي



Telegram: SOMRLIBRARY

كعارضة أزياء، ويقول إن القامة الطويلة ليست دليلاً على الموهبة؛ واستخدم بوحي له ليهينني، ويذكّرني ببيئتي كابنة مهاجرين أميين. قال إنه رسم لوحة جدارية مهداة إلى المهاجرين! يا له من مدَّعٍ، يا له من مغتصب! قدمها إلى مدينة سان دينيس التي اشترت منه بعد بضعة أشهر لوحتين كبيرتين لتعليقهما في مكتب العمدة وفي مدخل البلدية.

كنت أغار من بعض أصدقائه. ظَلَّ فلان دوماً تحت تصرّفهم. متاحاً لهم وكريماً معهم. كان من بينهم لاجئان سياسيان من تشيلي لا يفترقان حقاً. لم ترَ زوجتاهما غضاضة في هذا، وقبلتا الوضع: الصديق أولاً، والزوجة والأسرة بعد ذلك. كان فلان، ولست أدري لماذا، معجباً بهما، ويتحدث عنهما بحسد. اشتبهت بعلاقة شاذة، لكن لم يكن الأمر على هذا النحو إطلاقاً. فالتشيليان متحابان كصديقين ولم يدعا مكاناً لشيء آخر. وذات يوم، سمح أحدهما لنفسه أن يوجِّه لي ملاحظة خلال عشاء في منزلنا بباريس: «اعتني بصديقنا فلان، إنه فنان كبير، ويجب أن تكوني لطيفة معه، نحن حريصون جداً عليه، ونُجِلُّ موهبته العظيمة!» لم أستطِع أن أتمالك نفسي، وانبجس جانبي المتوحش فصفعته؛ بقي فاغراً فمه؛ وانتهى العشاء عند هذا الحدّ ولم أرهما ثانية. بالطبع وبَّخني فلان بشدة، ونعتني بأقذع الأوصاف؛ واتخذ شجارنا أبعاداً غير مسبوقة.

هو ذاك، لم تكن غيرتي شيئاً آخر سوى غضب وغيظ مندفعين إلى أقصى حدّ. لا شيء أكثر. لم يعد بوسع فلان اليوم أن يطعنني، وهو منزوٍ في ركنه ومستضعف. صار يحتاجني حتى ينهض ويجلس ويأكل وأيضاً حتى يتغوط. أصبح تحت رحمتي. ولم يعُد لغيرتي الحق في الوجود.


Telegram: SOMRLIBRARY

# الخطأ

تلك الليلة التي أمضيتها في الخارج، والتي حكى عنها فلان في مخطوطه، أتذكرها أنا أيضاً. التقيت رفيقاتي عصراً ووجَدْنَني مكروبة، حزينة وغير سعيدة. فقرَّرن أن نخرج. ذهبنا للعشاء في مطعم فاخر وبعد ذلك أنهينا الليلة في حانة عصرية. رقصتُ كالمجنونة، وحتى غازلتُ شاباً أصهباً، وفي الصباح تكفلتُ بشراء رقائق بالزبدة وعدتُ إلى المنزل. كان فلان ينتظرني ومفاتيح السيارة في يده، وسألني أين كنت. أجبته: «في حانة» صفق الباب وغادر نازلاً الدرج بسرعة. وفيما بعد فقط علمتُ أنه حضر إلى منزل والدي ليشكوني كما يحدث لدى العائلات التقليدية. الفتاة تبقى قاصراً حتى لو تزوجت؛ ويمكن لوالديها المتحالفين مع الزوج، أن يعاقباها ويضربانها ويسجناها! لكنه فوجىء بعقبة غير متوقّعة. فوالدي يثقان بي أكثر منه. لم يصدّقاه، وغمغما ببضع عبارات واتصلا بي سراً ليستعلما عن زيارته المباغتة. لم يكونا يحبّانه، ويجدانه متغطرساً واستعلائياً. يعرفان أنه لم يكُن يسعدني، لكن لا وجود للطلاق عندنا، فهذا تقليد. اقترحتْ عليّ والدتي مراراً أن نعهد بحالته إلى الحجّة سعدية؛ فهي قادرة على جلب الخير كما يمكنها أن تؤذي أي شخص. رفضتُ. ليس هذا. وليس بعد. كم مرة أذبتُ مستحضراً



Telegram: SOMRLIBRARY

في قهوته لأنتزع منه إرادته كلها! وصفة مكوّنة على ما يبدو من مسحوق مخّ الضبع ممزوجاً بتوابل أخرى مستوردة من أفريقيا وحتى البرازيل...

صحيح أنني في ذلك اليوم لم أكُن مضطرة للعودة إلى المنزل؛ لكن لدينا ابن في عمر الستة أشهر، ولا يسعني أن أذهب وأتركه. بعد هذه الحادثة، اعترتني الرغبة مراراً في أن أهجره، لكنني كنتُ أراجع في كلّ مرة حالتي وأقول في سري: «سيتغير، إنه عازب قديم لا يعرف العيش المشترك ومتطلباته، سيستيقظ ويتحمل مسؤولياته، وسيفهم أنه لم يعُد وحيداً وأنه أسّس أسرة وأن عليه أن يتكفّل بها». منحته مهلة، فرصة ليتخلى عن أهوائه وعاداته القديمة كرجل وحيد.

بعد زواجنا بفترة وجيزة، حصل على جائزة دولية مرموقة في الرسم، تلاها سفر ومعارض. اصطحبني معه إلى كل مكان، إلى مصر إلى البرازيل وإيطاليا والولايات المتحدة والمكسيك وروسيا... إلخ. أحببتُ هذه الرحلات وأحببتُ الفنادق الفخمة والمطابخ الشهية واكتشفتُ حليَّ ومنسوجات الشرق. عندما كنا نسافر، أعترف أن الأمور كانت تتحسن بيننا، حتى من الجانب الجنسي، لكن بمجرد عودتنا إلى المنزل، يتجهّم ويمضي وقتاً مديداً في محترفه حيث يعاني من صعوبة في العمل لأنّ كل تلك التنقلات شوشته.

ثم جاءت نهاية عقد التسعينيات وزياراته المتتالية إلى المشفى التي قادته ولا ريب إلى السكتة الدماغية المحتومة بشكلٍ تدريجي. كان يثير أعصابي بسبب قلقه الشديد وشحوبه وكربه وتوتره النفسي. لم أكن حنونة معه، وحسبتُ أنني أُحْسِنُ صنعاً بذلك وظننتُ أنني


Telegram: SOMRLIBRARY

أساعده على أن يغدو قوياً لمواجهة الألم، خاصة أن التحاليل لا تنذر بالخطر. راح يمضي ليالي مؤرقة ويمنعني من النوم كما لو أنني المسؤولة عن الجرثوم الطفيلي الذي أصابه في الصين حيث رفض أن أرافقه. عقابٌ عادل! أثناء إقامته في المشفى، كنتُ أحمل له الطعام وأهتم ببريده وألغي له مواعيده ودعواته. جاء وكيله الأميركي لزيارته. وفي الواقع، لم يكن خائفاً على تلميذه، إنما على العكس، كان يحسب: إذا اختفى فلان على حين غرة، فسترتفع حصته بالنتيجة. حمل علبة شوكولاتة اشتراها من المطار ووضعها على الطاولة عند سرير المريض. وفور أن استعلم عن صحته، قفل راجعاً مباشرة بالطائرة ليقدّم تقريره بهدوء إلى أصحاب صالات العرض التي يعمل معها.

كان فلان في غاية السعادة لأن الوكيل جاء من نيويورك لرؤيته فقط. عندما أعربتُ عن شكوكي بشأن أسباب زيارته، اعترته نوبة غضب، هو الذي كان تحت الأكسجين. وبعد خروجه بثلاثة أيام، فقد واحداً من أعزّ أصدقائه، أحد أولئك الذين رافقوه يوم طلب يدي. مات فجأة بمرض نادر. فأثّر فيه ذلك كثيراً، هو مَن كاد يُشارف على الموت. استغرب فلان أنني لا أشاطره حزنه، لكنني لستُ من النوع الذي يبالغ ويقول كلمات لطيفة ويقوم بتصرفات حنونة... إلخ. إنني هكذا؛ فقد كفّ والدي عن تقبيلي في سن الثالثة أو الرابعة.

خلال أشهر، تحملتُ مريضاً بالوهم يمشي كعجوز ويرفضُ الخروج مساء ويمضي وقته في الخربشة على مفكرة؛ لم يعُد يرسم. اتّصل به صاحب الصالة التي يعرض بها ودفع له سلفة عن معرضه القادم؛ فلم يعُد مريضاً ولا مُرهقاً. صار ينهض باكراً ويذهب إلى


Telegram: SOMRLIBRARY

محترفه. وفي المساء يحدِّثني عمّا يفعله. قلت في سري مرة أخرى إن النقود ستمرّ من تحت أنوفنا. كنت أعلم أنه سيساعد شخصاً من عائلته تدهور عمله. اتصلتُ بصاحب صالة العرض الأميركي وطلبتُ منه أن يدفع العائدات لي من الآن فصاعداً. أجابني بمنتهى الوضوح: «لدينا نص دقيق ومكتوب من فلان بألا ندفع لك شيئاً في حياته».

مكثتُ مذهولة، وغمغمتُ باعتذارات وطفقتُ أبكي.

خطئي هو أنني اعتقدت أنّ بمقدوري تغيير الكائنات. لا أحد يتغير وعلى الأخص رجلاً سبق أن صاغ حياته. وصلتُ في اللحظة التي قررَ فيها أن يتوقفَ عن اللهو وقررَ أن يتزوج امرأة لأن القلق من الزمن والموت بدأ يجتاحه. كنتُ الوردة الصغيرة التي ستنوب عن الأخريات، باستثناء أنني أنا هي من قطف شبابها وبراءتها.

لم نُخلق لنلتقي. وهذا هو خطئي، خطؤنا.


Telegram: SOMRLIBRARY

# عائلة الزوج

كانت لا مبالاة فلان والحرب التي شنَّتها أسرته ضدي تهدفان إلى جعلي مجنونة. حدث لي أن استيقظتُ في الليل، مرتعشة ومتعرقة وباردة، مع أن الغرفة دافئة. كانت تلك علامات أذى السحر الذي ألقي عليّ. قال إنه لا يؤمن بتلك الأشياء، ربما، لكن لدي دليلٌ على أن نساء عائلته استخدموا الشعوذة ضدي. طالبي أخبرني بكلّ شيء وحكى كل شيء، وأعرفُ ما يَنْوين فعله، وأين ومتى. في البداية، حاولن التأثير على علاقتنا الزوجية بقصد الانفصال. ولم يعُد زوجي يلمسني، ولم يعُد يضاجعني. ثم أصبح لا يشعر بوجودي، وحتى صار ينفر من بشرتي. ولم يعُد يشعر بأية رغبة تجاهي. لم يكن هذا طبيعياً. عرفت فيما بعد أنهن استطعن فعل ذلك بعد الحصول على خصلة من شعري وبعض فوطي الصحية. رحت أعاني وأشعر بالقلق المفاجئ وأتجول في المنزل، ولم يكن بوسعي طلب النجدة، فقواي تخور، وصحتي أيضاً. في تلك الأثناء، كان فلان يعمل ويخرج ويسافر. كان ينعم بالسلام.

اتبعتُ إرشادات الطالب وأجريتُ حملة تنظيف للمنزل. ساعدتني صديقاتي وعثرنا على الكثير من العلب الصغيرة المغلفة بورق الألمنيوم في زوايا كل غرفة، وتحت الأَسِرَّة، وفي



Telegram: SOMRLIBRARY

المراحيض. غزت المنزل أشياءٌ متخصصة لتصيبني بالمرض.

عرفتُ يومها أنني مهدّدة، وتحت المراقبة، وأنه يتحتم عليّ أن أردّ بهجوم مضاد لأحمي نفسي. لم يكن طالبي كفؤاً لمثل هذا الردّ. فحدّثني عن امرأة في مراكش، سيدة عجوز ذات قدرة خارقة يمكنها القيام بهذه المهمة. قال لي أيضاً أنه يجب التضحية بحيوان على باب المنزل فوراً، وإحراق بخورٍ للوقاية.

ذهبتُ إلى مراكش؛ انتظرتُ أياماً قبل الحصول على موعد مع ولادة (كانوا يسمونها هكذا لأنها عملت إبان شبابها قابلة). قالت لي بمجرد أن رأتني: «ابنتي المسكينة، من حسن الحظ أنك جئتِ لرؤيتي؛ حسن، اجلسي هنا، أمامي، وأعطني ما أفتتح به هذه الجلسة» أخرجتُ ورقة نقدية من فئة المائتي درهم ووضعتها قربها. إنها امرأة قوية جداً، ليست عرافة، لكنها تعرف قراءة الوجوه وخطوط اليد. روت لي كل شيء بالتفصيل؛ كما لو أنها تعيش معنا؛ كانت تعرف كل شيء، وتصف الأشخاص السيئين. تأثرتُ بموهبتها، لأنها وهي تحدقُ فيَّ وتتفرس، اكتشفتْ ما يوجد خلف معاناتي. كانت ولادة امرأة من الريف، ولا تعرف القراءة، لكنها تكتب بالمقابل علامات غير مفهومة ذات سلطة سحرية. وبينما هي تتكلم، شاهدتها تعمل. راحت تبلِّل قصبة بحبر السبيدج وترسم علامات بعضها أشدّ غموضاً من الآخر ستفيدني في هجومي المضاد.

كلفني هذا ألف درهم، لكنني ارتحت، وغادرت مزوّدة بأسلحة لتدمير كل ما تجرأت زوجات أخوة فلان على فعله بي. ومنذ ذلك الحين، تخليتُ عن عائلة زوجي نهائياً. عندما أراهم مصادفة، أكون مهذبة، وألقي عليهم السلامات والتحيات المنافقة. استمرتْ امرأة


Telegram: SOMRLIBRARY

مراكش وطالبي في العمل لتأمين حمايتي. بقيتُ متيقظة. وحملتُ معي دوماً رُقْيَات الطالب. كان الطالب يذيب مرة كل ستة أشهر مادة برونزية في طنجرة ويمزجها مع الماء ويغلي فيها أعشاباً من مناطق عديدة، ويناولني زجاجة من هذا السائل المائل إلى اللون الأصفر الذي أسكبه على جسدي قبل الاستحمام. وفي أسوأ لحظات فعلهم، أغدو شبه مجنونة، وأشعر بنفسي مطوقة بالشرّ، وبإرادة عظيمة لإيذائي وتحطيمي. كنت أقرأ في عينيّ زليخة، زوجة أخيه الأكثر حسداً وخبثاً، كل كراهية العالم. كأنهما تقدحان شرراً لإحراق كل ما أحاول فعله. أهدتني ذات يوم خاتماً من الذهب والفضة. عندما رآه الطالب، أمرني أن أنزعه وأعيده لها. كان خاتماً مفخخاً، مشبعاً بالشعوذة هدفه إلغاء الحماية التي أَعَدَّها لي. حين أرجعته لها، تظاهرَتْ أنها فوجئت؛ قلت لها إنه يؤلم إصبعي وأنني أتحسَّس من الذهب. ابتسمتْ وبرطمتْ شفتيها كأنها تقول لي: لن تخسري شيئاً إن انتظرتِ.

هكذا قاومتُ بكل قواي عائلته.

أجل، من حق فلان أن يروي بأن عائلتي غالباً ما جاءت لرؤيتي، فهي حاميتي وسندي. أجل، جاءت فتيات من قبيلتي ليسكنّ في منزلي ويساعدنني على الاهتمام بالأطفال. أجل، أعطيتُ دوماً الأولوية لعائلتي. لا، لا أحب أحداً من عائلته. لديّ مبرراتي وهو لا يريد تفهّمها. أرفضُ أن يهيمن عليّ أبناء أخوته وأخواته السيِّئي التربية والذين لا يحترمونني. ذات يوم، عندما كنت أستضيف واحدة من بنات أخوته العديدات، وهي فتاة بلهاء بدينة فشلت في دراستها، رفضتُ أن تبقى في المنزل. طلبتُ منها أن تكون مفيدة وتساعدني


Telegram: SOMRLIBRARY

في تنظيف غرفة الأطفال. رفضتْ. طردتها. أجابتني: «ليس لك الحق، أنا هنا في بيتي، في منزل عمي، ولن أخرج» ألقيتُ أمتعتها في الشارع وذهبتْ لتبكي أمام عمّها. في المساء، صبّ فلان لعناته عليّ.

ظلت عائلته تكرهني دوماً، لكن لا أهمية لذلك في النهاية. هذا لا يؤثر فيّ؛ فهو لا يريد أن يرى الطبيعة الحقيقية لأفراد عائلته. لم يصدقني عندما أخبرته بما وجدته خلال حملة تنظيف المنزل. قال لي: «أنت تختلقين كل شيء، أنت مريضة».



Telegram: SOMRLIBRARY

# أصدقاؤنا

لم يكن لدينا الأصدقاء ذاتهم، ليس بسبب اختلاف الأجيال فقط، وإنما أيضاً بسبب التراتبية الاجتماعية. يتحدّر جميع أصدقائي تقريباً من بيئة المهاجرين. أصدقاؤه مثقفون وفنانون عالميون وكتاب وسياسيون مغترّون جميعاً بأنفسهم. ينظرون إليّ إما بتعالٍ أو بذلك اللطف الذي يعاملون به أطفالاً يختلطون بأشخاص راشدين.

أتذكر في بداية لقائنا، أن جزائرية أو تونسية، قبيحة وسوقية، متزوجة من فرنسي يكبرها سناً بكثير، قالت لي بهيئة مشمئزة زادتها قبحاً: «لقد ربحتِ الجائزة الكبرى!

- أجبتها: يا للغباء!»

الجائزة الكبرى! أجل، جائزة كبرى من الضجر والاحتقار.

راودني دوماً حدسٌ فيما يتعلق بالأشخاص الذين يحومون حوله، لكنه ظلَّ يدافع عنهم في مواجهتي، ويُؤْثِرْهم عليّ. وحين يخدعونه، يأتي ليتذمر وعندها كنت أشمتُ به بمتعة كبيرة.

بعد كل هذه السنوات من الزواج، نجحنا في امتلاك بعض الأصدقاء المشتركين. ليسوا كثراً، ولم أرتح معهم دوماً، لأنهم مفعمين إعجاباً بالرسام الكبير الذي منحه الملك وساماً بعد أن



Telegram: SOMRLIBRARY

اشترى نحو عشر لوحات بثمن باهظ. ما يزعجني هو أنّ أحداً لا يعرف أنني كنت موجودة دوماً هناك، خلفه، أحثه على العمل، وأهيىء له الجوّ المناسب لكي يستطيع الرسم بهدوء دون أن ينشغل بأية مشكلة حياتية.

ربيتُ الأطفال وحدي. شرحتُ لهم أنه يجب على والدهم أن يعمل وأنه ينبغي عليهم عدم إزعاجه. وفرتُ عليه كل الهموم. لذلك أُعْلِنُ أمام أصدقائه، الحقيقيين والمرائين، أنّ لي فضلاً كبيراً بنجاحه، وأن دوري للأسف غير مرئي، وهذه هي قسمة زوجات الرجال المشهورين، الفنانين منهم على وجه الخصوص.

بما أنه ليس لدينا الأصدقاء ذاتهم، فرضتُ عليه أن يدعني أخرج مع أصدقائي وصديقاتي من حين إلى آخر. وكنّا نبقى عموماً نساءً فيما بيننا، فذلك مسلٍّ أكثر، نثرثر ونروي ترهات ونتبادل المزحات العفوية، باختصار، نضحك ولا نشعر بالزمن يمضي، لكن فلان لا يكفّ عن الاتصال بي كي أعود. كنت أطلب منه أن يدعني وشأني: «سأعود عندما أعود» وكان يكره هذا التعبير. عندما أصل، أجده غير نائم، ويحمِّلني مسؤولية أرَقِهِ. بعد ذلك، يتذرّع برائحة الكحول التي تفوح مني ليذهب وينام في الصالون.

غالباً ما تدخل أصدقاؤه في مشاكلنا. يتصلون بي طالبين مني أن أمرّ لرؤيتهم لأن لديهم أموراً هامة يحدثونني بها. يعظونني: «أنت تدركين الحظ الذي تنعمين فيه بالعيش مع مثل هذا الفنان العظيم، إنه رجل مثير للإعجاب وللغيرة، يجب أن تُيَسري له حياته، وألا تضجريه بالمتاعب؛ إنه يكتئب بسهولة، ولا يطلب إلا شيئاً واحداً،


Telegram: SOMRLIBRARY

أن ينعم بشيء من السلام ليعمل. أنت تفهمين، أسرتك التي تجتاحه لم يعُد يحتملها».

ذات مرة، صرختُ في وجوهم كإجابة. لم أعُد أريد أن يتدخل أحد في حياتنا.

ثم جاء دوره ليعظني: «كيف أمكنك أن تعاملي بهذا الشكل أصدقائي، والناس الذين يساعدوننا وأصدقاء الطفولة والشباب؟».

أصبح سوء التفاهم كاملاً، سواء معه أو معهم.

تغيرت الأمور حين التقيتُ لالا. كانت غيرة فلان تنخره، وتجعله حانقاً وشريراً وعنيفاً. لا يتكلم على المائدة، ويعطي الأوامر بيده. كل هذا لأنني وجدت أخيراً شخصاً يفهمني ويساعدني على تحمُّل ما ينوبني منه ومن عائلته ومن أصدقائه. حسبي منه أنه اعتبرني مجرّد أمّ لأولاده. كنتُ أريد تحقيق ذاتي وأن أُوجَد وأن أنجزَ أشياء وآخذ بثأري من كل إخفاقات حياتي. عند لقائي بلالا، اعتراني على الفور شعور غريب بأنني موجودة في حضرة توأم روحي وشريكتي التي تقرأ كلّ ما يجول في قلبي وخاطري. عذوبتها طبيعية استمدّتها من تجربتها المكتسبة في الهند عندما كانت تتابع دروس معلم نَسيْتُ اسمه. أعطتني كتبها لأقرأها. وتناقشنا مطولاً فيها. فتحتْ لي عيني وعبَّدَت الطريق واكتشفتُ في داخلي كائناً حساساً ذي إمكانات كامنة رائعة عَمِلَ زوجي دوماً على خنقها. راحتْ تساعدني لوضع الإصبع على الجراح وعلى عيوب علاقتنا الزوجية. كانت تتمتع برؤية واسعة وغنية للحياة. تفتحتْ أمامي آفاق جديدة. شعرتُ معها كأنني طفلة يصطحبها أحد ما إلى مدرسة الحياة. ووعيتُ الزمن المهدور في



Telegram: SOMRLIBRARY

الرغبة بتنظيم الأمور. لالا مدتْ لي يدها. ولن أنسى هذا أبداً. فأخيراً اهتم شخص لأمري دون أن يطلب شيئاً بالمقابل. رحتُ أمضي ساعات في منزلها، نتناقش، ثم ننام. تحدّث فلان على الفور عن الشذوذ الجنسي في علاقتنا. الرجال مجانين! ما إن تلتقي امرأتان حتى يظنّون أنها مسألة دعارة. لا، ليست لالا سحاقية. فهي تحبّ الرجال وتتحدثُ عن ذلك. وحتى أظن أنّ لديها عشاقاً، لكننا لم نتحدث في هذا يوماً. سُمْعَتُها لا تتناسب بشيء مع ما هي عليه حقاً. يغار الناس من حريتها وجمالها وكرمها. إنها امرأة تمضي وقتها في الاهتمام بالآخرين.

كانت غيرة فلان مفهومة، هذا صحيح. كنت أمضي وقتاً مع لالا أكثر ممّا أمضي معه ومع الأطفال. أمر طبيعي، ما دام يبدأ بالصراخ وشتم لالا، بمجرد أن نلتقي، وهو ما لا أحتمله. كان مثل جميع أولئك البرجوازيين الذين يحومون حولنا ويضمرون العداء لهذه المرأة الشجاعة التي تجرّأت على تطليق زوجها لأنه لم يكُن يشبعها ولأنه يتغيب كثيراً. حدث ذلك بهدوء، دون صراخ ودون أزمة. وبقيا صديقين. أنا أيضاً تمنيت أن أتوصل إلى هذا الحلّ، لكن زوجي منحرف يعيش على الصراعات ويريد التحكم بكل شيء، وتسوية كل شيء بطريقه أنانية. فهمتْ لالا كل شيء. واكتشفتْ أفضل من طبيب نفسي سرّ خطئنا الأساسي، وهو الاحتفاظ بهذه العلاقة في حين أنه حُكِمَ عليها بالفشل منذ يوم زفافنا.

لستُ الوحيدة التي وجدتُ لالا رائعة. هناك خمس نساء أخريات، جميعهن فقدن الأمل من علاقتهم الزوجية، ومشوهات من ذكورية أزواجهن، ويعانين من النظرات السيئة لمجتمع البرجوازية الصغيرة في الدار البيضاء حيالهن. كنا نلتقي ونتبادل تجاربنا ونحاول


Telegram: SOMRLIBRARY

تحليلها. لالا تحرق البخور وتُسمعنا موسيقى هندية جميلة، ونتأمل أنفسنا في هذه الصداقة الدافئة الجميلة.

كانت لدى لالا، وهي ابنة عائلة كبيرة متحدرة من سلالة الرسول، موهبة التحدّث بطلاقة وملامسة إحساسنا. كنا نحيط بها ونصغي إليها بصمت، ونشرب كلماتها بمتعة. ونقتنع بالبديهة المستخلصة من أقوالها:

نحن هنا حتى نسمح لطاقاتنا بالتلاقي والاندماج وأن تمنح أفضل ما في النفس لروحنا الجماعية كي نسير يداً بيد على طريق الحكمة الأصيلة، طريق إنسانيتنا المدرك بفضل عقولنا التي لن تعود معذبة. نحن هنا في صفائنا حتى لا نقاسي ثقل أنانية الآخرين، أولئك الذين يرون فينا أرضاً للحراثة، بطوناً للإنجاب، كائنات مستضعفة، خاضعة ومستسلمة. أخواتي، حان زمن تحرّرنا وعلينا أن نصغي لإيقاعه وغنائه؛ نحن طاقات، موجاتنا الإيجابية تبعد عنا الموجات السلبية المنطلقة من عيون خصومنا. لسنا أشياء لرغباتهم، ولن نعود أشياء، نحن طاقات حية تتقدم نحو قمم الجبال الشاهقة، هناك حيث الهواء نقي، نقي مثل قلبنا، مثل روحنا. نحن على الطريق، ولن نخضع ثانية للرجل الذي يظن نفسه قوياً، ولن تذلنا ادّعاءاته وطموحاته التي تضحّي بنا وتدوسنا. حرية طاقتنا الأولية بين أيدينا، وشبقية طاقتنا بين أيدينا، وجمال البديهة بين أيدينا، إذاً لنأخذهم ونتقدم لاجتثاث الخوف والعار والخضوع والاستسلام والامتثالية. طاقاتنا تتلاقى، تتحدث مع بعضها وتتحالف في حركة تحرر. أجل، أصبحنا حرات، حرات تماماً. لنمشِ



Telegram: SOMRLIBRARY

دون أن نلتفت إلى الوراء، لأن هؤلاء الرجال الذين يستغلوننا يعرفون أننا الآن أقوى منهم، وأننا قررنا الإمساك بزمام مصيرنا وحياتنا وطاقاتنا بيدنا.

هيا لنتسلق جبل طاقاتنا الإيجابية. ولندَع لهم الطاقات السلبية. سيخفون وجوههم بها. أما نحن، فلن يعود لنا علاقة بأولئك الذين يمشون فوق ظلنا حتى يجعلوننا نتعثر ونسقط. نحن لسنا مجنونات، نحن حكمة وفلسفة، يرشدنا صدى صرختنا الأولى، عند خروجنا إلى النور، نحن الصفاء والوضوح، وبحرٌ لا قرار له، نستهلك طاقتنا في ألق الحياة، في شجرة وغابة الحياة. نحن قويات، متّحدات، ولن نعود أبداً ضحايا.

هنا توجد كلّ الحقيقة. وهذه الحقيقة ساعدتني على التحرُّر من هذا الرجل، أمير كل الأنانيين. هذا ما أدين به لـ لالا، الصديقة الوحيدة التي ستظلّ إلى جانبي عندما أحتاج إلى أحدٍ يساندني. شكراً لالا. شكراً لأنك أنقذتني وفتحتِ عينيّ.



Telegram: SOMRLIBRARY

# زوجي هو...

هو وجد ألف سبب وسبب لعدم حبنا، وإليكم أسبابي:

زوجي لديه الكثير من المزايا، لكنني لا أعرف إلا عيوبه.
زوجي في العمق عازب كهل، مهووس وأناني.
زوجي يأكل بسرعة وهذا يستفزّ أعصابي.
زوجي يحضر إلى المطار قبل ثلاث ساعات من موعد المغادرة.
زوجي غضوب وعصبي عندما يكون معي، لكنه وديع جداً مع الأخريات.
زوجي نافد الصبر.
زوجي يشخر ويتحرّك طوال الوقت وهو نائم.
زوجي لا يحب القيادة ولا يحتمل طريقتي في القيادة.
زوجي لا يحب الناس ويؤثر الوحدة.
زوجي ساذج وضعيف وبلا سطوة.
زوجي أبله. أعزّ أصدقائه خانوه جميعاً (بعض النساء نهبنه بواسطة الابتسامة ووكلاؤه سرقوه).
زوجي يكره الرياضة، ولا يمارس تمرينات وله كرش.


Telegram: SOMRLIBRARY

زوجي يحب سينما الأسود والأبيض؛ ولديه هوس الاستشهاد بمقاطع حوارية من الأفلام التي يحبها، وهذا يستفز أعصابي.

زوجي منافق (أحب هذا التعبير الذي يصفه بدقة ويغضبه).

زوجي خاسر، وعندما يربح، فذلك بالصدفة.

زوجي لا يحب العراك، يقول إنه لا يحب الصراعات.

زوجي أبٌ (أغلب الأحيان) غائب.

زوجي ليس لديه أي جنون ولا أي إبداع (رسمه يثبت ذلك).

زوجي لم يدخن الحشيش قط ولم يشرب الفودكا.

زوجي لم يثمل يوماً ولم يفقد رشده قط.

زوجي يضطهدني حين أشرب كأساً أو أدخن لفافة تبغ.

زوجي عربي، يحمل الإرث العربي وعيوبه.

زوجي ينشِّز في غنائه.

زوجي لا يؤمن بالأرواح والنفس والطاقات التي تنتقل عبر الموجات.

زوجي ليس كريماً، وعندما يهدي لوحة، تكون صغيرة وغير موقعة.

زوجي مُصاب بوسواس المرض.

زوجي ذكوري بلا قوة.

زوجي مثل شجرة، لكن جذعها منخور وميت.

زوجي أرعن إلى درجة أن إحدى صديقاتي تحتفظ بلائحة عن حماقاته.

زوجي يتظاهر بالقراءة عندما لا يرسم (ينام وهو يقرأ).

زوجي يحبّ أن يأوي إلى القيلولة وهو يشاهد فيلماً قديماً سبق أن شاهده مراراً.



Telegram: SOMRLIBRARY

زوجي لا يتقن الكذب.

زوجي غدار ذو طبع سيئ.

زوجي ليس زوجاً.

زوجي يقول إنه أحب الكثير من النساء، هذا خطأ، فهو لم يستطِع حتى أن يحب زوجته.



Telegram: SOMRLIBRARY

# الحقد

يبدو أنه لكي تحقد على أحد فلا بد أنّك أحببته حباً جماً. ربما هذه هي حالتي. أحببتُ فلان، لكن على مضض. قالت لي أمي: «يا صغيرتي، الحب يأتي مع الزمن، تعرفتُ على والدك أول مرة في ليلة زفافنا؛ اعتدتُ أن أعيش معه وأكتشفه، وشيئاً فشيئاً، أدركَ كل واحد منا أنه خُلق للآخر. لذلك اصبري يا ابنتي، الحب هو الحياة، والأفضل أن تكون الحياة هادئة وممتعة» ومثل كل الفتيات في سني آمنت بذلك. اتخذته مثالاً، ورحتُ أنظر إليه كسيّد وأمير ورجل صلب يمكنني الاعتماد عليه والاستناد إليه. عشنا في البداية لحظات ممتعة. اهتم بي ورعاني، خاصة خلال فترة حملي. كان رائعاً. تلك هي أجمل ذكريات سيرتنا. كان وفياً ولم يتركني دقيقة واحدة، يتسوّق، وعندما لا تأتي مدبّرة المنزل، يغسل الأواني، ويحمل البياضات إلى المغسلة، ويكنس بالمكنسة الكهربائية، بينما أنا أسترخي. كنت أنظر إليه يفعل ذلك وأقول في سري: «رغم كل شيء، فنان كبير يغسل الأرض، يجب أن ألتقط له صورة وهو يرتدي صداره وأرسلها إلى صحيفة» إنني أمزح. كان شخصاً آخر. في الحقيقة، أدركتُ فيما بعد أنه يعاملني بلطف لأنني بالنسبة إليه ولعائلته أماً ولودة. إضافة إلى أن عائلته تنظر إليّ كغريبة. فقد بلغني



Telegram: SOMRLIBRARY

أن زوجة أخيه أعلنت: «يجب أن يعطيها أجرها وتذهب، نحن سنهتم بالطفل». رغبتُ أن أرشّ وجهها بالأسيد. لكنني هَدَّأْتُ نفسي. ورحتُ أقول في سري: «سيمر هذا» ولم أقل «سيتغير» لا، عرفتُ أن ذلك لن يتغير أبداً. كان هو موافقاً، فلم يدافع عني. هذا ما أنا متأكدة منه.

اليوم، أعترف أنني أكرهه. لا أريد له الأذى وحسب، وإنما أريد له ما هو أكثر من الأذى؛ لا أكون هادئة إلا عندما يغيب؛ وما إن أصبح في حضرته، رغم ما آل إليه، حتى أشعر بأعصابي تستفز. قال لي يوماً: «الحقد شعور سهل؛ الحب أكثر تعقيداً، يجب اختراق دفاعاته والاستسلام له» كل هذا عبارة عن ثرثرة فارغة. لجأ دوماً إلى هذا النوع من التوضيحات لينتقص من شأني، كما لو أنه يريد تذكيري بأنه درس الفلسفة وأنا لم أدرس. مثلما حدث في قصة الغطاء المطرز الذي أراد أن يفرضه عليّ فوضعه على طاولة مستديرة في الصالون. لستُ بالحمقاء التي يظنّها. وإذا كنتُ قد رفعته، فذلك لأنه قطعة من الأعمال اليدوية النادرة والنفيسة يجب تأطيرها وليس استخدامها كغطاء طاولة، ولأنني خشيتُ أن يتسخ أو يتمزق. كان الأجدر به أن يذهب وينظر في الصندوق الكبير في غرفتنا، سيرى أنني طويته بأقصى عناية في العالم.

حدث أن رغبت باختفائه. جميعنا يشعر في يوم ما بهذا النوع من الرغبات، ولو لبضع ثوانٍ. ففي إحدى السهرات، ظلّ يحوم حول فتاة صهباء ذات جمال مثير، فجأة، لم أستطع أن أحتمل ذلك. أخذت حقيبتي وغادرت الحفلة. تبعني إلى المرآب، وتشبث بمقبض باب السيارة، لكنني انطلقت كالإعصار. سقط، ولم أرجع إلى الخلف، وإنما تابعتُ طريقي. لو أن سيارة أخرى كانت تسير



Telegram: SOMRLIBRARY

خلفنا لسحقته. نهض ووجهه مضرج بالدماء؛ في الحقيقة، لا شيء خطير، فقط خدوش، كما علمت فيما بعد. لم أزل أتذكر أدقّ تفاصيل تلك السهرة. حقدَ عليّ لزمن طويل، ولامني لأنني لم أهبّ لنجدته وتركته يعود لوحده. فبعد كل ما كابدته منه، لن أفتح له باب السيارة وأتناقش معه، كأن شيئاً لم يكن. الإحساس ذاته تقريباً راودني عندما لم أشأ أن أقوم بدور سيارة الأجرة لدى عودته من الصين. رغبتُ بمعاقبته لأنه رفض اصطحابي معه. اشتبهتُ أنه سافر مع امرأة أخرى. لذلك سواء كان مريضاً أم معافى، لن أكون سائقة عنده.

إنني عنيفة، وأنا موافقة. هو يعرف ذلك، فلماذا إذاً هذه الاستفزازات المتواصلة؟

يعاتبني لأنني لست معجبة به. معه حق. كيف أُعْجَبُ برسام هو أيضاً رجل ذو تصرفات دنيئة وزوج عديم الذكاء؟ لم أعد أريد الفنان لأنه لا يفيدني بشيء. وأن أكون زوجة فلان، فربما هذا حظ في نظر الأخريات، أما بالنسبة إليّ فهو مهنة. كان يتقمص شخصية بيكاسو وسلوكه الماجن في غزواته. حتى إننا شاهدنا سوية فيلماً يصور ذلك علانية. لا يعجبني فلان، أمقته، وأعترف أن حالته في وضع الرجل الضعيف لا تثير شفقتي. أنظر إليه وأرى فيه قبل كل شيء الخائن والوحش الذي استغل سنوات شبابي وهجرني. يقول إن كل هذا خطئي. من السهل أن يحمِّلني مسؤولية إصابته بالسكته الدماغية. كان الطبيب قد حذره، وكان عليه أن يتبع حمية، وألا يعود للشرب إلى هذا الحدّ وأن يتوقف عن التدخين، لكنه استمر في العيش كما لو أنه ما زال في الثلاثين من عمره. عانى دوماً من الشدة، ومن القلق المفرط والكآبة الشديدة عندما كنا نسافر. كان يصل إلى


Telegram: SOMRLIBRARY

المطار قبل الموعد بوقت طويل، ويكره حمل الحقائب، ولا يحتمل الانتظار في الصف، ويستعجل للجلوس في الطائرة، كما لو أن أحداً سيسرق مقعده. شعوره بالشدة كان يلازمه قبل أن يتعرف عليّ. لذلك الشدة إضافة إلى غياب القواعد الصحية في حياته، والسهرات الاحتفالية مع صديقاته والخروج مع أصدقائه المعجبين به لأنه دوماً يدفع الحساب، كل ذلك أدى به الإصابة بالسكتة الدماغية. وودتُ لو كان لي يد في الأمر، وأظن أن رغبتي سرَّعَت الأمور. تحسنتْ صحته قليلاً، فزعم أنّ ذلك بفضل إيمان التي حضرت بصفة ممرضة بينما كانت تضاجعه رغم حالته. خمَّنتُ ما كانا يقومان به في غيابي. قرأتْ لالا كل شيء على وجه إيمان. إنها شابة طموحة تبحث عن الاستفادة من رجل أصابه الضعف. اهتميتُ شخصياً بحالتها. وعندما يحين الأوان، ستندم على ذلك بمرارة.

لن أترك فلان. ولن أدعه ينعم بالسلام أبداً. يجب أن يتحمّل مسؤولياته. أسخر من صحته ومن نزواته وحالته النفسية. وطالما لم أُشبع رغبتي بالثأر منه، فلن أكفّ عن بغضه. سأعود إلى حياتي يوماً، لكن ليس قبل أن يدفع الثمن. وطالما لم يندم على ما فعله بي، وطالما لم يعتذر أمام جميع الناس، فلن أتركه! أنا أكثر أنفة وزهواً من أن أستسلم. إنني مترعة بالحقد، وإذا هززتموني، فتسقط مني قطرات السم.

أكره رائحته.

أكره هيئته.

أكره أنفاسه.

أكره فمه.

أكره ابتسامته الساخرة.



Telegram: SOMRLIBRARY

أكره سوء نيته.
أكره أصدقاءه.
أكره طريقته في الأكل بسرعة وتلويثه لنفسه.
أكره شعوره بالشدة وقلقه.
أكره أرقه الذي يزعج رقادي.
أكره ضعفه وغياب ردات فعله.
أكره ضحكته البذيئة.
أكره مشروبه الويسكي المصنوع من الشعير المستنبت.
أكره سيجاره الكوبي الذي يحتفظ به بعناية.
أكره مجموعته من ساعات اليد الفاخرة.
أكره طريقته في المضاجعة.
أكره صمته الثقيل.
أكره لامبالاته.
أكره علاقته المنافقة بالدين.
أكره غياباته المديدة.
أكره أنانيته.
أكره التهدلات الدهنية حول خصره.
أكره شغفه بالسينما.
أكره موسيقى الجاز التي يصغي إليها رافعاً الصوت إلى أقصاه.
أكره كل النساء اللواتي تعرّف إليهن قبلي.
أكره وأحتقر كل النساء اللواتي أحبهن بعيداً عني.
أكره عنفه الصامت.
أكره عراته (عندما يغتاظ، يعضّ شفته السفلى).
أكره مكالماته الهاتفية ليطمئن قبل أن يشرع في مغامرة عاطفية


Telegram: SOMRLIBRARY

مع أخرى مباشرة (كان يتصل على الهاتف الثابت ليتأكد أنني موجودة في المنزل).

أكره محترفه ورسومه وسريره وأريكته ومنامته وفرشاة أسنانه ومشطه وآلة حلاقته، أكره كل أدوات زينته، كل حقائبه، وبشكل خاص الحقيبة الجلدية الصغيرة التي لا تفارقه أبداً.

أحلمُ بتدميره ورؤيته تحت رحمتي، راكعاً على ركبتيه، مجرداً من كل شيء، عارياً مستعداً للدخول في الكفن الذي أهديته له بمناسبة الذكرى السنوية لزفافنا.

يحدث لي أنا نفسي أن أصاب بالأرق. فهذا ليس حكراً على الفنان. لذلك أروي حياتي وأعيد الأمور إلى نصابها. بعد ذلك، أتسلى في تخيّل الطرق المختلفة للتأثير فيه وإيلامه، لكن حاجتي للثأر تظلّ مضطرمة وتُضاعف من قسوة الأرق:

- إحراق مجموعة مخطوطاته القديمة التي سرقتها من محترفه. أعرف، هذا تصرف إجرامي، لكن إذا كان ذلك يؤلمه، فهذا هو الأساسي بالنسبة إليّ.

- ضبط خطة محكمة للتنكيل بعشيقاته اللواتي تمكنتُ من تحديد إحداثياتهن وإطلاعه على أفعالي وعلى ردود أفعال هؤلاء المنافسات اللواتي خربن حياتي.

- الاستفادة من لحظة غير متوقعة وجعله يوقّع على توكيل (محرر مسبقاً) يتيح لي تحويل ممتلكاته إلى حسابي المصرفي. وبما أنه يعبد المال، سيغدو مجنوناً.

- طلب خبراء طبيين لإعلان عدم أهليته وعدم مسؤوليته عن تصرفاته حتى أضعه تحت وصايتي.


Telegram: SOMRLIBRARY

- سيتبول حين أقرِّر ذلك. سيحاول مناداتي، ولن آتي لاصطحابه إلى المرحاض. أحب فكرة أن يشعر بالبول الحار بين ساقيه. سيكون على هذا النحو مهاناً.

تراودني أفكار أخرى، لكنني أنوي التصرف على مراحل، بلا تهور، بلا ارتجال.


Telegram: SOMRLIBRARY

# الحب

يحدث لي أيضاً أحياناً أن أطرح على نفسي هذا السؤال: هل أحببتُ هذا الرجل؟ ربما أحببته بشكل سيئ، لكنني اليوم، بعد أن أفرغتُ ما في جعبتي وتكلمتُ وفكرتُ، يمكنني القول بأنني لم أتحرك إلا بدافع الحب. ليس أي حب. حب بمعزل عن العقل والجنون. شيء مختلف. كان عليّ أن أحبه لأنه لم يكن بوسعي فعل شيء آخر. جئتُ من بعيد، من عالم تعرفه قلة من الناس. ذات يوم، شعرتُ بالضجر أثناء حفلة خطوبة في عائلتي. نظرتُ حولي فبدا كل شيء لي غريباً بالنسبة إلى الحياة التي أمضيتها مع فلان. تَوَلَّدَ لديّ انطباع بأنني بعيدة عن هؤلاء الناس، عن هؤلاء النسوة الراضيات، عن هؤلاء الرجال السعداء والمشبعين، عن هؤلاء الأطفال المتروكين لوحدهم في فناء مليء بالغبار والقذارة. أخذتُ أحدِّق بعمتي التي ولدت ابنتها للتو وتساءلتُ: «هل ثمة حب بينها وبين زوجها؟» راقبتهما، كل واحد منهما في زاوية، هي مستغرقة في إعداد الغداء وهو يلعب الورق مع رجال آخرين. الحب الحقيقي والعظيم، ذاك الذي يجرفُ كل شيء في طريقه، لا أراه في أي مكان من حولي، وبالتأكيد ليس في هذا المنزل من بلدة كل شيء فيها موجود في مكانه ومرتب جيداً. ليس ثمة أدنى أثر للشجار...



Telegram: SOMRLIBRARY

للنساء أدوارهن، وللرجال أدوارهم. التقليد والطبيعة يفعلان فعلهما. كنت أشعر أنني زائدة عن اللزوم في هذا التجمع المفعم بالفرح والسعادة. ينبغي على الأخص عدم عرقلة أي شيء في كل هذا. تنحيتُ جانباً وراقبتُ السعادة تتصاعد حسب إيقاعٍ وطقسٍ لا يعبِّران عني. أصبحتُ غريبة في مسقط رأسي. مع أن أبي قال لي مراراً إن جذورنا لا تفارقنا أبداً. أجل، لكن جذوري لم تتبعني، وأكاد أقول إنها تخلت عني؛ وحدث لي أن بحثتُ عنها فلم أجد إلا آثاراً مثيرة للسخرية لفلاحة فقيرة وفظة.

تعلمتُ الحب في الروايات وفي بعض الأفلام التي شاهدتها في مرسيليا. كنتُ أتقمص دور البطلة، وأرى نفسي منتصرة وسعيدة في حضن الممثل الرئيس. لم أكن أدركُ الفرق جيداً بين الحب في الأفلام والحب المعاش.

تساءلتُ أيضاً في سن الثامنة عشر: من أحب؟ ونحو من أتّجه؟ لم يجذبني أحد من حولي. كنت مستعدة للوقوع في الغرام وأنتظر أن يظهر رجل، رجلي، كما على خشبة مسرح. كنت أنتظره وأرسمه وأختلقه، أمنحه عينين زرقاوين واسعتين، وقامة طويلة، وأناقة ووسامة، وطيبة أيضاً. كنت حرة وأتابع دراستي بصعوبة وأنتظر أن يزور حبيبي لياليَّ.

يوم التقيتُ فلان، كنتُ شاردة، وأنظر إلى مكان آخر، وهو من جذبني إليه وطرح الكثير من الأسئلة حول أصولي وحياتي ومستقبلي. أمسكَ يدي اليمنى وتظاهر بقراءة خطوطها، ثم فعل الأمر ذاته مع اليد اليسرى. قال لي أشياء صحيحة. كان حدسه قوياً. حدثني مطولاً عن المغرب وفرنسا، عن الفن ورغبته بالحصول على إجازة، إجازة طويلة. وجدته وسيماً وفي الوقت ذاته ثمة شيء



Telegram: SOMRLIBRARY

فيه كان يزعجني. ينظرُ إلى النساء الأخريات وهو يحدثني. عينه تجول في صالة العرض هذه وتستقر على أجساد النساء. لاحظتُ أن بعضهن ينظرن إليه أيضاً. قلت في سري: «إنه مغوٍ، مثير للاهتمام» وها هو يطلب مني رقم هاتف للتواصل معي لأنّ لديه شيئاً مهماً يعرضه عليّ. عندما أردت أن أعرف أكثر، اعترف أنه يريد أن يرسم بورتريهاً لي وعلى هذا النحو كان يستدرج النساء إلى محترفه. لم أعرف إنْ كان جاداً أو يمزح. رفضتُ بتهذيب، لكن الصدفة جعلت طريقينا يتقاطعان من جديد في أمسية عند أستاذي في تاريخ الفن الحديث. لم يتركني طوال السهرة. رافقني حتى منزلي، إلى الإستديو الصغير الذي أسكنه في إحدى الضواحي.

وُلِدَ الحب. لم تعُد صورته تفارقني وفوجئت مراراً بأنني أنتظر منه إشارة أو مكالمة هاتفية أو بطاقة بريدية أو زيارة مباغتة.



Telegram: SOMRLIBRARY

# الوجود

هو ذاك، لقد أفرغت ما في جعبتي. وعلى النقيض منه، كنتُ مُختصرة ومباشرة. وعلى أية حال، أعرف أنكم ستصدِّقون روايته وليس روايتي، لأن نتاجه الفني هو الذي سيبقى، وليس قصة حبنا البائسة. أما أنا فلست إلا فلاحة هبطت على حياته وبسببها انقلب كل شيء. لم يسعدني ومع ذلك أعتقد أنني بذلت جهوداً كبيرة لتكون حياته رائعة. يؤسفني أنني تغاضيت أغلب الأحيان عن أمور كثيرة. وها هو فلان اليوم لا يثير شفقتي، مع أنه جالس على كرسيه ونصف جسده مشلول. الشفقة، إنها ليست شعوراً جيداً، لكنني لا أرغب برؤيته واقفاً في صحة جيدة، مستعداً لاستئناف خياناته. سأهتم به بعد الآن، سأكون ممرضته، أمه الصغيرة، زوجته، وربما صديقته. أوقفتُ إجراء الطلاق. سأغيرُ تكتيكي وأيضاً سلوكي، سيفاجأ وسيرى أنه لن يعود بمقدورة الاستغناء عني. سأحبّه كما أحببته في اليوم الأول، سأحبه وأحتفظُ به لنفسي. سأتخلّص من دوافعي الأكثر سوءاً؛ سأتخلى عن الثأر؛ سأفعل الخير وسأضع نفسي تحت تصرّفه. ولن أعود للتساؤل فيما إن كنتُ أحبه أم لا، فأنا أعرف أنه غير قادر على الحب والعطاء ولا على تلقيهما. لستُ غولة، مع أنّ كل ما رواه يؤهلني لأكون غولة يأتي عبرها المرض والموت.



Telegram: SOMRLIBRARY

سيكون تصرفي الأول حياله هو أن أحمل له الحساء، ثم أدلكه مطولاً كما كانت تفعل حسناؤه إيمان. إنها تعيش الآن على بعد كيلومترات من هنا. ذهبت لرؤيتها يوماً، في بداية شهر آب/ أغسطس، جلبتُ لها هدية، فستاناً جميلاً لم أعُد أرتديه، دعتني إلى شقتها الصغيرة في حيّ شعبي حيث تسكن مع أمها وأخيها. كلّمتها بصراحة وقلت لها: «هو ذاك، أريد أن أهتم بزوجي، إنه بحاجة إلي، أتمنى أن يشفى، وأن يستأنف الرسم بفضلي، أنا زوجته. إنه فنان كبير، لذلك أرجوك، لا تعودي للاهتمام به، أشعر أنّ هذا يشوشه، أصبح ضغطه غير منتظم، وهذا خطر. أعرف أنني أطلب منك أن تؤدي لي خدمة تقريباً، لذلك أقترح عليك صفقة: سأزودك بفيزا لأخيك حتى يستطيع العبور إلى إسبانيا، ثم أدفع لك أنتِ حتى تغادري إلى بلجيكا. الأمور سهلة جداً، ستعلّمينني كيف أزرقه الحقنة وقليلاً من التدليك، هذا كل شيء. سيترتب عليك أيضاً أن تسكّني من روعه وتشرحي له أنك ستتزوجين وأن خطيبك سيصل عمّا قريب من أجل التحضير للزفاف. سأهتم بأوراقك، ولا بد أن ذلك غير معقّد ما دام وضعك متعلق بِلَمِّ شمل العائلة. وبالنسبة إلى أخيك، سيكون الأمر سهلاً، أعرف حقّ المعرفة قنصل إسبانيا، ولن يرفض لي جافييه طلباً، فهو صديق زوجي أيضاً».

صُدِمَتْ إيمان في البداية من زيارتي ومن اقتراحاتي، لكن قلبها كان صافياً ووجدت أنه أمر مشروع أن تهتم زوجة بزوجها المريض. قالت لي إن فلان بالنسبة إليها مثل عم أو أب، وأنها لم تفعل شيئاً سوى عملها وأنها مغرمة بحبيبها. تظاهرتُ بالموافقة، وتطرقتُ للمسائل العملية. عرضتْ عليَّ كيف أزرق الحقن، وشرحَتْ لي أيضاً تقنيات التدليك والطرق المتَّبعة لتستعيد العضلات حيويتها. أمضيتُ



Telegram: SOMRLIBRARY

عصراً تعليمياً مفيداً. أعطتني جواز سفر أخيها عزيز وملفّها الخاص ببلجيكا الذي رفضته القنصلية. تعانقنا وغادرتُ وأنا فخورة بنفسي.

نجحتْ مناورتي الآن، وسيُطْبِقُ الفخ عليه. لم يعُد أمامي إلا ان أعرض على فلان بلطف ورقَّة كيف أتخيَّل حياته الجديدة. احتجتُ إلى مراجعة دوري. ساعدتني لالا. لعبتْ هي دور الزوج وأديتُ أنا دوري الحقيقي. كان ذلك مسلياً. وفي لحظة انفجرنا ضاحكتين، بل إنها قالت لي إننا سنكسب بهذه الخطة حتماً أكثر ممّا سنكسبه من بخور الطالب في الجبل. وفتحنا زجاجة فاخرة للاحتفال بالحدث.

هكذا سأكون في خدمته ليل نهار. سأقترح عليه أن ننعم بالسلام، باسم أطفالنا. هذه أفضل وسيلة لئلا يفلت مني ثانية، وليغدو أخيراً الرجل الذي حلمتُ به. سأعالجه، سأكون مفيدة له إلى درجة لا يسعه معها الاستغناء عني. سأجعله كما هو؛ ولن أسعى إلى تغييره. لستُ وحشاً؛ ولديّ مشاعر؛ همجية قليلاً، وفظة إلى حدٍّ ما، وهذا هو جانبي «الفطري»؛ أكره المرائين والنفاق المألوف في عائلته. سأحبه وأمنحه ما لم أستطع تقديمه خلال تلك السنوات من سوء الفهم، سأعجب به، أنا التي بذلتُ ما بوسعي لئلا أظهر له مقدار فخري به. أريده أن يعرف أنني أحبه، وأن يدرك أنني لست عدوته وإنما المرأة الوحيدة التي أحبته، لا سيما الآن وقد أصبح عليلاً، الآن وقد جَمَّدَ المرض ونتائجه حياته. استعلمتُ عن مرضه بالسكتة الدماغية، ويبدو أنه سيتعافى منه، هذا ما أكدوه لي، لكن هل سيكون في أحسن حالاته؟ وهل سيسعه الرسم بمهارة أيضاً كما في السابق؟ لا يعرف أي طبيب أن يجيب على ذلك بدقة. ولا يمكن لأحد إلا مراقبة تحسُّنه والتهنئة لأنه أمسك الفرشاة. سأرعاه، ولن تقترب منه


Telegram: SOMRLIBRARY

أية امرأة أخرى ثانية، سأكون موجودة ولن يتحرك ثانية عن مقعده. سيساعدني التوأمان، كما يسميهما، عندما يتعلق الأمر بنقله إلى الحمام أو خروجه، لكن أنا من سينظّفه بعد الآن، أريد أن آراه بين يدي، مثل طفل، عاجزاً، ولن يسعه الاعتراض، ولا توجيه التهديدات والشتائم كما في السابق. سأكون في مأمن منه. سأنام إلى جانبه، وأُحَضِّرَ له منقوعه، وأُجَرِّعه أدويته وحتى أقراصه المنومة لينام طويلاً. حان الوقت لأثبتَ له أنني امرأة طيبة، نزيهة، مستعدة للتضحية مرة أخرى بشبابها أو ما بقي من شبابها ليعيش هو براحة. سأكون متيقظة ولن أدعه وحيداً أبداً. تحدثتُ مع أطبائه الذين أثنوا على الفكرة. على أية حال، نحن تزوجنا على السرّاء والضراء، بحسب الصيغة المسيحية. أما عندنا، فيُقال إنه يجب أن نتساعد ونتعاون فيما بيننا في حالة المرض. وها أنذا أفعل الاثنين.

استوليتُ على السلطة، لكنني سأستخدمها برقّة ستُدهشه، وستجعله سهل الانقياد. بدأتُ بتنظيم أموره. لن تمرّ أية وثيقة ولا أيّ توقيع دون موافقتي. خبأتُ بضع لوحات في القبو ولديّ مفتاح الباب إضافة إلى رمز الأقفال. وداعاً للهدايا إلى هؤلاء وأولئك. اتصلتُ بوكيله الذي اعترف على الفور أن حصته ازدادت منذ إصابته بالسكتة الدماغية وأنه لا يفضّل بيع أي شيء الآن. أوضحَ لي أنه كلما قلَّ عدد اللوحات المتداولة، كلما زاد من قيمتها، فالندرة ترفع الثمن. لذلك انتهى الرسم أياً يكن تصور فلان حياله. وعلى أية حال، لن يسعه أبداً امتلاك القدرة لإنجاز مثل تلك اللوحات العظيمة التي بيعت بأثمان باهظة. كفى! هو الآن شيء يخصّني وأنا أفعل بهذا الشيء ما أشاء. أريد هذا الشيء هادئاً، أريده رضياً، وأكاد أقول سعيداً.



Telegram: SOMRLIBRARY

تفصيلٌ مهم، يجب أيضاً أن أتحقق من أنه ليس لديه أطفال في مكان آخر. وجدتُ في خزنته صورة صبي صغير بين ذراعي امرأة صهباء...

الزوجة اللطيفة التي تتلقى الصفعات أصبحت من الماضي. أنا أمينة، في هذه الليلة بين الأول والثاني من تشرين الأول/ أكتوبر عام 2003، حررتُ هذه الإجابة على مخطوطه، وقررتُ أن أحب زوجي في الحالة التي هو عليها. لن تتوه عواطفي بعد الآن في أزقة بلا نهاية. إنه قرارٌ فكرتُ فيه بنضج، وأنا مدينة بقسط كبير منه إلى لالا. ففكرةُ استعادته جاءت منها. إنها عبقرية. ولولاها، لبقيتُ دوماً أضجر وأبكي في ركني. وحتى اقترحتْ عليّ أن أجلب له بين حين وآخر امرأة، إن كان هذا يسعده؛ ولست أدري إن كنت قادرة على ذلك. لا، يجب ألا أبالغ. سيكون هذا هو ثأري، وسيمضي عبر طريق الخير والطيبة والكرم. سيكون حباً وفداءً. سأغمره بحب لا نهائي، جميل وعميق، حب سيجعله حالماً وسيغلفه بعذوبة لم تخطر له على بال. سأتصاغر أمامه وأطلب الصفح، سأهيىء نفسي لأطيعه وحتى لأستبق رغباته إلى درجة لن يسعه معها أن يشكّ في حسن نيتي ولا في رغبتي بحلّ أدنى مشاكله ولا بخضوعي له. أجل، سأخضع وأستسلم، وآمل على هذا النحو أن أنجز قربه عملي بتمهُّل ومثابرة على الدوام. أشكرُ الصدفة التي أتاحت لي استعادة مكاني، ذلك المكان الذي لن أضطر لخسارته أبداً. سيصاب فلان بدهشة عميقة عندما سيفهم. سأفعلُ ما بوسعي ليكون شيئي وموضوعي ومريضي، وتابعاً لي كلياً وتماماً، وليس لأحد غيري. سأتلذَّذ بتلك اللحظات القادمة. سأستمتع بهذه النعمة. وها أنذا أخيراً حرة، وها أنذا أخيراً سأوجد.


Telegram: SOMRLIBRARY

# المحتويات

## الجزء الأول
## الرجل الذي أحب النساء حباً جماً


تمهيد ........ 9

1. الدار البيضاء، 4 شباط/ فبراير 2000 ........ 13

2. الدار البيضاء، 8 شباط/ فبراير عام 2000 ........ 18

3. باريس، 1986 ........ 34

4. باريس، 1990 ........ 42

5. مراكش، كانون الثاني/ يناير 1991 ........ 51

6. الدار البيضاء، 24 آذار/ مارس 2000 ........ 57

7. باريس، آب/ أغسطس 1992 ........ 65

8. مراكش، 3 نيسان/ أبريل 1993 ........ 74

9. الدار البيضاء، 1995 ........ 81

10. الدار البيضاء، 1995 ........ 89

11. الدار البيضاء، نيسان/ أبريل 2000 ........ 96

12. الدار البيضاء، 1998 ........ 99

13. الدار البيضاء، 15 تشرين الثاني/ نوفمبر 1999 ........ 104




Telegram: SOMRLIBRARY

14. الدار البيضاء، 27 آب/ أغسطس 2000 ............... 113
15. الدار البيضاء، 28 آب/ أغسطس 2000 ............... 121
16. الدار البيضاء، 12 أيلول/ سبتمبر 2000 ............... 139
17. الدار البيضاء، 5 تشرين الأول/ أكتوبر عام 2000 ...... 142
18. الدار البيضاء، 4 تشرين الثاني/ نوفمبر عام 2000 ...... 146
19. الدار البيضاء، 6 تشرين الثاني/ نوفمبر عام 2000 ...... 152
20. الدار البيضاء، 2 تشرين الثاني/ نوفمبر 2002 .......... 157
21. الدار البيضاء، 20 تشرين الثاني/ نوفمبر عام 2002 .... 164
22. الدار البيضاء، 1 كانون الأول/ ديسمبر عام 2002 ..... 170
23. الدار البيضاء، 19 كانون الأول/ ديسمبر 2002 ........ 176
24. الدار البيضاء، 4 كانون الثاني/ يناير 2003 ............ 180
25. الدار البيضاء، 25 كانون الأول/ ديسمبر 2003 189
26. الدار البيضاء، 3 شباط/ فبراير 2003 ................. 193
27. الدار البيضاء، 12 شباط/ فبراير 2003 ................ 203
28. الدار البيضاء، 18 شباط/ فبراير 2003 ................ 208
29. طنجة، 23 أيلول/ سبتمبر 2003 ...................... 211

## الجزء الثاني
## روايتي للأحداث
### رداً على «الرجل الذي أحب النساء حباً جماً»

تمهيد ............................................. 219
روايتي ............................................. 221


Telegram: SOMRLIBRARY

المخطوط السري .................................... 231
زواجنا .................................... 244
المال .................................... 254
الجنس .................................... 262
الغيرة .................................... 266
الخطأ .................................... 269
عائلة الزوج .................................... 273
أصدقاؤنا .................................... 277
زوجي هو... .................................... 283
الحقد .................................... 286
الحب .................................... 293
الوجود .................................... 296

Telegram: SOMRLIBRARY

## الطاهر بنجلّون

# السعادة الزوجية

**«ليس الزواج شيئاً آخر سوى إعلان حرب نحتفل به بالموسيقى، مع وجبة طعام فاخرة وعطور وبخور وملابس أنيقة ووعود وأغانٍ...»**

**السعادة الزوجية**، وهو العنوان التهكمي لهذه الرواية، يقدم صورة للعلاقة الزوجية التي تبدأ بالحب وتنتهي بخيبة الأمل وعدم التفاهم والكراهية أحياناً. يحكي لنا الطاهر بنجلّون، بأسلوب شيق، وجهتي نظر متناقضتين لقصة زواج واحدة: الأولى للزوج، والثانية للزوجة.

لدينا إذاً جزءان وقصتان وروايتان، إذ يروي لنا الزوج، بعد أن تقدمت به السن، مشاعره إزاء علاقته الزوجية ومسار انهيارها البطيء من خلال العودة إلى قراءة مذكراته، أما الزوجة الساخطة والغيورة التي تعرضت للخيانة، فتقدم لنا رواية مغايرة تماماً للأحداث. مَن المخطئ ومَن المحق؟

كأنه صديق للزوجين، يصغي القارئ إليهما كلٌّ على حدة، ويعيش حكَماً بينهما، وينتهي إلى أن يطرح على نفسه أسئلة عصرية حول الزواج: هل يمكن لشخصين من طبقتين اجتماعيتين مختلفتين أن يتفقا؟ إلى أي مدى يمكن الاستمرار في التظاهر بعد زوال الحب؟ هل يمكن لأحد الزوجين أن يغيِّر الآخر؟

مكتبة سومر

يقودنا الطاهر بنجلّون في هذه الرواية إلى الخبايا الأكثر خصوصية للحياة الزوجية، ويدفعنا، بأسلوب مؤثر وذكي، للتفكير في الأمور الجوهرية للحياة كالزواج والاختلاف والخيانة والطموح والغيرة...

لوحة الغلاف: plainpicture/donkeysoho

ISBN 978-9953-68-695-0

9 789953 686950

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com